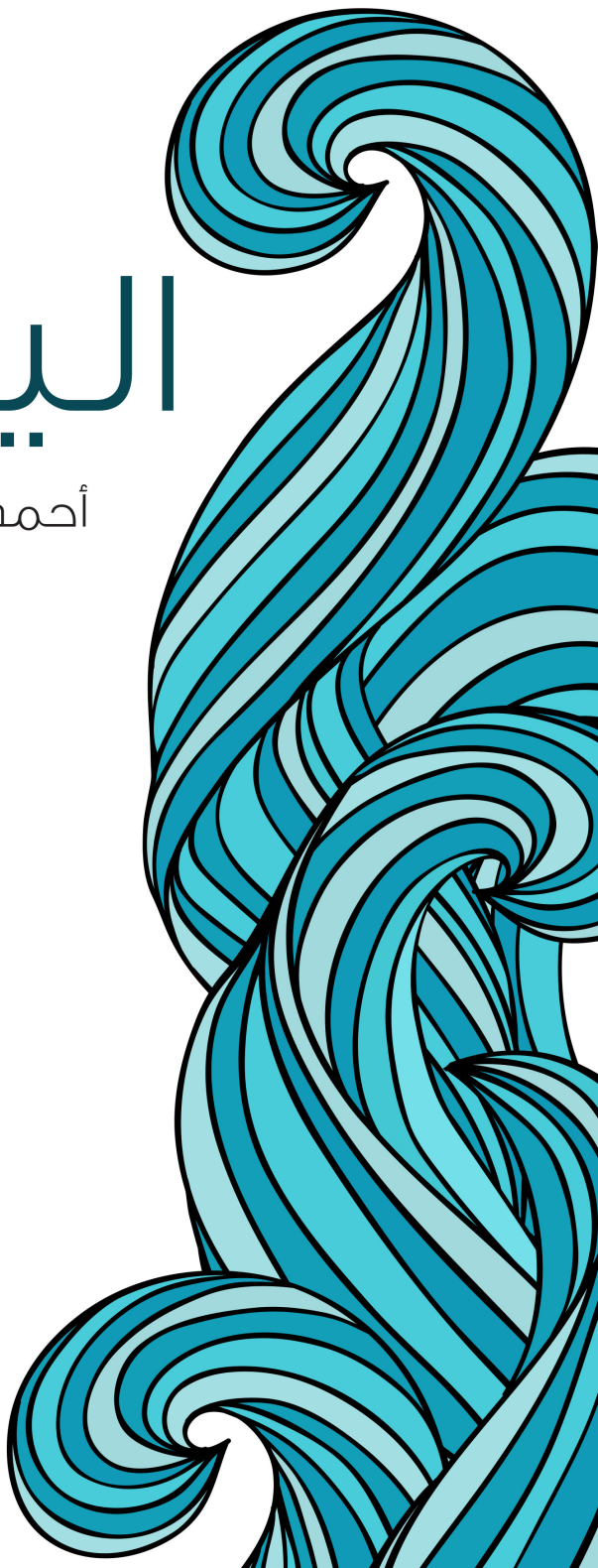


الينبوع

أحمد زكي أبو شادي



الينبوع

الينبوع

تأليف
أحمد زكي أبو شادي



رقم إيداع ٢٠١٣/١٩٦٢٥

تدمك: ٩ ٤٦٧ ٧١٩ ٩٧٨ ٩٧٧

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦/٨/٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتاح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + فاكس: ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إسلام الشيمي.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2013 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

٧	تصدير
٢١	إلمامة
٣١	إهداء الديوان
٣٣	شعر الديوان
١٥٧	كلمة ختامية

تصدير

يستقبلُ هذا الديوانُ عامَ ١٩٣٤م بمجموعة شعري غير الدراميٍّ منذ صدور ديواني «أطياف الربيع» حتى نهاية سنة ١٩٣٣م، التي أودّعها وأنا أحبر هذه السطور بين أطيافها الأخيرة.

ولي كلمة أوجهها إلى مريدي هذا الشعر وإلى غير مريديه على السواء: تلك هي أنه لا سلطان لي على قرضه، بل أنا مرغمٌ إرغامًا عليه بدوافع نفسية لا أملكها تزجيني إلى هذه التعابير النظمية، فليس محتومًا على غير مريديها أن يطلعوا عليها حتى أكون مُعرّضًا لمؤاخذتهم إياي، وليس محتومًا على مريديها أن يدافعوا عنها إلا في مجال النقاش الفني، فللناس أذواق تتباين، ولا بد لتذوق الآداب والفنون من وجود تجاوب بينها وبين ناقدية، ومن الخير الأدبي وجودُ هذا التباين في مبلغ هذا التجاوب، واحتكاكُ المذاهب الأدبية بعضها ببعض، لا أن نستاء من ذلك الخلاف البريء، ونعمل عى القضاء عليه؛ فإنَّ هذا الاستياء في ذاته يُنافي الروح الفنية، ومحاربة الجهود البريئة المنوعة التي هي عوامل النهضة الفنية وقوامها — حتى ولو كان بعضها مصطبغًا بالصبغة التقليدية المحافظة — إنما تُعدُّ وصمة للفنِّ والفنانين.

وما كان ثمة داعٍ لنشر هذه الأشعار ولا ما سبقها من دواويني لولا نوازع صوفية وجدانية تُحبب ذلك إليَّ كأنما أنا مكلفٌ برسالة أؤديها، فإن عهدي بشعري ينتهي حينما أنتهي منه، وقلّما أحفظ منه شيئًا، ولولا ذلك لما ضاع ما ضاع من شعري الكثير من عواصف السياسة أثناء اغترابي الطويل عن وطني، فضاع بضياعها سجل طويل لحياتي العاطفية. وعُذْر آخر — إن كنتُ مطالبًا بعذر — لوفرة دواويني: ذلك أنني على كثرة إنتاجي الشعري لا أنشر إلا النزر اليسير منه في الصحف، ولا أستثني حتى مجلة «أبولو»

الشعرية التي أُوْثِرَ وَقَفَ معظم صفحاتها على الكثيرين من شعراء الشباب، وعلى الشعراء المجيدين المغمورين؛ مما أتاح لهؤلاء المعاصرين أن يذيعوا آثارهم، خلافاً لمثلي الذي لم يَبْقَ له مِنْبَرٌ حرٌّ غير صفحات دواوينه.

إنَّ الشاعر الفنَّانَ تستهويه رُوحُ الجمال، وتحفزه إلى إبداع المثل الجميلة التي يرتضيها ذوقه، وهو لا يعنيه أصلاً أن يخدم النزعات الخلقية ولا غير الخلقية بشعره، فهذه وظيفة إضافية قد يؤدِّيها الفنَّان، ولكنها ليست مهمته الأولى ولا الأخيرة، وإذا أصبحت مثل هذه العوامل دوافع فيه صريحة عنده فَسَدَ فَنُّه حَتَمًا؛ فَإِنَّ الفنَّانَ يجلو لنا فَنَّهُ، ولكنه لا يصيح ولا يعلن عن دوافعه الخلقية والوطنية وأمثالها، بل هي تعلن عن نفسها إعلاناً هادئاً يُلْمَحُ من خلال العمل الفنِّي ولا يُغَطِّيهِ. ولا يغرب عن البال أن مقاييس الفضيلة والرزيلة المعهودة ليست في معظمها بالمقاييس المستقرة التي تحتم الإيمان بها، وحتى إيمان الفنون.

وليست هذه هي النقطة الفريدة التي يشعر مثلي بالحاجة إلى معالجتها في هذا التصدير تعليقاً على نقد بعض الأدباء على الشعر الحديث، وعلى شعر صاحب هذا الديوان خاصة، فهناك مَنْ يرون أنَّ من الواجب حصر الشعر في موضوعات معيّنة كأنما الشاعر المفتن يعجز عن التعبير الجميل إذا ما تجاوزت عواطفه وأخيلته مع أي عامل من عوامل هذا الكون الفسيح المدهش، كيفما دَقَّتْ أو عَظُمَتْ.

من العبث أن يقصر الشاعرُ همَّه على الفضيلة؛ فالفضيلة والرزيلة على السواء من مواد الفنَّان كما يقول أوسكار وايلد، وليست مَرائي الشعر عند استيعابه هي مَرائي الحياة ولكنها نفوس قرائه، والشعرُ الذي يُثير خلافاً حاداً حوله يدلُّ على حيويته وقوته. كذلك كانت أشعار المتنبي وابن الرومي وأبي العلاء المعري بين أعلام الشعر العربي ... والشعر فنُّ تعبيرِيٌّ لا يُقصد منه إلى الفائدة، ولكنه كفيلاً بها في تربية الروح الفنِّي، وما يؤدي إليه ذلك من التسامي بنفسية الأمة بل بالإنسانية عامة، شأن جميع الفنون الجميلة. فلا غبار إذن على فائدة الشعر إذا جاءت عفواً، وكلُّ شعرٍ عظيمٍ له فائدته الثقافية، ولو كان في أصله لهواً؛ لأنَّ العبرة بنبعه الفنِّي الخالص.

ولا مشاحة في أنَّ الإنسانية في القرن العشرين تقدَّمت كثيراً من الوجهة المادية التي تتفق وأهواء العقل المدرك، ولكن أحوالها النفسية والخلقية ما تزال متأخرة تأخرًا بليغاً ... وللعقل الباطن ارتباطٌ بهذه الوجدانيات، فالعنايةُ بتهذيبه وتنظيم صلاته بالعقل الواعي المدرك مما يعود بأجزل الفوائد على الإنسانية، وهذا ما تستطيع الفنون الجميلة — وبينها

الشعر — أن تقوم به خير قيام؛ فتشجيع الفنون الجميلة واجب حتمي، ونحن أحوج إليها في هذا العصر المادي القاسي من حاجتنا إليها في أي عصر مضى. وعندي أن أديب الذكاء والصناعة يعتمد أولاً على عقله الواعي خلافاً للأديب المطبوع، ويلوح لي أن العقل الباطن متّصلٌ بجوانب الخلق والغريزة اتصالاً خطيراً، ويتعاون العقل الواعي والعقل الباطن بنسبٍ مختلفةٍ في تكييف طباع الأدباء وطوابع آدابهم. والشاعر الحيُّ هو الذي يكون شعره مثال نفسه، وهذا معناه الانسجام التام بين العقل المدرك والعقل الباطن، وقد لا يكون الانسجام تاماً في جميع الظروف. ومهما يكن من شيء فهذا ما أراه تفسيراً للتباين وللاتفاق في أحوال الشعراء ومظاهر شعرهم من معانٍ ومَرامٍ وديباجة وموسيقى هي موسيقى النفس والخواطر قبل أن تكون موسيقى الحروف التي لا تتعدّى في الواقع الرموز لحالات الوجدان والفكر، وهم في كل ذلك غيرُ مستقلين، بل يتفاعلون مع البيئة ومع الحياة عامةً، وتتجلّى مرآئها في نفوسهم قبل أن يبرزوها، كما تتردد أصداؤها في نفوسهم قبل أن يلحنوها.

وإذا كنتُ أومن إيماناً عميقاً بأن الفنون الجميلة من أقوى عوامل السلام ورسول الإنسانية المشتركة، فلست أعني بذلك أن تقديرها شاملٌ في الظروف الحاضرة، فكم تتباين الأدواق. وعلى حدّ تعبير برُونزْلاو هوبرمان لا يُرتَقب أن يجيد عزفَ موسيقى بيتهوفن إجادة المتذوّق المعجب بها من ليست لديه أثارة من عواطف بيتهوفن، وكذلك شأن الشعر وغيره من الفنون الجميلة، فإن أصدق المتأثرين بالشعر — مثلاً — هم من يشاركون الشاعر عواطفه وأهواءه، ولا يُنتظر مثل ذلك من غيرهم، وبنسبة هذه المشاركة تختلف درجة التجاوب بين الشاعر وقرائه ونقاده.

ومن الطبيعي ألاّ يرَضَى عن شعر صاحب هذا الديوان كثيرون من الخاصة ومن غير الخاصة كما هو المعهودُ إزاء كل أدبٍ غير مألوف، فإن أكثر الناس يؤثرون من الشعر ما يخيل لك عند سماعه أنك سمعته قبل ذلك مراراً ولو في صور متقاربة، وهذا الجفاء هو وحده المبرر للتعاون الأدبي من أقران الشاعر ومريديه شرحاً ودراسةً، إذ لا أنسى كيف قوبل صدور ديواني «أشعة وظلال» منذ بضع سنواتٍ بنقدٍ كثيرٍ لتجرّده التام عن كل تصدير وتعقيب. بيد أنني أرجو من صميم قلبي أن يحين اليوم الذي يُستغنى فيه عن نظير ذلك في دواويني المقبلة، فتصير نماذجُ هذا الشعر مألوفةً معهودةً، وتسترعي الأنظار والحوار بدلها النماذجُ الجديدةُ لشعراء الشباب الثائرين. وبودّي الصادق ألاّ يحمل القارئُ هذه الدراسات والشروح على أكثر من محمل التجاوب الأدبي مع نفسية الشاعر؛

فإنَّ فيها الكريم من التمجيد والإشادة بمحامد لا أعرفها في نفسي، ولكنها فيما عدا ذلك لها قيمتها الأدبية الممتازة في تصوير مواقف المدارس الأدبية نحو الشعر العصري. إنَّ الشعرَ العصريَّ هو قبل كل شيء لسانُ الحياة العصرية، والحياة العصرية ذات صلات شتى بالماضي وذات تطلع إلى المستقبل، فليس غريباً في الثورة الروحية والفكرية الحاضرة أن يأتي هذا الشعر مزيجاً منوعاً لا في مصر وحدها بل في العالم الأدبي بأسره، ولا ينتظر من مثلي أو من أيِّ شاعرٍ عصريٍّ آخر إلا أن يكون صادقَ الشعور والتعبير، فلا غبارَ على هذا التنوع الصادق ما دام نتيجة أحاسيس شتَّى، هذا التنوع الذي نجده في العواطف والتأملات والأساليب، كما حدث في عهد الشاعر الألماني العظيم «هنريش هيني Heinrich Heine»، فقد جمع شعره بين نفحات القديم وبين النزعة الرومانطيقية التي كان آخر شعرائها في قومه وبين نزعة التَّحرُّر العصري التي ساعد على تكوينها، وقد أصبحت الصورة الغالبة على الشعر العصري في الغرب صورة الرومانطيقية الواقعية romantic realism.

ونزعة التَّحرُّر هي صديقةُ الأسلوب الشخصي الذي هو سمةٌ من سماتِ الأدب الحيِّ، فإنَّ الثالوث العظيم في الشعر العربي «المتنبي، والمعري، وابن الرومي» يمتاز بهذه النزعة التي تشمل الأسلوبَ وغيرَ الأسلوب، وإنه لخيرُ ألف مرة أن يكون الشاعرُ غامضاً في بعض نواحيه ويكون مستقلاً في تعابيره، من أن يكون ببغاوياً أو صاحب شعرٍ مُستعارٍ، فهذا «هيني» على عظمتِه الليريكية كان غامضاً عميقاً في مناسبات كثيرة، حتى أن أبياته تُرى حائمةً حول خواطره لا متناولة لها مباشرة، كما لاحظ مترجمُه الشاعر «لويس أنترميير Louis Untermeyer».

وقد كان شعراء العربية السالفو الذكر يعابون في حياتهم على أساليبهم جزاء ما كانوا يبذلونه من جهدٍ لتجويد أدواتهم اللغوية القاصرة، ثم دار الزمن دورته فإذا بتلك الأساليب الطريفة تكتسب حُرمةً، ويُصبح جديدها مألوفاً محترماً، وما كان يُحسبُ بعيداً عن الأناقة لطرافته وخروجه على التقاليد صار يُعدُّ غيرَ ذلك في معظم الأحوال. ومهما يكن من شيء فالأناقة التي ترادفُ التَّصنُّعَ مردولةٌ بغیضةٌ، وهي تنافي روحَ الفن، ولخيرُ منها ألف مرة الجمالُ المتواضعُ، بل الجمالُ العربيُّ. وليست العبرةُ في الواقع بالأساليب ذاتها بل بالاستعداد للتأثر بها، وهذا الاستعداد يختلف بين جيل وآخر، وبغير وجوده لا يستطيع الشعر أن ينشئ في النفوس تصوير الحالات التي خلقتها.

وما دمنّا قد أشرنا إلى الأسلوب فحتّم أن نصّرُح بأننا نحترم أصول اللغة وتراثها، ونُعنى بمفرداتها، ونُوصي باستيعاب روائعها، ولكننا نوصي في الوقت ذاته بأن يُطلَق الشاعرُ نفسه على سجيّتها ما دام قد أخذ قسطاً وافراً من أدب اللغة. وكلُّ شاعر لا يستطيع أن يملك حريّة التعبير عن أزِمّاته النفسية، وعواطفه الشعرية، وعالمه الوجداني تعبيراً خالداً مستقلاً تتجلى فيه براعته الطليقة، يُعدُّ بعيداً عن الكمال الفنّي. وكَم من عائبٍ لأساليب اللغة المبتكرة وهو جاهلٌ بمرونة اللغة، وغافلٌ عن كنوزها التي لا تجد المستغلين القادرين، بينما هؤلاء العائبون يتغاضون عن توجُّه الشعراء إلى تغذية العامية بانتاجهم في الأغاني وغيرها؛ مما يحولّها تدريجياً إلى لغةٍ فنية، ويجعلها خطراً أدبياً إلى حدٍّ ما على اللغة الفصحى التي تفقد جهود أولئك الشعراء خيرها. ولست أنكر أن للغة العامية رسالةً تؤديها في أوساطها، ولكن من الممكن إبلاغها منزلة العربية البسيطة السهلة.

إنّ الفنّ فنٌّ في أيّة لغةٍ وفي أيّة صورةٍ وتعبيرٍ، ولو كانت اللغة العربية السلسلة السليمة عاجزةً عن البيان السائح لعذرنا أنصار العامية من غير أهلها على اللجوء إليها. أمّا والواقع نقيض ذلك فهذا التديُّ بلغتنا لا معنى له ولا موجب، والأوّل بمن يأخذون علينا تطويع لغتنا للتعبير عن كل ما تُوحى به الحياة بدل أن نواجهها كالبحكم المشدوهين، الأوّل بهم — إذا لم يعرفوا تقدير ذلك لنا — أن ينظروا في الخطر الداهم على اللغة الفصحى من سيل العامية الذي يعزّزه أولئك الشعراء المتقربون إلى الجماهير على حساب الإساءة إلى الأدب الرفيع، وإن عانت الفصحى من وراء ذلك ما تُعاني من إعراض وإصغار. ويرى بعضُ الشعراء المقلين وبعضُ النقاد أن الوزن والقافية من أعداء الفكرة، ومن هذا يتدرجون إلى تثبيط المنجبيين من الشعراء، وينتقدون محاولاتهم الجريئة، وهذا خطأ ظاهر؛ فالشعر ليس ميداناً لدراسة الموضوعات العلمية وغير العلمية المجردة، كما أن الشاعرَ الناضجَ القويَّ الإيقاع لا تعوقه مطلقاً الأوضاع عن التعبير الحي، ولا عن التسامي أو التعمق، بل يدفعه نضوجه، وثقته بنفسه، ومراثته إلى تكييف اللغة وأوزانها وقوافيها التكييف الذي يناسب موضوعات شعره بعيداً كل البعد عن المحاكاة، مُطْلَقاً نفسه على سجيّتها كالطائر الحرّ الغرد حيناً، وكالحكيم الذي يُملّي عليه القدرُ وحي الحياة الطليقة حيناً آخر. ومن ثمة اختلفت أساليبُ الشعراء المتحررين حسب أمزجتهم ونزعاتهم وموضوعاتهم، بل قد يختلفون في نفس الموضوع الواحد بحكم اختلاف الطابع الشخصي؛ فأسلوب ملتون الإنجليزي شاعر القرن السابع عشر في «الفردوس المفقود»

غير أسلوب بيير جان جوف الفرنسي شاعر القرن العشرين في نفس هذا الموضوع، وهو اختلاف طبيعي ولا غبار على ذلك، بل هو أمر ممدوح.

الشعرُ ليس صناعة بل هو فنٌّ من الفنون، وجميعُ الفنون في أصلها مواهب، والروحُ التي خَلَفَهَا شائعةٌ في مظاهر الطبيعة التي يستوحياها جميعُ الفنانين من شعراء وموسيقيين ومصوِّرين ومثَّالين وغيرهم. ووحدة هذه الروح التي تُلَمَح خلفَ مَرائي الطبيعة والحياة هي التي تجعل النُقَّادَ يصفون التصويرَ بأنه شعر الأصباغ، والنحتَ بأنه الشعرُ الصامت، والشعرَ بأنه التصوير الناطق، وهلم جرًّا ... وما ذلك إلا بسبب المشاركة الروحية بين جميع هذه الفنون. وأمَّا النظم فيرجع إلى طبيعةٍ إيقاعيةٍ توجد عند كثيرين من الناس، وقد لا تكون قويةً عند بعض الشعراء، بل قد لا توجد عندهم بتاتاً، فهؤلاء أمين الريحاني، وفؤاد صروف، وأحمد الصاوي محمد، وإبراهيم المصري، وتوفيق مفرج بين شعراء العربية المجيدين، ولكنهم لا ينظمون لأنَّ سليقتهم لا تواتيهم بالنظم وإن تفجَّرتُ بالشعر الصافي. وإذا كانت كلمة «شعر» مأخوذةً أصلاً من كلمة «شير» العبرية بمعنى غناء، فليس كلُّ شعرٍ غناءً، كما أنه ليس كلُّ شعرٍ نظماً. والشاعرُ المثقَّفُ البعيدُ التأمُّلات يستطيع بفطرته أن يجعل شعره مَسَرَّحاً لفنون ومعارف شتى في غير كلفةٍ يُحسُّ بها، كما أنه بقدرته النظمية — إذا كانت ناضجة لديه — يستطيع التعبير عن شتى الخواطر الوجدانية بحرية تامة، فليس النثرُ وحدهُ اللغةُ الحرةُ للتعبير عن الآراء. والشاعرُ الممتازُ هو الذي يجمع بين صِفَتَي النضوج والتحرُّر، وكلاهما وليدتا المواهب أولاً، والاطلاع أو التأمل ثانياً، والمرانة ثالثاً؛ فالموهبةُ الشعريةُ ودقَّةُ التأمل والمرانةُ هي التي أنطقت الشاعرة العربية حميدة بنت زياد بهذه الأبيات الرائعة تصف وادياً:

وقانا لفحةَ الرمضاءِ وإِ	سقاها مضاعفُ الغيثِ العميمِ
نزلنا دوحَه فحنا علينا	حُنُوَ المروضاتِ على الفطيمِ
وأرشفنا على ظمأٍ زلاًلاً	ألذَّ من المدامةِ للنديمِ
يصدُّ الشمسُ أنَّى واجهتنا	فيحبُّها ويأذنُ للنسيمِ
يَروغُ حصاه حاليةَ العذارى	فتلمسُ جانبَ العقدِ النظيمِ!

وهي التي أوحى إلى الشاعر الإنجليزي توماس هود (Thomas Hood) بهذه المقطوعة في «أوان الورود»:

It was not in the winter
Our loving lot was cast;
It was the time of roses —
We plucked them as we passed.
That churlish season never frowned
On early lovers yet:
Oh, no, the world was newly crowned
With flowers when first we met.
Twas twilight, and I bade you go;
But still you held me fast.
It was the time of roses —
We plucked them as we passed.

ومثل هذه الروح القوية البعيدة عن التكلف نجدها في صُورٍ شتى بأشعار جميع الموهوبين الناضجين المتحررين من قداماء ومحدثين في الشرق والغرب، وهي روح «متعادلة Neutral»، قابلة لأن تُنقل من لغة إلى أخرى؛ لأنها لا تعتمد على بهرج الألفاظ، والثرثرة الجوفاء.

نعود إذن لنكرر أن النهضة الشعرية التي تُعنى بإنصاف المواهب وتغذية النضوج ثم تقاوم التحرُّر تنعكس عليها جهودها، فالتحرُّر عنصرٌ هامٌّ من عناصر التبريز؛ لأن قوامه الصدق والسماحة الفطرية والبساطة الصريحة، ومحالٌّ أن يكون الشاعر شاعرًا كاملاً إذا كان يَكْبِتُ عواطفه كيفما كانت، ويكذب على نفسه وعلى غيره. وبهذه المناسبة لا ننكر أنَّ بعض الغاشمين المنتسبين إلى الأدب أو إلى الدين يهرع إلى الاتهام بالزندقة والإلحاد كلُّ نزعَةٍ تصوفية، ولكن الشاعر الموهوب المتحرر يسخر من كل هذا؛ لأنه بوجدانه يحسُّ بما ننعتة «نُقْطُ التركيز» للألوهية في مخلوقات الله وبدائعه — سبحانه وتعالى — فيمجد فيها الفنان الأعظم ... ولخيرٍ للشاعر أن يُوصَمَ بألف وصمة غاشمة من أن يكون أسيرَ الروح عبداً للتقاليد، أو خادعاً لنفسه ولغيره. وقس على ذلك ما يُنعتُ

بالاستهتار في الشعر حينما لا يتعدى هذا «الاستهتار» التعبير الطبيعي لجوانب قوية من الحياة ...

ولعلّ من الخير أن ننظر نظرة نقدية في سيرة الشاعر الوجداني الكبير چون كيتس John Keats فإنها تشرح لنا ما أجملناه من قبل، وتنبهنا إلى عوامل أخرى في رفعة الشعر والشاعر، وما اخترنا ذكره إلا لأنه من أسبق الشعراء إلى ذهننا، كما أنه أصبح من أحبهم منزلة لدى جميع الأدباء والمتأدبين.

عُرِفَ عن كيتس في طفولته الروحُ الثورية، ثم عُرِفَ عنه فيما بعد الاطلاعُ الواسعُ، وأخذ بنصيبٍ يُذكر من الدراسة العلمية والطبية، ثم استولت عليه فكرة الحياةِ الشاعرةِ، والعمل على تحقيقها وهو في الحادية والعشرين، فتبع هذا أن كانت روحه التجديدية طبيعية لا مصطنعة، وأن كان هدامًا ثائرًا في شبابه. وعرفنا عنه غرامه بجورجيانا — زوجة أخيه فيما بعد — ولحنا صورة التسامح لنفسه الصافية، وقدّرنا كيف كانت هذه الحبيبة نبعا صافيا علويًا لشعره الوجداني، كما كانت محبوبته الثانية «فاني» نبعا آخر جميلًا. كذلك عرفنا أن حياته الواقعية كانت شعرية؛ فقد كان إشفاقه على أهله وعنايته بهم بمثابة قصائد رائعة مدهشة ... وكان كيتس بروحه الرومانطيقية المبدعة كثيرَ المحاولات التجديدية، ولكنَّ الجمهور لم يكن ليكثرث لأشعاره الأولى بالرغم من كتابة «هنت» عنها. وقد تعاون فيما بعد مع الأدباء: هايدن، وبراون، وسيفرن، وغيرهم، ثم حملت عليه مجلتا بلاكوود وكوارترلي الشهيرتان، وتنگر له هايدن صديقه القديم، ولكن كيتس بقي عظيم الجلد، عظيم الرجولة، سامي الخلق، طيب القلب، بدليل تسامحه إزاء هايدن وأمثاله ... وكان كيتس يعجب كثيرًا بسبنسر، وكان متأثرًا به، ولكنه قلما كان يحتذيه، بل كان محتفظًا غالبًا بطابعه الشخصي، واستوعبت شخصيته الأصيلة مطالعته (وبينها الكثير من الأساطير والميثولوجيا الإغريقية وغيرها) دون أن تخضع لها. ومات في شبابه بذات الرئة، وهو إلى آخر لحظة في حياته شعله باهرة ما كان يجوز أن تنطفئ لولا قسوة القدر ...

ومن هذه الأثرية عن حياة كيتس نلاحظ:

(١) النفسُ الشاعرةُ الثائرة بفطرتها التي لم تتحول طولَ حياته، وأنه مثالٌ للشاعر الذي يكون في حياته شاعرًا كما يكون في نظمه شاعرًا.

(٢) أن دراسته ومطالعاته لم تُفسدْ شعره، بل زادتْ صقلًا، وجعلتْ شهادته مُنوعًا شهيا.

(٣) أنه شعر بما نسميه «طاقته الشعرية» وتمنى أن يكون شاعرًا مجيدًا وعمل لذلك، لا عن طريق الصناعة، بل عن طريق التعبير الجريء، وجراءة التعبير الفني جزء أصيل من العبقرية، وبغير هذه الجراءة الطليقة ما كانت تتجلى قوة شكسبير، ولا دانتي، ولا أبي العلاء المعري، ولا عمر الخيام، ولا أمثالهم من رؤاد الفن الأدبي.

(٤) أنه انتفع بالمعونة المادية التي قدّمها له أصدقاؤه الأدباء والناشرون، ولولا هذه المعونة لما انتفع الشعر بكل هذه الآثار التي أنجبها وودّعها في شبابه ... وفي الواقع إنه لولا عون المال الذي استند إليه كبار الأدباء والشعراء لما بلغت آثارهم ما بلغت من الكثرة والروعة، وهذا مشهود في الشرق والغرب على السواء، وآخر شاهد على ذلك بيننا المرحوم أحمد شوقي بك. ومهما يكن لشاعر من إنتاج في بؤسه وفقره فهذا الإنتاج لا يُقَارَن بطاقته المتجلية في ظروفه المواتية.

(٥) أن الحب كان عنصرًا قويًا بين العناصر التي ألهمت شاعريته المطبوعة، وقد جاء شعر الحب في نظم كيتس قويًا صريحًا مستقلًا.

(٦) أن ثقته بنفسه وفنه جعلت النقاد المتحاملين يهزمون في النهاية أمامه، فكل محاولاتهم لم تصلح لتزييف جوهره الصحيح.

(٧) أن أساليبه ونزعاته التجديدية لم تُرضِ جمهرة الأدباء في البداية، ولكنها استحالت فيما بعد إلى مَفْخَرَةٍ من مفاخر الأدب الإنجليزي، بل الأدب العالمي.

(٨) أن شخصيته الأدبية القوية لم تهضمها البيئة ولا المطالعات، بل هو الذي هضمها، فخدم الشعر الإنجليزي حتى من الناحية الثقافية خدمة قيمة؛ لأنه ضمن شعره لطائف الميثولوجيا الشائقة، وتأملاته العميقة، وقد كان مرضه في ذاته مُشْعَلًا لذكائه، مبررًا لشذوذه، ومن العبقریات ما يقترن بشذوذ المرض.

(٩) أن المواهب الجديدة قد لا يُعترف بها اعترافًا منصفًا إلا بعد زوال صاحبها، وعلى الأخص إذا كان من الشباب؛ لأن الناس غالبًا عبيد ما تعودوه، ويؤثرون الشك في كل جديد حتى ولو تجاوزت نفوسهم معه.

هذه الدروس نستفيدها من سيرة كيتس، وقد نستفيد نظائر لها من سائر غيره من أعلام الشعر في الشرق والغرب على السواء، وهذه الدروس تتناول الرد على ما يوجهه النقاد إلى شعراء العربية المجددين في كثير، فإن من النقاد من ينادي بنفسه حاكمًا بأمره لا يطبق حتى النقاش الفني، ويعلن بأعلى صوته أن ما نعتبره تصوفًا جميلًا هو مثال

مرَّوعٌ للشعر الإلحادي الذي يجب أن يُصَادَرَ، وينسون في أي قرن يعيشون، بل ينسون حتى أبسط الأدب العلائي الذي يدَّعون فهمه وتقديره، وقد ذهب أبو العلاء المعري إلى درجة تحدِّي القرآن بينما الشعراء المعاصرون لا يشغلهم شيء من ذلك ... ويبلغ الشططُ ببعض النقاد أن يستنكر تطعيمَ أدبنا العربي بالميثولوجيا الإغريقية الرائعة التي نفتقر إليها أشدُّ الافتقار، بينما الإنجليز (وقد استوفوا نقلَ الروائع الأجنبية الأوروبية القديمة) يرقصون لترجمة الخيام، والمعري، والبهاء زهير، وابن الفارض، وغيرهم من شعراء الشرق إلى لغتهم، ويهللون أخيراً لمجهود الأستاذ أَسْتَارُو مِيَامُوري (A. Miyamori) في نقل الهَيُكُوتَا اليابانية (وهي أشبهُ النظمِ بالرباعياتِ عند الفُرس) إلى اللغة الإنجليزية، فنحن على فقرنا نستنكر النقلَ والتطعيمَ، وغيرنا على غناه يُرحِّب به، ونحن نحب القديم والمحافظة على ما لا جدوى منه، والإنجليز على رعايتهم للتقاليد، وحرصهم الشديد عليها أضعاف حرصنا يؤثرون أن يكونوا عمليين في إحياء لغتهم بمفرداتها وأدائها، حتى أغناهم هذا النشاطُ الفذُّ وهذه الحيوية الفريدة عن إنشاء مجمع لغويٍّ لهم! ونحن نغبن شعراءنا وأدباءنا، ونتركهم يعانون الخصاصة المُضَّةَ وهمَّ الرغيف، ثم نقول إنَّ هذا خير إنتاجهم الأدبي، وإنَّ قرعَ آذاننا قولُ صائِحهم:^١

بَوَادٍ كدَارِ الخُلْدِ بَرَّ المنازلِ	حَيَّيت، فما لي لا أفوز بنائلٍ؟
أَقَاسِي به في ليلِهِ ونَهَارِهِ	مَعِيشَةً أَفَاقٍ ووحدةً تَاكَلِ
وَكَمْ سَأَلُونِي: كَيْفَ تَشْقَى معَ الحَجَى	وَفِي شَعْرِكَ الهَامِي عَذَابُ المَنَاهِلِ؟
فَقُلْتُ: بهذا الشَّعْرِ بُؤْسِي وشَقَوَتِي	كَمَا قَتَلَ الصَّدَاحُ زَهْرُ الخُمَائِلِ
فَلَا تَسْأَلُونِي عن دِمَائِي وَسَفْكِهَا	سَلُوا بَدْمِي الغَالِي جَرِيمَةً قَاتِلِي!
فَكَمْ مَرَّتْ النُّعْمَى عَلَيَّ بِسِيمَةٍ	فَأَبْعَدَنِي عَنْهَا وَضِيعُ الوَسَائِلِ
وَرَفُضُ لَثِيمٍ كَاشَحِ القَلْبِ حَاقِدٍ	مَنَالِي أَرْزَاقِي بِهِمَّةٍ عَامِلِ
بَكْتُ بِلَدْتِي حُزْنَاً عَلَيَّ وَحَسْرَةً	وَأَحْزَنُ مَا أَبْصَرْتُ دَمْعُ المَنَازِلِ!

إنَّ عقلَ الفنَّانِ (العقلَ الباطن) هو عقلُ الطفل الكبير الذي يصاحبه وليُّ أمره (العقل المدرك) ليرشدَه ويراعيه، ولكنَّه كثيرًا ما يُجامَلُه، وإنَّ استفادَ هذا الطفلُ من

^١ قصيدة «دمع المنازل» لعبد الحميد الديب، مجلة «أبولو»، ديسمبر سنة ١٩٣٣.

تَأْمَلَتْ مُرْشِدَهُ وَفَلَسَفَتِهِ بِدَرَجَاتٍ مُخْتَلَفَةٍ حَسَبَ أَهْوَائِهِ وَفَهَمِهِ الْعَجِيبِ ... وَلَكِنَّهُ إِذَا تَرَكَ وَشَأْنَهُ، وَكَانَتْ لَهُ حَيَوِيَّتُهُ الْفَطْرِيَّةُ وَحَرِيَّتُهُ الْمَطْلُوقَةُ، فَإِنَّهُ يَجِيءُ لَنَا شَعْرًا بِمَا يُشَبِّهُ تَصْوِيرًا «حُلْمَ مِيكِي» — وَهُوَ مِنْ تِلْكَ التَّصَاوِيرِ الْمُتَحَرِّكَةِ الْمُفْتَنَّةِ الَّتِي طَالَمَا أَحْبَبْنَاهَا عَنْ مِيكِي مَآوَسَ وَوَالْتِ دِزْنِي — فَلَوْ أَنْصَفَ النَّقْدُ لَتَرَكَ الشُّعْرَاءُ يُبَدِّعُونَ نَمَاذِجَهُمِ الْمُنَوَّعَةَ مِنْ شَعْرِ خَالِصٍ، وَشَعْرِ فِلَسْفِيٍّ، وَشَعْرِ تَصْوِيرِيٍّ، وَشَعْرِ قِصْصِيٍّ عَلَى اخْتِلَافِ أَسَالِيِبِهِمْ، فَنَحْنُ بِحَاجَةٍ إِلَى كُلِّ هَذَا إِنَّمَاءً لثَرَوَاتِنَا الشُّعْرِيَّةِ، وَهِيَ نَحْنُ الْآنَ نَرَى فِي فِرْنَسَا بَعْثًا شَعْرِيًّا جَدِيدًا مُنَوَّعًا لِلشُّعْرِ يَعْمَلُ لَهُ أَمْثَالُ بُولِ كِلُودِيلَ، وَفِرْنَسِيْسِ جَامَ، وَبِيِيرِ جَانِ جُوفَ فِي حَرِيَّةٍ تَامَةٍ.

وَإِذَا كَانَ لِمَدْرَسَةِ أَبُولُو جَرِيرَةٍ أَقْضَتْ مُضَاجَعُ الْفَرْدِيِّينَ الْمُتَصَنِّعِينَ فَهِيَ تَبْشِيرُهَا بِالْمُبَادِئِ السَّابِقَةِ لِخَيْرِ الْفَنِّ وَالْفَنَّانِينَ، فَقَدْ أَبَتْ إِبَاءً عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ، وَاحْتَرَمَتْ شَخْصِيَّةَ كُلِّ شَاعِرٍ، وَعَمِلَتْ عَلَى إِظْهَارِ رَوَائِعِ كُلِّ مِنْهُمْ، وَوَضَعَتْ إِبْدَاعَهُمْ جَمِيعَهُ فِي بَوْتَقَةٍ وَاحِدَةٍ، إِذِ الْوَاقِعُ أَنَّ الْفَنَّانَ الصَّحِيحَ غَيْرَ أَنْأَنِ، وَإِنْ يَكُنْ شَخْصِيَّ التَّعْبِيرِ ... كَذَلِكَ شَجَّعَتْ النِّقْدَ الْأَدْبِيَّ، وَاحْتَرَمَتْ النِّقَادَ سِوَاءَ أَكَانُوا لَهَا أُمَ عَلَيْهَا، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَحْتَرَمْ أَصْنَامَهُمْ كَمَا لَا تَحْتَرَمْ أَصْنَامَ الشُّعْرَاءِ! وَبِهَذِهِ الْمُبَادِئِ يَدِينُ صَاحِبُ هَذَا الدِّيَوَانِ مِنَ الْوَجْهَةِ الثَّقَافِيَّةِ الْعَامَّةِ، وَحَوْلَ هَذِهِ الْمُبَادِئِ تَدَوَّرُ حَرْبُ طَاحِنَةٍ يَعَزِّزُهَا مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ مَنْ يَرِيدُونَ الظُّهُورَ الْأَنْأَنِيَّ عَلَى حِسَابِ الْمَجْمُوعِ، وَعَلَى حِسَابِ الْأَدَبِ، كَلَّفَهُمْ ذَلِكَ مَا كَلَّفَهُمْ مِنْ تَحَامُلٍ وَإِسْفَافٍ!

إِنَّ الشَّاعِرَ كَكُلِّ فَنَّانٍ يَعْمَلُ عَلَى تَخْلِيدِ صُورِ الْحَيَاةِ الْفَانِيَةِ وَذِكْرِيَاتِهَا فِي النَّسْقِ الَّذِي يَسْتَطِيعُ بِهِ اسْتِرْجَاعَهَا لِرُوحِهِ الْعَالَمِيَّةِ كُلَّمَا تَأَمَّلَ ذَلِكَ النَّسْقَ الْفَنِّيَّ سِوَاءَ أَكَانَ شَعْرًا أَمْ تَصْوِيرًا، أَمْ نَحْتًا أَمْ عَزْفًا، أَمْ غَيْرَ ذَلِكَ، وَهُوَ حِينَمَا يَتَأَمَّلُ التَّسْجِيلَ الْفَنِّيَّ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى تَصَوُّرِهَا بِالذَّاتِ، بَلْ تَصَوَّرَ أَيْضًا عِلَاقَاتِهَا بِالْوُجُودِ بِحَكْمِ طَبِيعَتِهِ التَّصَوُّفِيَّةِ الَّتِي جَعَلَتْ شَكْسَبِيرَ يَقُولُ:

Tongues in trees, books in the running brooks

Sermons in stone, and good in everything.

وَالْحَيَاةُ فِي ذَاتِهَا عَالَمٌ إِيقَاعِيٌّ، فَإِذَا أَحَسَّ الْإِنْسَانُ بِالْحَاجَةِ إِلَى الْعِزَاءِ جَنَحَ إِلَى الْإِنْدِمَاجِ فِي عَالَمِ الْحَيَاةِ ائْتِمَاجًا أَوْفَى كَأَنَّهُ يَطْلُبُ حِمَايَتَهَا، وَالْإِيْقَاعُ هُوَ الْمَرُّ الَّذِي يَسْلُكُهُ أَوْ هُوَ أَدْنَى الْمَسَالِكِ الْمِيْسُورَةِ، وَهَذَا هُوَ مَا يَفْسِّرُ النَّزْوَعَ الْفَطْرِيَّ إِلَى الْجَمْعِ بَيْنَ الرُّوحِ

الشاعرة المتصوفة والإيقاع. وبديهي أن ألوان هذا التزاوج تتعدّد إلى ما لا نهاية، ومن ثَمّة وجب علينا احترام شخصيات الشعراء، وتشجيع التنوع بدل الالتفاف حول شخصيات قليلة معدودة لا يمكن أن تجتمع روائع الفن الشعري ولا الفن الموسيقي فيها وحدها، كيفما عظمت هذه الشخصيات في ذاتها.

كان الشاعر اليونانيّ السكندريّ كافافي (C. P. Cavafy) يقول: «لا تحتقر أيّ شيءٍ في الحياة، بل خذْ كلَّ ما تُعطيه لك..» وذلك نفسُ شعوري؛ فإنني لا أحتقر شيئاً غير التّصنّع، وأمّا كلُّ ما في الحياة من جمال ومادّة فنية فحبيبٌ إليّ، ومُنيرٌ لشاعريتي، وأشعرُ بالقصور أمام روعته مهما حاولتُ أن أعبر وأجيد، مدفوعاً بدوافعي الوجدانية، واعياً أم غير واعٍ. وإزاء هذا التنوع في الحياة يتنوع الشعر ويبدو متناقضاً أحياناً في مظاهره، ولكن حقيقة الحياة واحدة. ومن جميع مآثر الحياة ومعالمها أودُّ أن أخصّ المرأة بتحيتي وتقديري، وإنني لأذكر كيف عشْتُ مشغولاً في طفولتي وصباي وشبابي بوالدتي، وقدسْتُ المرأة بتأثير حنو هذه الوالدة عليّ، وزاد من عمق هذه القداسة فقداني إياها، وفقداني مَنْ علقتُ بها وأنا غريبٌ عنهما عشرَ سنين كاملة تحت رحمة الحرب ... فإذا بقي لشعري تعلقه بالمرأة، بل تقديسه إياها في شتّى الصُّور فهو تعلقٌ طبيعيٌّ، وإذا كان من أثر هذا الشعر أن تُعنى الرجولة بالأنوثة العناية الواجبة بدل إغفالها الحاضر فإنّ هذا الشعر يكون قد أدّى وظيفته تهنئيةً ضمنيةً ولو لم يقصد إليها عمداً.

زعم أحدُ أفاضل النُّقاد «أنّ من عادة المؤلّفين أن يقولوا إنهم ينتظرون نقداً لا تقرّظاً، فإذا نقدناهم عادونا أشدّ المعادة!» وسواء أصحّ هذا أم لم يصح فمثلي يبرأ إلى الأدب من هذه الوصمة، وأعتقد أن جميع زملائي أعضاء أبولو يتعفّفون معي عن ذلك ... إن النقد الأدبيّ جزءٌ متممٌ للحركة الأدبية، ولا يجوز أن يتعالى عنه الشعراء، وفي الوقت ذاته لا يجوز للنُّقاد أن يتغاضوا عن الشعراء، ولا يسوغ لأحد الفريقين أن يستاء من نقاش الآخر؛ إذ الفائدة كلّ الفائدة بنتُ الحوار الأدبي لا بنتُ التقرير، والحكم المطلق من أحد الفريقين على الآخر^٢ ... ومن الأسف يبلغ الغرور ببعض الأدباء أن يتوهّموا أن

^٢ انظر كتاب «فائدة الشعر وفائدة النقد» The Use of Poetry & The Use of Criticism للشاعر الإنجليزي ت. س. إليوت، وهي دراسات في علاقات الشعر بالنقد في إنجلترا ألّفها في جامعة هارفارد.

أعمالهم لا يجوز أن تُنقَدَ ولو بمعنى الدرس والتحليل، ويبلغ مثلُ هذا الغرور وفسادُ
الرأي بطائفةٍ من النُّقاد أن يتوهَّموا أنَّ النقدَ الأدبيَّ ليس سوى لونٍ من الهدم أو صورة
من التشفيِّ وكلا الفريقين لا يُنصف نفسه، ولا يُنصف الأدبَ ولا الأدباءَ، وكأنما يشتهي
أن يكون وحده دكتاتورًا أو حاكمًا بأمره!

وإني أرحّب بكل نقدٍ نزيهٍ يوجّه إلى هذا الديوان وإلى شعري عامةً لخدمة الأدب
في ذاته، وأما صلتني بهذا الشعر فهي أوثقُ من صلةِ الأديب المألوفة بأدبه، فهو دمي
وأنفاسي، ومهما قيل له أو عليه فلن أجد ما هو من صميم نفسي، ولن أنشد له ثناءً لن
يزيد من نبض حياته المستمدّة من كفاية حيويتي وحدها.

ضاحية المطرية، مصر

في ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٣

أحمد زكي أبو شادي

إلمامة

الأدب العربي في العصر الحاضر

ليس غرضي وأنا أكتب هاته الإلمامة لديوان «الينبوع» تقديم أبي شادي إلى قرائه، فما كان أبو شادي بحاجة إلى التقدمة، ولعل الكثير من قرائه يعرف عنه أكثر مما أعرف، ولا الإشادة بسجاجة خلقه، وسماحة نفسه، وطيبة قلبه، فتلك صفات يستطيع أن يدركها كل من يطالع آثاره، فيلمس فيها صوفيته العميقة التي تعاطف العالم، وتشمل كل شيء فيه بفيض من العطف والحنان، ولا التنويه بجهوده العظيمة المتعددة التي ينوء بحمل أعبائها فريق من الناس أولى العزم، فقد عرف الناس له هاته المزية، وآمنوا بها في شيء من العجب غير قليل.

أجل، فأنا لا أريد أن أعرض لكل ذلك، بل ولا أريد أن أعرض لشعر أبي شادي أيضاً ببحث مفصل، ونظرة مستوعبة، فقد فاجأ أبو شادي الناس في شعره بروح جديدة ونزعة مستحدثة، وأسلوب طريف، وطريقة لم يعهدها من قبل، فقابلوه بشيء من الاستنكار غير قليل، ثم أخذ الزمان يعمل عمله، فاستساغ فريق من الناس وألفه، وأخذت فئات أخرى تشيد به وتنضح عنه، وظلت طائفة من الناس على رأيها الأول ونفرتها القديمة لا تتحلل عنها أو تميل، فاختلف الناس فيه وما زالوا، ولا يزالون مختلفين فيه إلى ما شاء الله، وأعتقد أن كلمتي لا تنقص من هذا الخلاف قليلاً ولا كثيراً؛ ولهذا فقد آثرت أن أتحدث حديثاً أعم من ذلك وأشمل، وأن أتخذ موضوع هذا الحديث

«الأدب العربي في العصر الحاضر»، ثم لا أتحدث عن شعر أبي شادي إلا كظاهرة من ظواهر هذا الأدب، لها وجهها الخاص، ولونها الذي تُعرف به.

أعتقد أنني لا أكون غالباً في شيء إذا قلت إن عصرنا الحاضر يمتاز عن كل ما سبقه من العصور بامتزاج الثقافات فيه امتزاجاً عظيماً لا نظير له، وإن الأدب العربي الحديث قد اختلط بآداب العالم اختلاطاً لم تعرفه تواريخ الآداب في عهودها السالفة.

ففي أطوار الانقلابات الكبرى، التي يريد فيها التاريخ أن يدور دورته المحتومة الخالدة، تأخذ نفسيات الشعوب التي ستولد مرة ثانية في التطور والتحول والاستحالة، فتستيقظ أحلامها النائمة، وتتوهج أشواقها الخامدة، وتصبح نفسها شعلة متأججة بنار الحنين، وينقسم قلبها التائر إلى شطرين: شطر ملول، متبرم بالحاضر وما فيه، وشرط مشوق، طامح إلى المجهول وما فيه، وفي مثل هاته الحالة النفسية المعقدة التي تصبح فيها روح الأمة مشبوبة بحمى الحياة، يندفع الناس في لهفة اليقظة الطامحة إلى ثقافات العالم وفنونه وأدابه يطفئون بها ما في أعماق نفوسهم من جوع وظمأ إلى الحياة، فتتلاقح ثقافات، وتتمازج آداب، وتصطفق آراء وأفكار، وينتج من هذا المزيج ثقافة جديدة وأدب طريف لهما سحر وفتنة وجمال. كان ذلك في الروح اليونانية، حينما انتصرت على الفرس، واتصلت بروح الشرق في فارس وأشور ومصر، وكان ذلك في الروح الرومانية حينما مكن الله لها من اليونان فانتهبت ما لها من علم وأدب وفن، وكان ذلك في الروح العربية في العصر العباسي وما يليه، حينما اطلع العرب على ما لفارس والهند واليونان والرومان من حكمة، وأدب، وعلم، وفلسفة، وتشريع، وكان ذلك في الروح الأوروبية منذ عصر «النهضة» حينما اتخذت مثلها الأعلى في الأدب والفن ما لليونان والرومان من فن وأدب، وأخيراً كان ذلك أيضاً في الروح العربية الحاضرة بعد يقظتها من سبات الدهور. ولكن امتزاج الأدب العربي الحاضر بغيره من الآداب قد كان على صورة من القوة والشمول لم يُعهد لها مثيل في جميع العصور والأجيال، ولعل ذلك يرجع إلى «المطبعة» التي أعطت للحركة الثقافية هذا المظهر القوي الساطع، كما يرجع إلى طبيعة حضارة اليوم التي تمتاز بالسرعة والحركة والاتصال، فإن الأدب العربي في العصر العباسي وما يليه لم يتأثر إلا قليلاً بأدب الفرس والهند وما لهما من حكمة وأمثال، وبقليل من أساطير اليهودية والمسيحية، وبشيء من الفلسفة اليونانية، وبعض المذاهب والنحل الشائعة إذ ذاك، وببزر مشوه من أدب الرومان، فهو لم يتأثر تأثراً قوياً

بآداب هاته الأمم، ولا حاول أن يتصل اتصالاً وثيقاً بما لها من تاريخ ودين وأساطير، بل تأثر بها تأثراً بسيطاً لعله لم يكن مقصوداً ولا مَعْنِيّاً به، ولكنه على كل حال قد أحدث نتيجته المنتظرة، فاستحدثت معانٍ وأخيلةً وأساليب وطرائق من البيان لم يعهدها العرب من قبل ولا أَلْفُوها. والأدب الأوروبي لم يتصل في عصر «النهضة» بغير الأدب اليوناني والروماني، ثم بقليل من الأدب العربي في صقلية والأندلس، ثم إنه عاد بعد ذلك إلى تاريخه يستلهم ما فيه من أقاصيص الفروسية وسير الأبطال، ثم رجع إلى دينه فأخذ يستوحي الأساطير المسيحية، ويتخذ منها غذاءً لروحه وأحلامه، ثم إنه عثر على كنزهِ المفقود فأخذ يستمد من الروح الأوروبية نفسها مادة حياته التي لا تنفذ، فكانت ثورته الرومانتيكية الحاسمة التي فتحت أمامه آفاقاً جديدة، ووقفت به على حدود المجهول الذي لا تنتهي صورهِ وأشكالهِ، وعلمته كيف يستلهم الحياة نفسها، ويستوحي جمال الوجود، بعد أن كان يتخذ الوقائع والأحداث مادةً وحيه وخياله، والتي ما زالت — فيما أرى — حيةً في صميمها، وإن اختلفت فيها الأسماء والحدود.

ذلك كل تأثر الأدب الأوروبي بغيرهِ، أما الأدب العربي الحديث فإنه لا يريد أن يتصل ببعض آداب العالم دون بعض، كلاً، وإنما هو يتصل بجميع آداب العالم، لا يستثني منها واحداً، سواء في ذلك القديم والجديد، والقريب والبعيد؛ فهو يتصل بالأدب الفرنسي والإنجليزي والألماني والإيطالي والروسي والإسباني والإسكنديناوي والأمريكي، بل وحتى الروماني واليوناني القديمين، وهو لا يريد أن يمرَّ بهاته الآداب مرَّ الجانب، بل يريد أن يتصل بروحها اتصالاً وثيقاً، وأن يتأثر بهذا الروح ويستوحيه، وهو لا يكتفي بهذا بل يستلهم تواريخ هاته الأمم والشعوب، وما لها من أساطير وخرافات، ثم هو يأبى إلا أن يستغلَّ في استلهامه ما لها من فن وفلسفة وعلم، ثم هو لا ينسى أن يستوحي مع ذلك ما في أدب اللغة العربية وتاريخها وأساطيرها من صور الفن وآيات الجمال، ثم هو يضيف إلى كل ذلك ما في حياة الأمة العربية الحاضرة من أحاسيس مختلفة، وأحلام مشبوبة، وأطوار تشتبك فيها الحقيقة بالخيال، كل ذلك يتخذ من الأدب العربي المعاصر مادة لروحه، وغذاء لقلبه، وشراباً لأشواقه الجامعة.

وقلَّ بين أدباء العربية الآن من كانت ثقافته مقصورة على العربية وحدها، بل إن الكثير منهم ليدين في إنتاجه إلى أكثر من ثقافتين وثلاث. والحق أنه قد أصبح من العسير جداً على الأديب العربي المعاصر أن يعصم نفسه من التأثر بالروح الأجنبية، فهو لا بد أن يتأثر بهذا الروح ولو تأثراً لا شعورياً، مهما كانت ثقافته خالصة في عروبته،

ومهما كان غالباً في التشيع لأنصار القديم، وما ذلك إلا لشيوع الترجمة والنقل عن الآداب الأجنبية شيوعاً لم يعرفه تاريخ الآداب في عصر من عصوره.

وقد كان لاتصال الأدب العربي بغيره من آداب العالم هذا الاتصال القوي أن اكتسب الأدب ثروةً فنيةً ضخمةً في الصور والمعاني والأخيلة والأساليب بصورة لم تعرفها الأدب العربية من قبل، وإن أفادت اللغة العربية مرونةً ودقةً أصبح بهما الأديب الشاعر يستطيع أن يعبر عن أخفى العواطف المستسرة، وأدق الأحاسيس الغامضة، وأعقد الحالات النفسية التي كان أديب الأمس لا يستطيع تصوُّرها وإدراكها، فضلاً عن التعبير عنها، ونفخ الحياة فيها، وإعطائها ما يلائمها من أضواء وظلال. ولكن ذلك الاتصال الوثيق كما أنتج تينك النتيجتين الجميلتين أنتج نتيجة أخرى لا ندري على التدقيق ما سيكون أثرها في الأدب العربي الحاضر، فقد أدَّى إلى بلبلة في فهم الشعر، وضبط مقاييسه، وموضوعه، وغايته، لا نحسب أن تواريخ الأدب في العالم قد سجلت مثلاً، حتى لقد كاد يصبح لكل أديب مقياسه في فهم الشعر وتقديره، وأصبح النقد فوضى لا تضبط لها حدود ولا تقوم على أساس محترم من الجميع.

فهناك المدرسة القديمة، وشعراؤها ونقادها، وأراؤها عن الشعر وما يجب أن يكون عليه، وهناك المدرسة الحديثة بما فيها من شعراء ونقده على اختلاف نزعاتهم وثقافتهم وأطوارهم النفسية، ومن خلفهم طوائف المتأدبين الذين لهم أحكامهم الخاصة على الشعر والشعراء والنقد والناقدين، والتأليف والمؤلفين، والذين لا تضنُّ عليهم الصحافة ولا المطبعة بنشر ما يرتئون من رأي وحوار، ومن وراء كل ذلك جماهير القارئ في مختلف جهات العالم العربي بأرائهم المتقلبة التي تبنيها الغدو وتهدمها الأصال، ويعبث بها جزر الحوادث ومُدُّها في خضم الزمان.

وإنه ليُعْيِي المرء — مهما حاول — إحصاء هاته المذاهب، أو النزعات إذا تحرَّينا دقة التعبير، التي تضطرب في رءوس الشعراء والنقاد والمتأدبين، والتي تتقاذف الأدب العربي المعاصر أخذاً ورداً وجزراً ومداً، ولكن سنحاول أن نتحدث بإيجاز عن أظهر هاته النزعات في محاورات اليوم، وأقواها أثراً في نفوس الأدباء.

فمن هاته النزعات النزعة «الخيالية»، وهي نزعة لا تعتبر الشاعر شاعراً إلا إذا كان شعره عالماً سحرياً، لا تنتهي أطيافه وخيالاته ولا أضواؤه وظلماته، وتشعر فيه نفس القارئ أنها قد ارتفعت إلى ما وراء الغيوم وما خلف النجوم ... ومنها النزعة «الرمزية»، وهي نزعة لا تريد من الشاعر إلا أن يتحدث للناس من وراء السحاب، أو ملفوفاً في

مثل الضباب، ولا تتطلب منه إلا كلاماً مبهمًا لذيذًا، شبيهًا بالموسيقى في لغتها الغامضة التي كلما أصغى لها السامع حركت في نفسه ضروبًا من الحسّ والتصور والخيال غير ما حركت من قبل، وعبرت له في كل لحظة تعبيرًا جديدًا لا تنتهي ألوان المتعة والطرافة فيه. ومنها النزعة «الفلسفية»، وهي نزعة لا تفهم الشاعر إلا أن يكون فيلسوفًا له فلسفة مضبوطة محكمة لا تضطرب مقدماتها، ولا تختل نتائجها، ولا تتناقض أجزاؤها بتناقض حالات الشاعر النفسية واضطرابها بين الشك والإيمان والثورة والسكون واللذة والألم. ومنها النزعة «الثورية»، وهي نزعة لا تعترف للشاعر بالشاعرية إذا لم تكن له في آثاره قوة العاصفة الداوية والبراكين الطاغية، ينطق فتنتلق كلماته مجلة جامعة ترجّ الحياة في أعماقهم رجًا، وتزلزل هدوء الأحلام، ويتكلم فيندلع الهميب من كلماته المتوهّجة بنار الحياة. ومنها النزعة «المتعققة»، وهي نزعة تأبى على الشاعر إلا أن يكون عميقًا كالليل، لا ينجي أبناء الإنسان بهاته المعاني الواضحة البادية التي تستوعبها اللمة الخاطفة والنظرة الطائرة في الفضاء، وإنما تريد منه أن يناجيهم بما في أعماق الحياة والموت والوجود والعدم، وما في خفايا ذلك العالم المجهول الذي يحمله قلب الإنسان من عبودية عريقة للحياة، وثورة على نواميسها العاتية. ومنها النزعة «التاريخية»، وهي نزعة تنكر على الشاعر كل شيء إلا أن يكون ظلًا واضحًا لهاته الحياة العابرة، يستطيع المؤرّخ أن يجد في آثاره صورة حية من عقائد الشعب وعاداته وأطواره، وتقلباته وأحلامه وخرافاته. ومنها النزعة «السياسية»، وهي نزعة لا تريد من الشاعر إلا أن يكون زعيم قوم يدعوهم إلى النهضة والحياة، ويهيب بهم إلى الضرب في سبيل الزمان الذي لا تنتهي تعاريج وعقباته. ومنها النزعة «الصحافية»، وهي نزعة تريد من الشاعر أن ينظم في أحداث اليوم ومشاكل الساعة ويقدم للناس صحفًا منظومة يسجل فيها حوادث العالم في السياسة والاقتصاد وكل شيء آخر، وعلى الإحساس والفكر والعاطفة رحمة الله ... ومنها النزعة «الغزلية»، وهي نزعة لا ترضى عن الشاعر إلا إذا قدم حياته قربانًا للمرأة، وأحرق مواهبه بخورًا تحد قدميها الجميلتين، ولم يتكلم بغير لغة الحب والدموع، أما بقية لغات النفس وعواطفها الأخرى فعليها لعنة الشعر والحياة ... ثم لعنة حضرات السادة الغزليين ...

وهناك نزعات كثيرة أخرى، ولكنها ضعيفة تافهة، ليس لها من قوة الأثر ما يحملنا على تدوينها في كلمتنا هاته: نزعات غريبة، وأخرى ذابلة، وأخرى ميتة بالية، فلندعها تختلج اختلاجة الموت في أدمغة بعض غلاة القديم، وبعض متطرفي الجديد، ولندعها تقضي ساعة الموت في سكون الظلام؛ فهي زاهية لا محالة إلى هوة الفناء المحتوم ...

ولكن هناك نزعة غريبةٌ يدين بها بعض الناس ممن يحملون التجديد على غير محمله، ويفهمونه على غير المراد منه، فهم يحسبون التجديد أن يأتي الشاعر في أسلوبه ومعناه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشيء، وأن يخلق آثاره من عدم، ويأتي بها غير مسبوقة بصورة أو مثال! وهي فكرة غريبة لا نفهم كيف يستطيع اعتقادها فريق من الناس، ولكننا نسوق إليهم هاته الكلمة الصغيرة:

إن الحياة نفسها ليست إلا حرية ترسف في القيود، وسلسلة يتصل فيها الطريف بالتليد، وإننا حين نطالب الشاعر بالتجديد لا نطالبه بأكثر من أن يترسم خطى الحياة في فنّها، فالزهرة — وهي فنٌّ من فنون الحياة — ليست إلا بعض ما في التراب والماء والسماء من روح الحياة، ولكنها مع ذلك فنٌّ منها جديد يخيل إلينا أنه بعيد عنها جد بعيد. ونحن — أبناء الإنسان — ننحدر إلى هاته الدنيا وفينا مشابه من آبائنا الأولين في الملامح والميول والأطوار، ولكن لكل منا روحه الخاصة، وطابعه الممتاز. وكذلك تتدفق الكائنات من قلب الحياة الأزلي الذي لا ينضب، وكأنها صورٌ ممتازةٌ متباينةٌ رغم ما بينها من وشائج الرحم والقربى، ولولا ذلك التباين الحكيم لأصبح عمل الحياة عبثاً متواصلًا، وعناءً معادًا لا جدوى وراءه ولا متاع.

كذلك يصنع الشاعر الفنان، وكذلك ينبغي أن يصنع، فهو لا يستطيع أن يخرج عن نفسه التي بين جنبيه وما في هذا العالم من سحر ولذة وألم، وما خلفته الإنسانية من فن ورأي ودين، ولكنه حين يتحدث إلينا بذلك في آثاره لا يتحدث به إلا بعد أن يحيا في قلبه، ويتوهج في حياته، ويتضجّر بأضواء نفسه المشرقة، فتبرز آثاره للدنيا موسومة بوسمه، ومطبوعة بطابعه الذي لا يزول، وذلك هو التجديد بمعناه الواضح الصحيح.

والشاعر ماذا يصنع بين هاته السبل المتعرجة، وفي لجة هاته الأصوات التي تهيب به من كل ناحية ومكان؟

أما إذا كان ضعيف النفس خوَّار العزيمة فإن مواهبه وألحانه تضمحل وتفننى في هذا الأفق الدَّاوي بالأضواء، وتذهب حياته أبانيد في مهابّ هاته الرياح، وأما إذا كان موثق العزم قوي الإيمان برسالته، فهو يسلك سبيله في عزم وقوة غير أبه لتلك الأصوات الكثيرة المتباينة، وهو يمضي قُدماً، صامّاً سمعه إلا عن صوت «الحياة» المتردّد في أعماق

قلبه المتدفق في جوانب نفسه تدفق أمواج البحار، مطبقاً بصره إلا عن نور السماء المشرق في آفاق روحه الحاملة، وفي أعماق الوجود. وهو يمشي وعلى شفثيه بسمه مشفقة ساخرة بكل هاته الأصوات التي تريد أن تحصر روح الشاعر في قفص مطبق محدود الجوانب؛ لأنه يعلم أن روح الشاعر روح حرة لا تطمئن إلى القيد، ولا تسكن إليه، حرة كالطائر في السماء والموجة في البحر، والنشيد الهائم في آفاق الفضاء، حرة فسيحة لا نهائية لا تحدها نزعة واحدة، ولا مذهب محدود، وإن كانت لا تضيق بكل هاتيك النزعات مجالات نفس الشاعر، ولا تتقيد بصورة أو مثال.

والحق أننا نخطئ كثيراً إذا حاولنا أن نفرض على الشاعر آراءنا ومذاهبنا وأحلامنا فرضاً، ولن نجني من وراء ذلك إلا تضليل المواهب الجديدة الناشئة، وسخرية المواهب الكبرى السائرة إلى النور، وأنه ليس لنا أن نطالب الشاعر في شعره بغير «الحياة»، وإذا جاز لنا أن نطالبه بأكثر من هذا فلنطالبه بأن تكون هذه «الحياة» رفيعة سامية، تتكافأ مع ما للشعر من قدسية الفن وجلاله، ففي الحياة كثير من الحماقات والدنايا، يتعالى الفن عن التدلي إليها من سمائه العالية.

فإذا قرأنا شعر الشاعر فوجدنا فيه إنساناً من لحم ودم، يحيا ويتنفس، ويشعر ويفكر، ويجاوبنا بالعطف والحس والخيال، وينسينا لحظة وجودنا المحسوس بما يخلعه علينا من جمال الفن وصوره، ويرتفع بمشاعرنا فوق دنيا هذا العالم ومحقراته، إذا وجدنا هذا الشاعر فلنقرأه في ثقة وإيمان بأنه الشاعر حقاً، وليس بعد هذا أن يكون رمزياً أو رومانيكياً أو غير هذا وذاك. فما تلك في الحقيقة إلا أطوار نفسية يتشكل الشعر بما لها من ألوان وظلال وأضواء، وليست هي الشعر نفسه؛ فإن لباب الشعر «الحياة». ولقد قلت مرة عن الفن بمعناه الواسع: إنه «حياة موسيقية مصطفأة»، سواء كان قطعة تُنشَد، أو لحناً يُعزَف، أو صورة تُرسم، أو تمثلاً يُنحَت، فهو «حياة»؛ لأن الفن في صميمه إنما هو صورة من تلك الحياة التي يحيا بها الفنان في هذا الكون الزاخر الرحيب، أو في دنيا خياله وأحلامه، وكيفما كانت تلك الصورة في اللون والشكل والعرض، وهو حياة «موسيقية»؛ لأن الفن في جميع صورته وألوانه إنما هو مجموعة نسب موسيقية، يُوازنُ الفنان بينها موازنةً حكيمةً مُلهمةً، يحسُّ بها في قرارة نفسه ويأتيها، وربما لا يفهمها كل الفهم أو بعضه؛ فالشاعر العظيم هو الذي يوفق في فنه إلى المعادلة بين نسب العاطفة والفكر والخيال والأسلوب والوزن، بحيث يحصل بينها التجاوب الموسيقي الذي ينسجم في القصيد انسجام النور والعطر والماء والهواء في الزهرة الجميلة الياقة.

والرسام العظيم هو الذي يوفّق في الصورة إلى الموازنة الموسيقية بين الألوان والأضواء والظلال، والروح الفنّية الشائعة في كل ذلك شيوع الضياء في السماء، وليقل مثل ذلك في بقية ضروب الفن وأصنافه.

وهو حياة موسيقية «مصطفاة»؛ لأن الفنّان المخلص لفنه لا يعبرّ أو هو مكزّة على ألاّ يعبر بفنه إلا عن أرفع صور الحياة وأسمائها، وعلى هذا فإن الشعر الرفيع حياة موسيقية مختارة تعبر عن نفسها في فنّ من الكلام. والموسيقى حياة موسيقية مختارة تفرّف بالحنّاء مجنّحة في جو منغم موزون، وكذلك يقال في سائر أنواع الفن.

وقد تحدّثت عن المدرسة القديمة والمدرسة الجديدة في الشعر العربي الحديث، فما هي حدود كلّ من المدرستين، وما هي غايتُهُما؟

أما المدرسة القديمة، فهي تزعم أن اللغة العربية مزاجاً خاصاً لا يسبغ إلا ضروباً محدودة من التفكير والحس والخيال، وهي تنقم على المدرسة الحديثة أنها تستحدث في الأدب العربي فنوناً من البيان مشبعة بما في الروح الأجنبية وآدابها من طرائف التفكير والخيال والإحساس، وهي تدّعي أن ذلك لا يلائم طبيعة اللغة العربية، ولا ينسجم على ما تسميه «الأسلوب العربي الصميم».

وأما المدرسة الحديثة فهي تدعو إلى كل ما تكفر به المدرسة القديمة بدون تحرز، ولا استثناء، هي تدعو إلى أن يجدد الشاعر ما شاء في أسلوبه وطريقته في التفكير والعاطفة والخيال، وإلى أن يستلهم ما شاء من كل هذا التراث المعنوي العظيم الذي يشمل كلّ ما أدّخرته الإنسانية من فنّ وفلسفة ورأيٍ ودينٍ، لا فرق في ذلك بين ما كان منه عربياً أو أجنبياً، وبالجملة فهي تدعو إلى حرية الفن من كل قيد يمنعه الحركة والحياة، وهي في كل ذلك لا تكاد تتفق مع المدرسة القديمة إلا في احترام قواعد اللغة وأصولها، بل إن فريقاً من متطري المدرسة الحديثة لا يعدل بحرية الفن شيئاً، ولا يحفل في سبيل ذلك حتى بقواعد اللغة وأصولها، غير أن صدى هاته الطائفة قد أخذ يخفت ويضمحل ولا شك أنه سيفنى مع الزمان؛ فهو ليس إلا طفرة جامحة لكل الطفرات التي تصحب كل انقلاب في حماسة الدعاية الأولى.

ولكن، ما غاية هاته المدرسة الحديثة وما حدودها؟

أما إذا أردت يا صاحبي أن تجعل لهاته المدرسة حدوداً مضبوطة فاصلة على النحو الذي كان عليه المذهب الرومانتيكي أو الرمزي أو البرناسي أو الواقعي، أو غير

هاته المذاهب التي سَيرت الأدب الفرنسي في طرق خاصة، وأمّلت عليه من روحها القوي الثابت، أقول إذا أردتَ ذلك فإنك غير واجده؛ فالمدرسة الحديثة لم تصبح بعد مذهباً واضح الحدود والمعال، ولكنها ما زالت ثورة مشبوبة هائجة، وإيماناً قوياً عميقاً، ثورة في سبيل حرية الشعر وكماله، وإيماناً بسمو الغاية وجلال المبدأ. أجل، هي ثورة ما زالت تختلط فيها المطامح والميول، وتضطرب فيها أصول المذاهب اضطراب البذور في حميل السيل، وآية هذا ما أسلفتُ من اختلاف في المقاييس الأدبية، والأساليب والنزعات، وذلك سرُّ هاته الحيرة العميقة الغائمة التي تعانق أرواح أغلب شعراء هاته المدرسة، فكل واحد منهم واقف بشعره على تخوم عالم مجهول، لا يعرف له مبدأ ولا غاية، تستفز نفسه أصوات وأنغام، وتستهوِي خياله أشواق وأحلام، وتسحر طرفه أشعة وأطياف، ولكنها لا تأسر نفسه حتى تتوارى وراء السحب البعيدة النائية، ثم تضمحل وتقنى في سكون الفضاء. وما أشبه حال شعراء هاته المدرسة اليوم بحال «البحار وجنية البحر» فيما تقصّه الأساطير! ولذلك فكل شاعر من شعراء هاته المدرسة يكاد يمثل في نفسه مدرسة مستقلة لها مذهبها الخاص، وطابعها الممتاز، ولها وجهتها في فهم الشعر وإنشائه.

على أنك تستطيع أن تلمس في آثارهم رغم ذلك روحاً قوية متأججة مشرقة كالصباح، متوهّجة كاللهيب، هاته الروح هي طلاقة الحياة والحنين إلى المجهول ... فالحيّة الحرّة المطلقة، والأشواق التائهة المبهمة، أو «الطموح» بأشمل معانيه، هو الروح الغالبة البادية في آثار هاته المدرسة التي تجاهد في سبيل الكمال الفني المنشود.

وأبو شادي كشاعر من شعراء هاته المدرسة المجدّدة له مذهبه، وأسلوبه، وروحه الخاصة الممتازة.

أما مذهبه الشعري — فيما أرى — فهو أن يحرص الشاعرُ كلَّ الحرص على التعبير عما يدوي في أعماق نفسه من أصداء الحياة، وما يخالجه من وحي هذا الوجود، وعلى ألا يضيع من ذلك شيئاً ما استطاع إليه سبيلاً. ولعله يؤمن بأن كل تقصير في ذلك يُعدُّ خيانة لأمانة الفن؛ فالشاعر لم يوجد إلا ليؤدي رسالة هذا الكون الذي لا تسكت ألسنة الهواتف فيه، وكلما قصر الشاعر في أداء هاته الرسالة كان خائناً لرسالته، وغير مخلص لفنّه، وهذا هو السرُّ في وفرة إنتاج أبي شادي بالنسبة لغيره من الشعراء.

فهو إذن صاحبُ مذهب جديد في الشعر، وأنا أعتقد أن مذهبه هذا يرجع إلى طبعه أكثر من كل شيء آخر، فهو ذو طبع عملي ممتلئ بالعزم، والحياة لا تكاد تولّد الفكرة في أعمال نفسه حتى تحوّلها طبيعته العملية إلى كائن موجود؛ ولذلك فهو لا يستطيع

أن يحس إحساساً لا يعبر عنه، ولذلك فهو يعجب كيف يؤثر الشاعر وأد عواطفه على بعثها حيّة في شعره تتنفس بروح الحياة! وكيف يقتل الكسل والاستسلام روح الخلق في الفنّان الذي لم يوجد إلا لخلق! وهو يعبر عن مذهبه هذا في كثير من نثره وشعره، ولكنه يعبر عنه بحرارة وإيمان في قصيده الجميل الرائع: «التجدد» من هذا الديوان.

وأما أسلوبه فهو يمتاز بجمال الطبع والسهولة، والبساطة الحرة الواضحة التي لا تحبُّ التكلف ولا تسعى إليه، وهو يرسله إرسالاً، كما قال «مثل الأتيّ ومثل الجدول الجاري» لا يتأنق فيه ولا يتعمل، ولا يحرص على ما يحرص عليه بعض الشعراء من ظهور آثارهم بمظهر المترف الأنيق، ولكنه يحرص كل الحرص على أن يكون صادقاً دقيقاً في التعبير عن ذات نفسه ولو أدّى به ذلك إلى الغموض أحياناً.

أما بعضُ الناقدين الذي يجردون أسلوب أبي شادي من الجمال فإنهم يظلمون الرجل ويتحاملون عليه، فإن أسلوبه لا يفقد الجمال ولكنه يفقد الأناقة، وشتان بين الأناقة والجمال، والحق أن الشاعر إمّا أن يضيّع غير قليل من أحاسيسه وأصوات قلبه في سبيل الأناقة والاندفاع مع الرنين الموسيقي، وإما أن يضيع غير قليل من هاته الأناقة في سبيل التعبير عن ذات نفسه بدقة وأمانة، وأبو شادي لا يؤثر التضحية بمذهبه الذي يدعو إليه ويؤمن به في سبيل التزويق والتنويق.

وأما الرُّوح التي يمتاز بها شعر أبي شادي فهي روحانية عميقة، وصوفية بعيدة المدى، وإحساسٌ مُرهَفٌ مشبوبٌ، وخيالٌ متنقِّلٌ سريعٌ. وبهاته الروح المركّبة ينظر أبو شادي إلى هذا الوجود فلا يرى فيه إلا أحياء جديرة بالمحبة والعطف، يعاطفها وتعاطفه، وتشاركه الأنس والحياة، وبهاته الروح يهتف قائلاً من أعماق قلبه:

وكم في الظلِّ والأنوا رِ أحلامٌ أناديها!

أبو القاسم الشابي

تونس

إهداء الديوان

لَمَّا رَأَيْتُ عَوَاطِفِي وَخَوَاطِرِي وَمُنَى الْحَيَاةِ لَدَيْكَ أَنْتِ تَضُوعُ
أَيَقَنْتُ أَنَّكَ أَنْتِ وَحْدَكَ خَالِقِي وَعَرَفْتُ أَنَّ جَمَالَكَ «الْيَنْبُوعُ»
فَجَعَلْتُ قُرْبَانِي إِلَيْكَ عَوَاطِفِي إِنَّ الْحَيَاةَ حَنَانُكَ الْمَطْبُوعُ

أبو شادي

شعر الديوان

الصبا المبعوث

يا زهرةً لحبيبتني قد مَثَّلْتُ
لم ألقَ غيرَكَ مَنْ تُجَسِّمُ ما مَضَى
مَضَتْ السَّنُونُ فكيفَ كيفَ أُعِيدُها
لِمَ لا أُجِنُّ وذاك عُمْري ذاهِبُ
عُمْري مَضَى إِلَّا الأَقْلُ، وإنه
وأَحَبُّه ذاك الشَّبَابُ المنطوي
فإذا عَشَقْتُكَ أَنْتِ عَشَقَ حَبِيبَتِي
قد صِرْتُمَا لي صُورَتِي حُبِّي الذي
وله حَبِيتُ وما أزالُ أَعِيشُ في
مَنْ ذا يُلومُ تَوَدُّدِي لِكَ بَعْدَما
مَنْ مُرْجِعُ أَمْسِي الذي كَفَّنْتُهُ
أَنْتِ التي هي صُورَةُ مَنْ أَمَّها
وبها زَمانُ تَلَهَّفُني وتَحَرِّقُني
ما أَنْتِ إِلَّا فَلَذَةُ مَنْ مُهْجَتِي
وإذا انتَسَبْتَ فَإِنَّني أَوَّلَى بما

أعوامَ فُرَقَتِنا إِلَيْكَ أَحْنُ^١
مِنْ لَوَعَةٍ في رُوعَةٍ تَفْتَنُ
إِلَّا بِحُبِّكَ أَنْتِ حِينَ أُجِنُّ؟
كَالذَّبُعِ قد خانتَ جَدَاهُ المُرْنُ؟
عَمْرٌ على الحالينِ فيه الحُزْنُ
ولديكَ أَنْتِ خيَالُهُ المِفْتَاحُ
فالْبِرُّ يُوحي بالهوى والفَنُّ!
منهُ نُفِيتُ، ومنهُ منه الغَبْنُ
حُلْمِي، فلولا الحُبُّ مات الكونُ!
عَانِيتُ مما قد جناه البَيْنُ؟
فيعودَ عطفُ مَنْه ليس يُمَنُّ؟
فلها الرِشاقةُ والصبا والحُسْنُ
يرنو إليَّ، كما شجاني الآنُ
بُعِثْتُ فكيفَ تَرُدُّ شوقي السَّنُّ؟
مَثَّلْتُ مِنْ رُوحٍ إِلَيْهِ أَجِنُّ

^١ انظر قصيدة «الزهرة» في ديوان «أطياف الربيع» ص ٤٩.

الألحان الصامته

لغَةٌ من الشُّعْرِ الحَنُونُ
وَفَسَّرْتُ معنَى الفنُونُ
حُرِمْتُ صداقَتَهَا تَهُونُ
ءَ يَذُوبُ مِنْ فَمِهَا فُتُونُ
بِ كَأَنَّهَا عَذَبُ الجنُونُ
مَ وَأَسْبَلْتُ مِنْهَا الجَفُونُ
نَ فَلَحَنْتُ لَغَةً العُيُونُ
تِ كَمْ يَبِينُ وَلَا يَبِينُ
فَجَمِيعُهَا شَدُوْ مَصُونُ
قَ فَمَا تَشَدُّ وَمَا تَخُونُ
مِنْ الصَّبَابَةِ والمَجُونُ

لغَةٌ الحَوَاجِبِ والعُيُونُ
أُغْنَتْ عَنِ اللّٰحَنِ الشَّجِيِّ
وَكَأَنَّمَا الأَلْحَانُ إِنَّ
وَقَفْتُ تَغْنِي والغَنَّا
ورشاقَةُ الصوتِ الحَيِّ
قَد رَنَحْتُ مِنْهَا القَوَا
واستنطقْتُ شَغَفَ العِيوِ
فلبثْتُ مَأْسُورًا بصوِ
أَهْوَاهِ مِنْ نَظَرَاتِهَا
حَاكْتُ تَبَسُّمَهَا الرَقِيْدَ
بَل تَغْمُرُ الرُّوحَ الوَفِيَّ

يَوْمٌ مَرُوعٌ

(في جيرة البحر)

يلوح الأفقُ أَغْبَرَ في دُخَانٍ
كَأَنَّ السُّحْبَ جَمَعَهَا بَخُورُ
يَضِيقُ الأفقُ في قلبي ونفسي
إِذَا اكْتَابَ الوجودُ فَإِنَّ نَفْسِي
أَهَاتِيكَ الصَّخُورُ لَهَا شَخُوصُ
أَفِيهَا مِنْ قَدِيمِ العَهْدِ رُوحُ
لَقَدْ مَضَتْ القُرُونُ وتلك سَكْرِي
وهذا البَحْرُ أَهْوَنُ مَا تَلَاقِي
أَهَذَا اليَوْمُ مِنْ أَهْلِ الشِّتَاءِ
وَمَا جَدَوَى السَّوَالِ وَذَاكَ يَوْمِي

وهذي الشمسُ تُحَرِّقُ إِذْ تَغِيبُ
بِمَجْمَرَةٍ لَهَا سِحْرٌ عَجِيبُ!
وَمَا يُغْنِي الْمَنَى الأفقُ الفَسِيحُ
تَيْنُ وَكُلُّ مَحْمُودٍ قَبِيحُ
سوى البادي على تلك الصَّخُورِ؟
تراثُ للشُّعُورِ وللضَّمِيرِ؟
على مَوْجِ الحَوَادِثِ والقُرُونِ
فَمَا مَوْجٌ سِوَى مَوْجِ السَّنِينِ!
وقد أَوْفَى دَخِيلًا فِي الرَّبِيعِ؟
يصدُّ عَنِ الإِجَابَةِ كَالْمَرُوعِ؟!

بحر السماء

نومي على فَلَقٍ من الأضواءِ
إِلَّا حديثَ الموجِ والدَّأماءِ
نَرَضِي بهدأةٍ لحظةٍ لندائي
كتَلَفَتِ الأطيافُ للشُّعراءِ
لهَفٍ، كوْثِبِ الموجِ فوقَ الماءِ
كالخيلِ في ركضٍ وطُولِ عناءِ
فالدَّهرُ قاسٍ دائِماً ومُرَّائي
حُلُمِي وأنفاسي ووحي رَجائي!

هَتَفْتُ بي الأضواءُ فاستيقظتُ من
ونظرتُ في أَفْقِ السماءِ فلم أَجدُ
السُّحْبُ تجري في اصطخَابِ الموجِ لا
ناديتها فتَلَفَّتْ، لكنَّه
لا تستقرُّ هُنيئاً، وتسير في
وكأنما الزمنُ العجيبُ يسوقها
تخشى سِياطَ الدهرِ تجري خلفها
وتغيبُ في بحرِ السماءِ كما مضى

البحر الصغير

(من مشاهد المنصورة البديعة)

تُنِيرُ بك السفينُ وتستنيرُ^٢
وكلُّ روحها طفلٌ صغيرُ
حياةً ليس يُشبهها النظيرُ
وخلَقاً تستعزُّ ولا تَضيِرُ
فسرتَ وأنتَ مَزْهُوٌّ قَريِرُ
بكَ الأحمالِ يُزجِيها الخريِرُ
فينظُمُها لَكَ الحسنُ القديرُ
كما يحيا بك النورُ الأسيرُ!

هَنيئاً أيها البحرُ الصغيرُ
وتجري فيكَ أمواجُ خِفافُ
تطوفُ على الحقولِ وأنتَ تُسدي
أيا ابنَ النيلِ أنتَ أبوكَ لوْنَا
تَبَنَّتْكَ المدينةُ وهي أَهلُ
تُضيفُ الورَّ ألواناً وتجري
وتختلطُ الحياةُ لديكَ شَتَّى
ويحيا فيكَ نوتِيّ وطيِرُ

^٢ إشارة إلى انعكاس الأضواء من سطح الماء على السفين.

رعدة الحور

الشمسُ تضحكُ للأصيل، وماؤُه
والحورُ غازلها النسيمُ معانقًا
فترفُ أوراقُ الغصونِ بلا وئى
هذي الطبيعةُ في احتضانٍ دائمٍ
في النيلِ مُصطفًى يحنُّ إليها
وكأنما ارتعشَ النسيمُ لديها
في رعدةٍ والسحرُ رفٌّ عليها
فعلامَ نُهزمُ نحنُ بين يديها؟

عيون المنصورة

عيونُ كلِّها فتَنُ
أحنُّ لسمرةٍ فيها
فكمُ فيه تحياتُ
وكمُ فيه عباداتُ
نظرتُ إلى معانيها
فكمُ من سبحةٍ فيها
تُناجي ظلَّها الحاني
وكمُ في الظلِّ والأثوابِ
وأصداءُ من الفتنِ
كسمرةٍ مائها الفنى
من الأجيالِ والزمنِ
لنهرِ روحه وطني
كأنِّي لستُ أدريها
لرُوجي إذ تُناجِيها
ونُورًا حائرًا فيها
رِ أحلامُ أناديها!

اللفة الخالدة

في القُربِ أم في البُعدِ يغمرُ مُهجتِي
ما لي أراكِ كأننا لم نجتَمعُ
أرنبو إليكِ كأنما الدنيا أبَتُ
أرنبو إليكِ كأنني أرنبو إلى
أرنبو وأرنبو ثم أرنبو مثلما
أرنبو وهذا الصَّمْتُ يشملُنِي كما
منْ لهفتي قلَقَ يدوم وجُوعُ؟
قبلاً وقلبي هائمٌ ومَرُوعُ؟!
هذا اللقاءُ وإنني المخذوعُ
كونِ يحار به النُّهى وَيَضِيعُ
يرنبو إلى الأمِّ الحنونِ رضيعُ
شملَ الوجودِ أشعةٌ ودُمُوعُ

ويحار حُسْنُكَ مِنْ سَكُوتِي بينما
أَوَاهِ مِنْ لَهْفِي وَمِنْ حَرَقِي الَّذِي
عَالَجْتُ كُلَّ وَسِيلَةٍ أَشْفَى بِهَا
وَإِذَا نَعِيمِي أَنْ أَرَاكَ وَحُرَقْتِي
وَإِذَا بِي الصَّادِي الَّذِي لَا يَرْتَوِي
إِنَّا رَبُّنَا فِي الشَّقَاءِ وَفِي الْهُوَى
وَكَأَنَّمَا نَصَفُو بِمَاتِمِ حُبَّنَا

أنا وحدي المتكلِّمُ المسموعُ!
لا ينتهي وكأنَّه المطبوعُ
فإذا الشفاء محرمٌ ممنوعُ
تتساويان وقلبي المصدوعُ
وإذا جمالك وحده ينبوعُ
فهوأي - مهما ينعم - المفجوعُ
والذكريات تحوطينا وتروعُ!

الأم الحنون

صَمَمْتُ الكمنجةَ مثلَ ابنةٍ
وهذي الأناملُ تجري عليها
فمنها السُّرورُ ومنها البكاءُ
ومِنْ قوسِها المستحبُّ العزيزُ
فيا عجباً بين أمِّ حنونٍ
نذوقُ الحياةَ بالوانِها

وأدبَّتِها ثم لاعتبَّتِها
حناناً يُنوعُ مِنْ صَوْتِها
كأنك بالعزفِ عاقبتِها
تُثارُ البلبَلُ مِنْ صَمَمَتِها
وبين التدلُّلِ مِنْ بِنَتِها
أغاني تُعَبِّدُ فِي ذَاتِها!

إلى مودعتي

وَدَّعْتَنِي وَكَأَنَّمَا وَدَّعْتَ بِي
يَمَمْتُ شَاطِئُ «أفرديت»^٣ وطالما
بلدٌ تَنَفَّسَ بِالمَلاحَةِ رُوحَهُ
فلَمَنْ تُرِكَتْ وَقَدْ نَائِيَتْ وَهَذِهِ

أَملاً جريحاً قد طَوَاهُ الْهَمُّ
جَذَبَ الْجَمَالَ إِلَيْهِ ذَاكَ الْيَمُّ
وَالْحَسَنُ مِنْهُ يَعُودُ وَهُوَ أَتَمُّ
دُنْيَايَ يَمْشِي فِي جَنَاهَا السُّمُّ؟

^٣ شعر الإسكندرية.

ولمن أَرْفُ عواطفِي وتهافتِي
صُورَ الجمالِ حياةً نفسي بينما
إنْ غَبِتْ حِرْتُ بكلِّ ما أنا عاشقٌ
شِعْرُ المعابدِ أينَ أينَ رِواؤُهُ
أَنْتِ الَّتِي مَهْمَا لِنَمْتُ جَمَالَهَا
أَنْتِ الَّتِي هِيَ تَوَأْمِي ° فَبِمَنْ سِوَى
هل لي سِوَى هذا الجَمالِ مَثَابَةٌ

ولديكِ لطفٌ عن هوايَ ينمُّ؟
لا أَشْتَهِي إِلَّا سَنَّاكَ يُضَمُّ
وجميعُ ما أنا أرْتَضِيهِ يُذَمُّ
إِلَّاكِ؟ أينَ سِوَاكِ سِحْرُ جَمِّ؟
فَالْقَلْبُ لا يَرِوِيهِ هذا اللَّثَمُ
هَذَا الحَنانِ مَوَاهِبِي تَأْتَمُّ؟
تُخْتَارُ أَوْ حَسَنُ سِوَاكِ يُشَمُّ؟

العيون المتكلمة

شاهدْتُ نَهْدِيهَا وقد خَفَقَ الهَوَى
ونظَرْتُ هذا الجِسْمَ أَجْمَلَ ما اشْتَهَى
فَعَرَفْتُهَا مَعْنَى الأُلُوهَةِ قُدَّسَتْ
وَأَطْلُتُ مِنْ نَظَرِي إِلَيْهَا حَائِرًا
فَتَكَلَّمْتُ لُغَةَ العَيُونِ بما حَكَّتْ

بهما كما قد رَفَّ مِنْ خَدَّيْهَا
رَبُّ وَأَفْتَنَ ما ادَّعَاهُ لَدَيْهَا
فوقَ الحَيَاةِ وقد حَوَتْ رُوحِيهَا^٦
فِي وَحْيِ هذا الظِّلِّ من نَهْدِيهَا
مِنْ قَبْلُ حِينَ رَنَا الإِلَهُ إِلَيْهَا

رثاء الجمال

(عند شاطئ البحر)

أُنْشِدُ رِثَاءَ الأَمَانِي أَيْهَا الفَانِي
دُنْيَا حِوَالِيهِ يَبْنِيهَا وَيَهْدُمُهَا

وَأَنْدُبُ مَالَ الجَمالِ الضَّاحِكِ الهَانِي
كَالمَوْجِ يَهْدُمُ ما يَبْنِيهِ فِي آنٍ

^٤ معابد الحب.

^٥ يخاطب رفيقة صباه.

^٦ روح الوجود وروح الفن.

وانظر مَصارِعَ أطيافٍ وألوانٍ
لا تَنْتَهِي، وعجيبٌ كُلُّها فاني!
ملءَ الحياة فتدعو موتنا الدَّاني
بناظرٍ زاهلٍ كالْفَجَرِ وِسنانٍ
دُنيا الحياة بِإِغراءٍ وإِذانٍ
منها بفرحة أضواءٍ وألحانٍ
كأنما هي مِنْ أطيافِ نِيسانٍ
أشهى البِيانِ وأحلاهُ لوجداني
تفاني اللَّحْنِ في أوتارِ عيدانٍ
في جُراةٍ ونمّتها رُوح لَهفانٍ
وبات تصويرُها إيمانَ إنسانٍ
يَطوي جَمالَ أمانينا الجَديدانِ؟

اتركُ تفاؤلكَ المَعهودَ أونةً
انظرُ إلى الحُسْنِ في إعجازه صُورًا
كأنما هي أنفاسُ نُردِّدها
مَنْ هذه الغادةُ الهيفاءُ ساحرةً
تَمْشي وفي لونِها الخمرِ ما سَمَحَتْ
تَرى الحياة تناهتْ في تَطْلُعِها
لا يَستقرُّ قَرارٌ مِنْ تَخطرِها
مَنْ هذه غيرَ رمزٍ للحياة حَوَتْ
أنا الذي أَتفانى في مَواهِبِها
كأنما الخالقُ الرِّسَامُ صَورها
فصار يَعبُدُها الخَلْقُ في لَهْفٍ
أهذه سوفَ يَطويها الفَناءُ كَما

* * *

يَدْعُو إليه حنينَ الناسِ وثَّابًا
وأطْلَعَ العُشْبَ بالإيحاءِ جَذابًا
ويشربُ النُّورَ أطيافًا وأكوابًا
إلى الأَنامِ فيمسي الناسُ أَحبابًا
يأبى التَّخاذلَ في مَجراهُ غَلابًا
مَنْ التَّهافتُ تُحيي الناسَ ألبابًا
فكنتُ أَشهدُ أَكوانًا وأربابًا
مَنْ الجَمالِ الذي قد زادَ أنسابًا
وكم يُعذِّبُ هذا الموجُ مَنْ تابًا
كما حَوَتْ رَوْعَهُ المَحبوبَ إرهابًا
والقلبُ مِلءُ خُشوعٍ بالغِ طابًا
مثلي إلى البَحْرِ تَرثي النورَ إِذْ غابًا
مَتاعنا، فإذا المَبكيُّ ما آبا
كَما رأيتُ جَمالَ اليومِ قد ذابًا

وذلكَ الموجُ مَنْ أَبقاه مضطربًا
أحيا صُخورًا بأصداءٍ يُردِّدها
يجري ويمرُّحُ في لَهوٍ وفي قَلَقٍ
تَرنو الحياة بِإحساسٍ يفيضُ بِهِ
والموجُ مهمما تناهى في تَلاطمِهِ
مَشاهدُ الحبِّ في لونٍ وفي صُورٍ
لقد وقفتُ قليلًا في مِباءِها
عوالمُ الفِطْرةِ الأولى بِما جَمَعَتْ
كم يأسُرُ الموجُ في أَصباغِهِ مُهْجًا
زُرُقُ العيونِ حَوَتْ مِنْ رُوحِهِ فِتْنًا
وقفتُ في الشَّاطِئِ المأهولِ في شَغَفِي
والشمسُ في الأفقِ المَهجورِ رانيةً
تَبكي بَنِيها وإن خِلنا أشعَّتْها
حتى تذوبَ بهذا البَحْرِ في غَسَقٍ

* * *

وذلك الرَّمْلُ كم حُسْنِ أطاف به
كم جلسة لي في أفيائه جَمَعَتْ
وكم نعمتٌ قريزًا بالظلامِ كمَا
مُلْكٌ يسُود به الصوفيُّ ما مَلَكْتُ
وأَيُّ دينٍ وإيمانٍ يُقَاسُ بمَا
والبحرُ يزخرُ بالأشواقِ ضائعةً
أَمَّا أنا فأميرٌ عندَ ساحته
ولا أفوتُ عزيزًا مِنْ مناهله
ولا أملُّ مذاقًا مِنْ حلاوته
وصدرها الخافقُ المهتزُّ في جدلٍ
لكلِّ جُزءٍ عباداتٍ أَوْزَعُهَا
والرَّمْلُ يعجبُ مِنْ ناري وَمِنْ ظمئي
وأحسبُ الحُسْنَ مَعْنَى خالداً أبداً
فيقتلُ الليلُ أحلامي وَيَطْرُدُنَا

وكم غَرامٍ، وكم وَجْدٍ، وكم صُورًا!
ما طَافَ في خَلدي الوهَابُ لِلنَّظَرِ
نعمتُ في الأفقِ بالمبثوثِ من شرِّ^٧
حَواسِّه لذةُ الإيمانِ والعِبرِ
في ظُلْمَةِ الليلِ من حُبٍّ ومن خطرٍ؟
كَمَنْ يُنادي حبيبًا لَجَّ في سَفَرٍ!
أعانقُ الحسنَ في طُوعٍ وفي حَفَرٍ
ولا صغيرًا، فَمَا في الحُسْنِ من صِغَرٍ
ولا شَمِيمًا من الأنداءِ والزَّهَرِ
وجيدها النَّاعَمَ الموحِي إلى صُوري
مِنْ لهفَةِ الحبِّ لا تَفْنَى على السَّهَرِ
والنجمُ يضحكُ مني ضحكةَ القَدَرِ!
كالحبِّ في الكونِ لا يَفْنَى على العُصْرِ
ويغتدي الشَّعْرُ مأوى لي من الذِّكْرِ!

غليون الشاعر

(إلى صديقي الشاعر الفنان الدكتور إبراهيم ناجي.)

يا حَبِيبِي! إِنَّ ما نُهديه أَسْمَى مِنْ هَدِيَّةٍ
كُلُّهُ لي ذكرياتٌ وأَناشيدٌ شَجِيَّةٌ
حَبَّذَا الغليونُ مِنْ رَمَزٍ إلى الرُّوحِ النَّدِيَّةِ
دائمُ النَّفْحِ بأحلامٍ إلى نفسي الشَّقِيَّةِ

^٧ يريد النجوم.

شِعْر الدِّيَّوَانِ

رُوحُكَ السَّمْحَةُ عِنْدِي مِنْ مَعَانِي الْأَبْدِيَّةِ
كُلُّ مَا تُهْدِي وَمَا تُنْشِدُ نَجْوَى قَدْسِيَّةِ!

* * *

أُشْعِلُ الْغُلْيُونَ مِنْ نَارِي وَحِيدًا فِي الظَّلَامِ
نَاضِرًا نَحْوَ سَمَاءٍ فِي ضَرَامٍ كَضَرَامِي
خَبَّأَتْهَا غَيْرَ لَمْعٍ فِي نُجُومٍ كَابْتِسَامِي
حُرْقَةُ الدُّنْيَا أَطْلَتْ مِنْ ثُقُوبٍ فِي الْغَمَامِ
كُلُّ مَا فِيهَا جَمِيلٌ هُوَ قَلْبٌ فِي اضْطِرَامِ
وَكَأَنَّ الْخَالِقَ الْفَنَانَ يَشْقَى بِالنَّسَامِي!

* * *

يَا حَبِيبِي! إِنَّ ذَاكَ بِقَلْبِي فِي شَجُونِي
أَنَا وَاللَّيْلُ غَرِيقَانِ بِأَصْدَاءِ الْأَنِينِ
كُلُّ مَا فِي اللَّيْلِ يَسْتَهْوِي إِلَى دُنْيَا الْجَنُونِ
فَإِذَا لِي مَلَجًا فِي حَبِّكَ الْبَاقِي الْأَمِينِ
مُنْشِدًا مِنْ شَعْرِكَ الْعَذْبِ أَفَانِينَ الْفَنُونِ
شَارِبًا أَنْفَاسَ غُلْيُونِي كَأَنْفَاسِ الْفَتُونِ

* * *

يَا حَبِيبِي! هَذِهِ أَمْوَاجُ نَفْسِي فِي الْهَوَاءِ
كُلُّ مَا يَبْدُو دَخَانٌ حِينَمَا يَخْفَى الرَّجَاءُ
كُلُّ أَنْفَاسِي مَنَاجَاةٌ، وَكَمْ ضَاعَ الدُّعَاءُ
هِيَ دُنْيَا كُلُّ مَا فِيهَا غَبَاءٌ فِي غَبَاءِ
آهٍ لَوْ تُدْرِكُ مَا يَعْنِي بَنُوها الشَّعْرَاءُ!
آهٍ لَوْ تَفْهَمُ مِنْ دَقَاتِ قَلْبِي مَا أَشَاءُ!

* * *

حَبِذَا الْغُلْيُونَ مِنْ خِلٍّ إِذَا غَابَ الْخَلِيلُ
سَاهِرًا مِثْلِي زَمِيلًا حِينَمَا مَلَّ الزَّمِيلُ

كَأْسُهُ السُّمُّ كَتْرِيَاقٍ، وَكَمْ سُمٌّ جَمِيلٌ
هَذِهِ دُنْيَا بَنُوهَا قَدْ أَبَاحُوا الْمُسْتَحِيلُ
جَعَلُوا الْحَقَّ ضَلَالًا فَإِذَا الْكُونُ عَلِيلُ
وَإِذَا بِي أَشْرَبُ السُّمَّ كَسْقَرَاطِ النَّبِيلُ!

* * *

أَنْتَ يَا مَنْ كُلُّهُ عَطْفٌ عَلَى وَجْدِي الْأَلِيمِ
أَنْتَ يَا مَنْ يَخْلُقُ الرَّحْمَةَ إِنْ مَلَّ الرَّحِيمِ
يَا صَفِيٍّ وَمُنَادِينِي لِأَجْتَاَزَ الْجَحِيمِ
أَنَا فِي نَارِي كَمَا قَدَّرْتَ أَمْضِي وَأَهِيمِ
وَهِيَ لَمْ تَخْبُ وَلَنْ أَلْقَى سِوَى وَهْمِ النَّعِيمِ
مُحْرِقًا نَفْسِي كَهَذَا النِّجْمِ فِي اللَّيْلِ الْبَهِيمِ!

نفرتيتي الجديدة

(إلى الممثلة الفنانة الأنسة أمينة رزق.)

في ذلك الأَمْسِ الْعَزِيزِ النَّائِي	في جيرة الأمواه والأضواء ^٨
جَلَسْتُ مَلِيكَةً مِصْرَ يَجْبَلُ رَسْمَهَا	لِلْفَنِّ فِي تَمَثُّلِهَا الْوَضَاءِ
مَثَالُ مِصْرَ «تُحْتَمَسُ» الْفَنَّاُنُ فِي	إِبْدَاعِهِ، وَالْفَنُّ فِي الْإِيْحَاءِ
وَمَضَى الزَّمَانُ وَمَا تَكَامَلَ صُنْعُهُ	فَالْفَنُّ عِنْدَ الْحَبِّ جِدُّ مُرَائِي
جَلَسَا وَكَمْ جَلَسَا، فَمَا شَبَعَ الْهُوَى	مِنْهَا، وَمَا كَمَلَ الْمِثَالُ لِرَائِي
وَجَلَسْتُ أَنْتِ تُحَدِّثِينَ حَدِيثَهَا	وَتَحْبِّذِينَ رَوَايَتِي ^٩ وَرَجَائِي

^٨ كان القصر الملكي في تل العمارنة معرضًا للجمال الطبيعي الذي فتن به الملك إخناتون وزوجته الملكة نفرتيتي.

^٩ رواية نفرتيتي، تأليف صاحب الديوان.

فخشيتُ أني لن أتمَّ نظيمَها
روحُ كروحِك كُلُّها نُبْلُ فما
جُبِلْتُ مِنَ الطَّهْرِ الصِّمِيمِ كَأَنَّمَا
وَتَشَبَّعْتُ بِرِشَاقَةِ عُلُوِّيَّةٍ
وَتَجَمَّلْتُ بِمِلَاحَةٍ مِنْ لَوْنِهَا
ما أنتِ إِلَّا رَمْزُ مِصرَ وِنيِلِها
فإذا رَأَيْتُكِ تُحَفِّةً قَدَسِيَّةً
حتى يدومَ لِكِ الحَدِيثِ إِزائِي!
خُلِقْتُ لِغَيْرِ الشَّعْرِ والشَّعْرَاءِ
جُبِلْتُ مِنَ الأَضْوَاءِ والأَنْدَاءِ
كَرِشَاقَةِ النِّجَمِ الحَنُونِ النَّائِي
في سُمْرَةٍ كَجَمالِ هَذَا المَاءِ
وَجَنَى الفَنونِ الحُلوةِ الزَّهْرَاءِ
فالفنُّ أَوَّلُ مُؤْمِنٍ بِنَدائِي!

ديمقراطية الجمال

(في خليج إستانلي)

زعموا الجمالَ تَمَنُّعًا وَتَحَجُّبًا
لم يَدْرِه المَتَنَطِّعونَ، وإِنَّمَا
يا بِنْتَ أَفْرودَيْتَ حُسْنُكَ ماثِلٌ
سَحَرَتْهُ أَمْواجُ الهَواءِ وَكُلُّ ما
تَمْشِينَ عارِيَّةً كَأَنَّكَ شُعْلَةٌ
مِنْ كُلِّ جُزْءٍ نَفْحَةٌ عُلُوِّيَّةٌ
هي خَيْرُ ما تَهَبُّ الحِياةَ لِشاعِرٍ
يا بِنْتَ أَفْرودَيْتَ لا تَتَهَيَّبِي
وَتَحْطَرِّي ظِلًّا لَنَا وَأَشْعَةً
نَهْدَاكِ أَمْ ساقَاكِ ما نَطَقًا سِوَى
مَنْ ذا يَحْجُبُ نَبْعَكَ الحَرَّ الَّذِي
وَهَبَتْهُ كِي يَحْيَا وَيُعْبَدَ بَيْنَنا
أَيَذُوقُكَ البَحْرُ الطُّروبُ مُقْبِلًا
ونَظْلُ نَحْنُ العابِدِيكِ عَلى أَسَى
حينَ الجَمالِ رِشَاقَةُ التَّعْبِيرِ
يَدْرِيه كُلُّ مُغَرِّدٍ بِشَعُورِي
في جِسمِكَ المَتَمَوِّجِ المَسحُورِ
حَمَلَ الهَواءُ مِنَ النَّدَى والنُّورِ
لِلرَّبِّ تُسْتَوْحَى كَوحي الطُّورِ
مَشبُوبَةٌ في قَلْبِ كُلِّ بَصِيرٍ
إِنْ فَاتَها المَوْتى وَلَحْظُ ضَرِيرٍ
وَحُذْيِ الحِياةِ مَجالَ كُلِّ حُبُورٍ
ما كُنَّ غَيرَ عَواطِفٍ وشُعُورٍ
بالشَّعْرِ في لُغَةٍ مِنَ التَّصَوِيرِ
وَهَبَتْهُ أَفْرودَيْتُ لِلتَّقْدِيرِ؟
جِسمًا وروحاَ في مِثالِ الحُورِ
ومُعانِقًا في وِصلِهِ المَبْرُورِ
ما بَينَ جِرمَانٍ وَيَأْسِ صَخُورِ!

في حمى الموج

(عند شاطئ إسبورتنج)

تَدَفَّقُ أَيُّهَا الْمَوْجُ الطَّرُوبُ
يَذُوبُ مِنَ الْأَسَى الدَّفَاقِ حَتَّى
أَعْنِي مِنْ خَرِيرِكَ فَهُوَ طَبٌّ
تَحَجَّرَ كُلُّ مَنْ أَرْجُو رِضَاهُ
تَدَفَّقُ أَيُّهَا الْمَوْجُ الْمُغْنِي
أَعِيشْ بَبِيئَةٍ كَالصَّخْرِ مَوْتًا
أَنْسَتْ إِلَى الْجَمَادِ فِيهِ عَطْفُ
وَأَصْبَحَ لِي الْقَرِيبُ قَرِيبَ مَوْجٍ
فَلِي قَلْبٌ عَلَى أَلَمِي يَذُوبُ
كَأَنَّ أَسَاهُ مَا شَكَّتِ الْقُلُوبُ!
إِذَا مَا خَابَ فِي النَّاسِ الطَّبِيبُ
فَأَيْنَ لِلْوَعْتِي أَيْنَ الْحَبِيبُ؟
فَلِي مَنْ رُوحِ الْعَالِي نَصِيبُ!
وَكَمْ فِي الصَّخْرِ تَحْنَانٌ عَجِيبُ!
وَمَزَّقَنِي الْمَصَاحِبُ وَالْقَرِيبُ
يَدَاعِبُنِي، وَصَادَقَنِي الْغَرِيبُ!

* * *

وَيَا هَذِي الرَّمَالُ وَعَيْتِ نَفْسِي
تَكَادُ النَّارُ تُلْفَظُ مِنْكَ لَفْظًا
أَحْنُ إِلَيْكَ تَحْنَانِي لِأَصْلِي
فَخَلِّينِي إِذْنُ أَفْنَى وَهْمِي
وَعِنْدَكَ يُنْشِدُ الْمَوْجُ الْأَمَانِي
فَنَفْسِي شُعْلَةٌ وَلَهَا لَهَيْبٌ^{١٠}
وَتُطْفِئُهَا الْمِيَاهُ وَلَا تَغِيبُ
وَأَصْلِي فِيكَ جَذَابٌ مَهِيبُ
فَفِيكَ يُبَدِّدُ الرُّوحَ الْكَثِيبُ
وَيَلْتَجِئُ الْمَعَذَّبُ وَالْأَدِيبُ

وداع الشاطئ

(في الإسكندرية)

فَرَعَ التَّمَثِيلُ يَا قَلْبِي وَقَدْ حَانَ وَدَاعِي
مَا مَجَالِي الْحُسْنِ إِلَّا مِنْ تَهَاوِيلِ الْخَدَاعِ

^{١٠} الشعلة: المادة المشتعلة، واللهيب: النار الخالصة من الدخان.

حَظُّهَا لِلْجَهْلِ بِالْحَسَنِ وَلِلْوَهْمِ الْمَطَاعِ
حِينَمَا أَنْتَ غَبِيْنٌ فِي لَهِيْبٍ وَالتِّيَاعِ
أَنْتَ يَا قَلْبِي الَّذِي مَا زَلْتَ فِي حُبِّ مُضَاعِ
أَنْتَ يَا مَنْ خَفَقَهُ كَالْوَحْيِ فِي هَذَا الشَّعَاعِ
أَنْتَ يَا مَنْ يَعْرِفُ الْحُسْنَ كَحِرْمَانِ الطَّبَاعِ
يُحْرَمُ الْحَسَنَ وَيُعْطَى كَالضَّحَايَا لِلْسَبَاعِ^{١١}

* * *

هَذِهِ دُنْيَا الصِّرَاعِ	إِيْهِ يَا قَلْبِي! تَأَمَّلْ!
هُوَ كَالنُّوْرِ الْمُشَاعِ	يُبْدِعُ الْفَنَّانُ لَكِنْ
فِي وَفَاءٍ وَابْتِدَاعِ	خَاسِرٌ مَهْمَا تَفَانَى
فِي نِزَاعٍ وَامْتِنَاعِ	هَذِهِ دُنْيَا جُنُونِ
لَا بَسَّ أَلْفَ قِنَاعِ	كُلُّ مَا فِيهَا غَرِيبٌ
تَنَشَّتْ مِنْ وَهْمِ الْمَتَاعِ	وَكَأَنَّ الْبَحَرَ لَوْ فَتَتْ
لَقَّ وَلَمْ يَجْذِبْهُ دَاعِي!	وَكَأَنَّ الْحَسَنَ لَمْ يُخْ

فِي قِطَارِ الْبَحْرِ

(فِي عَوْدَةٍ مِنَ الْإِسْكَندَرِيَّةِ)

وَطْنَ الْمِفَاتِنِ وَالْفَنُونِ الْأُولَى	وَرَجَعْتُ مُحْرُومًا كَأَنِّي لَمْ أُزَرْ
سَحَرَتْهُ فَتْنَةٌ أَفْرَدِيَتْ طَوِيلًا	حَكَمْتُ عَلَيْهِ كُلِّيْطَرَةً مِثْلَمَا
جَزَعًا أَيْمَمٌ عَالَمًا مَجْهُولًا	فَجَلَسْتُ مُحْزُونًا كَأَنِّي رَاحِلٌ
لَمْنَايَ مِنْ وَطَنِ الْجَمَالِ رَسُولًا	فَإِذَا بِأَفْرَدِيَتْ تَبَعْتُ سُلُوءَ
جَاءَ الرَّبِيعُ مِنَ الشِّتَاءِ بَدِيلًا	مَلَكٌ بِصُورَتِهَا، فَأَقْبَلَ مِثْلَمَا

^{١١} إشارة إلى عهد نيرون.

جلستُ أمامي في تَوْهَجٍ مَلْبِسٍ
جلستُ وفي بَسَمَاتِهَا لَغَةً الهوى
جلستُ وقد عَرَضْتُ نَمَاجَ حُسْنِهَا
وتتابعُ نظراتُها، وكَأَنَّمَا
حتى إذا طَابَ النُّعَاسُ أَطَاعَهَا
نامتُ بأَوْضَاعٍ مَنْوَعَةٍ وقد
فسهرتُ أَحْرَسُهَا كَأَنِّي لَا أَرَى
فإذا الأَنْيَسُ هو الْفَقِيرُ لسلوتي
وإذا أَنَا أَقْضِي سَعَادَةَ رَحَلَتِي
وبسُمرَةٍ تَذُرُّ الْمَسَاءَ أَصِيلًا
والْحُسْنَ تَأْبَى أَنْ تُتَرْجَمَ قِيلًا
نورًا وظلًّا بِالْحَنُوقِ ظَلِيلًا
أَوْحَتْ بِهَا الْمَأْمُولَ وَالْمَجْهُولَ
سَمَحًا وَإِنْ كَانَ النُّعَاسُ بِخِيلًا
تَخَذْتُ مِنَ النُّومِ الْغَرِيبِ زَمِيلًا
إِلَّا يَ أَوْلَى أَنْ يَصُونَ جَمِيلًا
وإذا الْخِيَالُ يُذِيبُهُ تَقْبِيلًا
في الْوَهْمِ لَا خُلُوقًا وَلَا مَشْغُولًا!

في حفلة ذكر

سمعتُ صَدَى كَنْهَيْقِ الْحَمِيرِ
فَرُحْتُ لِأُبْحَثَ عَنْ سِرِّهِ
إِلَى حَيْثُ يَنْتَفِضُ الرَّاقِصُونَ
وكلُّ يَدُورٍ عَلَى لَوْلَبٍ
يَسِيلُ اللَّعَابُ وَيَدُوي الصِّيَاخُ
جُنُونٌ وَكَمْ فِي جُنُونِ فَنُونٍ
فَقُلْتُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالُوا: جَلَالٌ
فسبحان رَبِّي يُعَدُّ الْجُنُونُ
ولكنَّه آدَمِي الْمِثَالِ
إِلَى مَسْجِدٍ مُفْعَمٍ بِالضَّلَالِ
بمِلءِ الصَّفُوفِ انْتِفَاضِ الْخَبَالِ
وكلُّ بَوْصَمَتِهِ لَا يُبَالِي
وتُلَوَّى الرِّقَابُ بِأَيِّ اخْتِيَالِ
وكم من وَجُودٍ شَبِيهِ الْمَحَالِ
من الذِّكْرِ لِلَّهِ رَبِّ الْجَلَالِ
دُعَاءٌ لَهُ بَلْ أَجَلٌ ابْتِهَالِ!

الجمال النبيل

ولم أَرِ فِي الْجَمَالِ الْعَذَبَ مَرَّأَى
رَأَيْتُكَ وَالْحَيَاةَ لَدَيْكَ حُلْمٌ
كَمَرَأَى النَّبْلِ فِي الْجِسْمِ الْجَمِيلِ
وَكَمْ فِي الْحُلْمِ مِنْ مَعْنَى نَبِيلِ

ورُوحًا في تَبَسُّمِهِ البَلِيلِ
كُرُوحِ الفَجْرِ في جِسمِ الأَصِيلِ
مَعَانِي الضَّوءِ وَالظِّلِّ الظِّلِيلِ
وقد خَلَقَا كخُلُقِ المستَحِيلِ
كوقَعِ النُّورِ في اللَّحْظِ الكَحِيلِ
إِلَيْكَ بِنَظَرَةِ الرَّاجِي العَلِيلِ
وكم سَقَمٍ مِنَ الحُسْنِ البَخِيلِ
بأَصْدَاءِ الجنونِ وبالعَوِيلِ
كَأَنَّ الثَّأَرَ رَدٌّ لِلْجَمِيلِ!
وَيَنْسَى لَهْفَةَ العَمْرِ الطَوِيلِ؟
هَوَاكَ، فَيَا مَنَى رُوحِي أَتِيلِي!
عَيِيْتُ مِنَ الظُّمَاءِ، وَلَا تَمِيلِي
كَمَا يَمْضِي العَزِيزُ عَنِ الدَّلِيلِ
وَلَنْ يَنَائِيَ الأَصِيلُ عَنِ الأَصِيلِ
لَمَّا حُجِّبَتْ عَنِ حُلْمِي المَثِيلِ!

وجِسمُكَ شَفَّ لِي مَبْنَى وَمَعْنَى
يَلُوحُ نَدَاهُ بِالإِشْرَاقِ لُطْفًا
ذَرِينِي أَرشِفُ السَّاعَاتِ مِنْهُ
فَمَا الدُّنْيَا سِوَى نُورٍ وَظِلٍّ
وَقَدْ جُمِعَا لَدَيْكَ عَلَى انْسِجَامٍ
ذَرِينِي نَاضِرًا فِي غَيْرِ رُشْدٍ
فَكَمْ مِنْ نَظَرَةٍ فِيهَا شِفَاءٌ
ذَرِينِي فَالحَيَاةُ تَفِيضُ حَوْلِي
وَتَنْشُدُ غَايَةَ الثَّارَاتِ عِنْدِي
أَيَسَامُ حَسَنُكَ الوَهَّابُ شَوْقِي
نَشَأْتُ عَلَى هَوَاكَ كَأَنَّ رُوحِي
أَقِيلِي عَثْرَةَ الظَّامِي، فَإِنِّي
وَلَا تَمْضِي جَفَاءً أَوْ دَلَالًا
فَأَنْتِ أَنَا بِأَنْفَاسِي وَرُوحِي
وَلَوْ قَاطَعَتِ تَقْبِيلِي وَوَصَلِي

الينبوع

يَا جَمَالَ الرُّوحِ فِي الجِسمِ الرَطِيبِ
هَذِهِ غَايَاتُ آمَالِ الأَرِيبِ!
يَدَّعِي بُغْضًا لِمَا أَهْوَى لَدَيْكَ
فَإِذَا الْإِنْعَامُ مِنْكَ وَإِلَيْكَ
أَنْتَ يَنْبُوعُ الرِّجَاءِ الدَّائِمِ
أَنْتَ وَمَضٌ لِلشَّرِيدِ الهَائِمِ!
يَا شُعَاعَ اللَّهِ فِي طَيْفِ الجَسَدِ
وَعِزَاءٍ عَنْ حَيَاةٍ تُفْتَقَدُ!

يَا جَمَالَ النُّورِ فِي الظِّلِّ الحَبِيبِ
هَذِهِ الدُّنْيَا لِأَحْلَامِ الأَدِيبِ
أَيُّهَا الْيَنْبُوعُ كَمْ سَاعٍ إِلَيْكَ
كُلُّ مَا يَرْجُوهُ مَوْقُوفٌ عَلَيْكَ
أَنْتَ سَحَرٌ غَامِضٌ لِلْعَالَمِ
أَنْتَ مُوسِيقَى الخُلُودِ البَاسِمِ
أَيُّهَا الْيَنْبُوعُ يَا رَمَزَ الأَبَدِ
كَمْ مَعَانٍ فِيكَ كَادَتْ لَا تُحَدُّ

إِنَّمَا أَرُونَا إِلَيْكَ فِي خُشُوعِي
أَنَا لَحْنٌ بَيْنَ أَطْيَافِ الرَّبِّيعِ
أَنَا أَحْيَا حِينَمَا أَجْنِي رِضَاكَ
حِينَمَا لَبَيْتُ مَسْحُورًا نِدَاكَ
كُلُّ هَمِّي فِي حَيَاتِي يَسْتَجِيلُ
حِينَمَا أَرَوَى مِنَ النَّبْعِ النَّبِيلُ
مَا ابْتَسَامِي غَيْرَ لَوْنٍ مِنْ دُمُوعِي
مِنْ طُيُورٍ وَغَدِيرٍ وَزُرُوعِ!
حِينَمَا جَسَمِي وَرُوحِي عَانَقَاكَ
فَإِذَا بِي لَا أَرَى الْعَيْشَ سِوَاكَ!
حِينَمَا أَخْشَعُ لِلْفَنِّ الْأَصِيلُ
ذَاكَ نَبْعُ الْحَبِّ فِي الْجَسْمِ الْجَمِيلِ!

قبلة الابتسام

وَأَتَى الْوَدَاعُ فَرَحْتُ أَلْتَمُ رَاحَةً
وَتَبَسَّمْتُ فَجَذَبْتُهَا وَوَهَبْتُهَا
فَكَأَنَّمَا قَبَّلْتُ إِذْ قَبَّلْتُهَا
وَكَأَنَّ رُوحِي قَدْ حَكَتْهَا بِسَمَةِ
أَشْبَعْتُهَا مِنْ مُهَجَّتِي تَقْبِيلًا
فِي ثَغْرِهَا شَغَفًا يَعِيشُ طَوِيلًا
مَعْنَى التَّبَسُّمِ حَالِيًا وَنَبِيلًا
لَمَّا رَشَفْتُ حُبُورَهَا الْمَبْذُولًا

التجدد

مَنْ كَانَ يَشْعُرُ دَائِمًا بِشُعُورِي
وَيُصَاحِبُ الْأَجْرَامَ فِي حَرَكَاتِهَا
وَجَدَ التَّجَدُّدَ دَائِمًا إِلْفًا لَهُ
وَرَأَى الْحَيَاةَ بِمَا تُجَدِّدُ دَائِمًا
تُوجِي وَتُوجِي دَائِمًا، فَإِذَا الَّذِي
لَوْ أَنْصَفَ الشُّعْرَاءُ مَا قَنِعُوا بِمَا
كَمْ فِي الْحَيَاةِ مُجَدِّدٌ لَا يَنْتَهِي
لَا مُوَا شَبُوبٌ عَوَاطِفِي وَتَخَيُّلِي
وَأَنَا الْخَجُولُ أَمَامَ مَا أَنَا نَاطِرُ
فِي اللَّيْلِ أَوْ فِي الْفَجْرِ أَوْ فِي النُّورِ
وَيَجُوزُ عَيْشُ النَّاسِ كَالْمَسْحُورِ
فِي النَّفْسِ أَوْ فِي الْعَالَمِ الْمَعْمُورِ
أَسْمَى مِنَ الْإِفْصَاحِ وَالتَّعْبِيرِ
أَوْحَتْهُ بَعْضُ جَدِيدِهَا الْمَقْدُورِ
خَلَقُوهُ مِنْ شَعْرِ وَمِنْ تَصْوِيرِ
وَلَكُمْ حَقِيرٌ وَهُوَ غَيْرُ حَقِيرِ
وَتَدْفُقِي بِالشَّعْرِ مِلَاءَ شُعُورِي
مِنْ كُلِّ مُوَجٍ بِالْغِ التَّأْثِيرِ

فِيهِزُنِي هَزًّا، وَلَكِنِّي الَّذِي
وَأَكَادُ أَوقِنُ أَنَّ مَنْ هُوَ لِائِمِّي
إِنَّا بَكُونُ كُلُّهُ شِعْرٌ بَلَا
قَدْ أَفْجَمَ الْإِنْسَانُ حِينَ تَجَاوَبَتْ
وَأَبَيْتُ صَمَّتِي، فَالْمَمَاتُ مَتَى وَفَى
مَا أَعْجَبَ الْبُكْمَ الَّذِينَ اسْتَعَذَّبُوا
مَهْمَا أَجَدْتُ أَحْسَّ بِالتَّقْصِيرِ
إِمَّا ضَرِيرٌ أَوْ شَبِيهُ ضَرِيرِ
حَصْرِ، وَكَمْ مِنْ عَاجِزٍ مَغْرُورِ
أَمْوَاجُ هَذَا الْمَاءِ مِلَاءَ خَرِيرِ
سَيْفِي دِيُونَ حَدِيثِي الْمَنْشُورِ
خَرَسَ الْقَدِيرِ كَهَيْكَلٍ مَقْبُورِ!

زهر الحب

(للننان الفرنسي هنري مانويل.)

قَفِي لِلْحَبِّ أَنْتِ وَحَدَّثِينَا
حَدِيثُ كُلِّهِ شَرَكُ حَبِيبٍ
كَأَنَّ جَمَالَكَ الْمَعْبُودَ صَفْوُ
تَمَلِّينَا الْمَفَاتِنَ مِنْهُ شَتَّى
حَدِيثَ الزَّهْرِ يُشْبِعُنَا فُنُونًا
نَطَاوَعُهُ فَيَقْهَرُنَا فُتُونًا
مِنْ الْجَنَّاتِ وَهَابًا ضُنِينًا
فَأَطْمَعَنَا وَإِنْ كُنَّا كُفِينَا!

* * *

عَرَضَتْ لَنَا تَقَاسِيمَ الْجَمَالِ
تَلَأُلًا بِالْهَوَى الْقُدْسِيِّ بَيْنَا
فَأَبْصَرْتُ النِّجَاةَ لِكُلِّ عَانٍ
وَإِزْهَارَ الْفُنُونِ بَعْصِرٍ جَدِّبٍ
وَإِشْعَاعَ الْحَقِيقَةِ وَالْخِيَالِ
تَدَفَّقَ بِالتَّجَاوُبِ لَابْتِهَالِي
وَدَوَّقْتُ الْحَنَانَ لِكُلِّ سَالٍ
بَلَا عَوْضٍ، وَأَحْلَامَ الْأَوَالِي!

* * *

تَغْلَغَلَ فِي دَمِي وَصَمِيمِ نَفْسِي
سَوَاءٌ كُنْتُ جَسَمًا أَمْ خِيَالًا
فَإِنَّكَ كَالنَّجُومِ تُرَامُ ضَوْءًا
وَمَا ظَمَمِي وَمَا نَظَرِي إِلَيْهَا
شُعَاعُ الْحُسْنِ مَمْتَزَجًا بِحُسِّي
أَثِيرًا تَبَاعَدَ دُونَ لَمْسِي
وَسِرًّا حَائِرًا وَغَرِيبَ هَمْسٍ
سَوَى شَغَفِ التَّبَتُّلِ وَالتَّحْسِّي!

* * *

وَقَفْتِ وَشَعْرُكَ الذَّهَبِيُّ زَاهٍ
وَجِسْمُكَ كَالرَّسَالَةِ مِنْ نَبِيٍّ
فَتَحْفَرُنَا إِلَى أَسْمَى الْأَمَانِي
فَوَاكِهِهَا قُطُوفُ دَانِيَاتٍ

كَتَاجِ الشَّمْسِ أَوْ كَيْدِ الْإِلَهِ
وَقَدْ بَلَغَتْ قَدَاسَتُهَا التَّنَاهِي
إِذَا حَفَرْتَ إِلَى أَشْهَى التَّلَاهِي
لِإِمْتِنَاعِ الْعَوَاطِفِ وَالشَّفَاهِي

* * *

نَعَمْ، مَرَّاكَ عَنَّا فِي الْحَيَاةِ
سَوَاءً فِي نَفُوسٍ أَوْ نُجُومٍ
وَهَلْ غَيْرُ الْجَمَالِ حَدِيثُ رَبٍّ
نُقِشَتْ فَكَنتِ زَهْرَ الْحَبِّ جَسْمًا

يَبْتُ حَنَانَهَا فِي النِّيرَاتِ
وَفِي زَهْرِ الرِّيَاضِ الْعَاطِرَاتِ
وَنَشْوَةِ نِعْمَةٍ وَسُموُّ ذَاتٍ؟
وَلَكِنْ أَنْتِ رُوحُ الْكَائِنَاتِ!

من نافذة القطار

هذي الحقولُ تلوحُ لوحةً راسمٍ
فالقطنُ يضحكُ حينما الأزُرُ ازدهي
أَمَمْ مِنَ الْغَرَسِ الْعَجِيبِ عَرْضُهَا
جُمِعَتْ عَلَى جَدِّ اخْتِلَافٍ بَيْنَهَا
وَأَفْتِ لَتَلْبِيَةِ الْحَيَاةِ وَقَدْ دَعَتْ
طَغَتْ الْحَضَارَةُ، وَالْحَضَارَةُ إِنَّ طَغَتْ
فَالنَّاسُ بَيْنَ تَنَابُذٍ وَتَخَاذُلٍ
فِي حِينِ هَذَا النَّبْتُ يَضْحَكُ فِي غَنَى
وَبَدَا الصَّغِيرُ الْجَدُولُ الْجَارِي كَمَا
فَغَبَطْتُهُ وَالْحَوْرُ قَامَتْ حَوْلَهُ
وَالشَّمْسُ تَلْتَمِهُ فَتَحَسَّبُ أَنَّهُ
وَتَرَى السَّوَائِمَ فِي تَحَرُّرٍ سَرَجَهَا
تَمْضِي مَنْعَمَةً وَتَنْسَى عَيْشَهَا
وَالنَّاسُ تَحْرِمُهَا الْخُلُودَ كَأَنَّمَا

كَالصَّحْبِ كُلِّ بِاسْمٍ جَذَلْنَا
نَضْرًا، وَدَاعَبَ ثَالِثُ إِخْوَانَا
بَيْنَا الْقَطَارُ مَسَافِرُ لَهْفَانَا
وَالْمَرْءُ يَبْغِضُ خِلَّةَ الْإِنْسَانَا
إِنَّ الْحَيَاةَ تَوَلَّفُ الْخِلَانَا
أَضْحَى الْمَلَاكُ بِرُوحِهَا شَيْطَانَا
يَتَسَابِقُونَ إِسَاءَةً وَطِعَانَا
مَتَجَاوِرًا مَتَالَفًا فَرَحَانَا
تَجْرِي الطُّفُولَةُ فَرَحَةً وَحَنَانَا
كَالْأَهْلِ تَحْرُسُ جِسْمَهُ الْعَرِيَانَا
يَجْرِي بَنُورٌ مَاؤُهُ جَرِيَانَا
بَيْنَ الْحَقُولِ تَفُوقُنَا إِيْمَانَا
نَسِيَانَهَا الْإِنْسَانُ وَالِدِيَانَا
وَجَدَّ الْخُلُودَ لَجْنِسِنَا إِحْسَانَا!

* * *

ما أعجبَ الخطراتِ تجري حُرَّةً
ولو أنني سَجَلْتُ جُلَّ خواطري
مثلَ القطارِ تسابقًا ورهانًا
شملتُ بوثبٍ جُموحِها الأكوانًا!

طالب القوت

(مهداة إلى زعيم من جبابرة التصنع.)

حييتُ حتى رأيتُ مَجْدًا
كم بائعِ رأيهِ رخيصةً
ومُسْرِفٍ في اكتسابِ مدحٍ
يُمَلِّقُ الشَّعْبَ كي يُعَلِّي
يهابُ نقدًا لذي أناةٍ
ويزْدَهي في شموخٍ وهمٍ
ويُرْسِلُ الصُّحُفَ لاعناتٍ
أحسنَتِ يا طاعني ويا مَنْ
نبغتَ حقْدًا أضعافَ ما قد
صنعتَ ما كنتَ تزدرِيه
أتشترِي الذَّمَّ: ذمَّ مثلي
أنا الَّذِي أَشْتَهِي حَيَاتِي
أأنتَ في الحقِّ مَنْ يراني
أأصبحَ الفضلُ رهنَ حربٍ
صدقت! ما أنتَ أَهلُ لوِّمٍ
يُذالُ، والضَّيْمَ عُدَّ مَجْدًا!
وأَيُّ رأيٍ يُباعُ نقدًا؟
وعندي الألعبانُ أَجْدَى
ولو هَوَى الشَّعْبُ أو تَرَدَّى
وأَيُّ حُرٍّ يهابُ نقدًا؟
وكبرياءٍ لمن تَصَدَّى
مَنْ عَدَّهُ صاحبًا وندًا
ظننْتَهُ نابغًا وفردًا!
نبغتَ بين الأنامِ حَمْدًا!
فبيئسَ ما قد صنعتَ عمدًا
أنا الَّذِي لا أُسيءُ وغدا؟!
تسامحًا شاملًا ورفدًا؟!
في السَّلمِ مُستَسَلِمًا وعبداً؟!
وبات صابًا ما كان شهدا؟!
فطالبُ القوتِ ما تَعَدَّى!

جناية الأجيال

مهما سخطت فلا تجبُن إذا نظرت
 دُنْيَاكَ هذِي كَمَلْهَى أَنْتَ تَجْهَلُ
 قد حُبَّتْ عَدَسَاتُ الدَّهْرِ^{١٢} فِي حُجْبٍ
 طَوْرًا تُمَثِّلُ فِي أَمْنٍ وَفِي دَعَا
 فَلَمْ الْحَيَاةَ لِكُلِّ فَصْلُهُ، وَلَهُ
 وَالْخَالِقُ الْمُخْرِجُ الرِّسَامُ فِي فَرْحٍ
 كَأَنَّمَا نَحْنُ أَوْهَامٌ وَتَسْلِيَةٌ
 لَا يَنْتَهِي ذَلِكَ التَّمَثِيلُ فِي صُورٍ

لك الحياة بروح الناقد الدَّارِي
 وما خُصِصَتْ بِهِ مَا بَيْنَ أَدْوَارٍ
 وَأَنْتَ بَيْنَ خِيَالَاتٍ وَأَقْدَارٍ
 وَتَارَةً أَنْتَ ذَاكَ الْمَاخِطُ الزَّارِي
 نَصِيْبُهُ بَيْنَ إِكْبَارٍ وَإِصْغَارٍ
 بِمَا تُمَثِّلُ وَهُوَ النَّاضِرُ الْقَارِي!
 تَشْوِقُهُ بَيْنَ أَطْيَافٍ وَأَنْوَارٍ
 وَكَمْ يُجَدِّدُ أَدهَارًا بِأدهَارٍ!

أرفيوس ويورديس

(كان أرفيوس ابن الملك إيجرس — ملك تراقيا — ذا مواهب خارقة في عزفه الموسيقي كَأَنَّ فِي لَوْرِهِ صَوْتَ الْأُلُوهَةِ، وَلَا غَرَوْ فَقَدْ كَانَ ذَلِكَ اللَّوْرُ مَنَحَةً مِنْ أَبُولُو — إِلَهَ الْفُنُونِ وَالشَّعْرِ خَاصَّةً — فَاسْتَطَاعَ بِقُوَّتِهِ الْخَارِقَةِ أَنْ يَجْتَذِبَ مَعْشُوقَتَهُ يورديس الْفَاتِنَةَ مِنْ مَعْتَصِمِهَا الْجَبَلِيِّ. وَلَكِنَّهُ — كَكُلِّ فَنَّانٍ أَصِيلٍ — لَمْ يَكُنْ رَاضِيًا عَنْ نَجَاحِهِ الْفَنِيِّ، وَتَطَلَّعَ إِلَى أَقْصَى غَايَاتِ الْكَمَالِ، فَكَانَ يَلْجَأُ إِلَى الْغَابِ يَسْتَوْحِي الطَّبِيعَةَ كُلَّ جَدِيدٍ جَمِيلٍ مَعْتَمِدًا عَلَى سَمْعِ زَوْجَتِهِ يورديس، وَعَلَى ذَوْقِهَا الْفَنِيِّ فِي نَقْدِهِ، وَكَانَتْ هِيَ تَرَى الْخَطَرَ عَلَيْهَا فِي غِيَابِهِ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَشَأْ تَثْبِيْطَ هِمَّتِهِ حَتَّى يَبْلُغَ مَشْتَهَاهُ الْفَنِيِّ الْبَعِيدَ، إِلَى أَنْ أَحَسَتْ أَخِيرًا بِالْخَطَرِ الدَّاهِمِ مِنْ شَغَفِ الْأَمِيرِ أَرَسْتِيُيُوسِ بِهَا فَهَرَبَتْ إِلَى الْغَابِ، وَمَا أَحَسَّ هَذَا هُرُوبَهَا حَتَّى أَخَذَ يَطَارِدُهَا، وَلَكِنْ أَفْعَى عَضَّتْهَا فِي قَدَمِهَا أَثْنَاءَ جَرِيهَا فَوَقَعَتْ مَيِّتَةً. وَرَأَاهَا أَرَسْتِيُيُورْسُ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ، فَعَادَ يَعْضُّ أَصَابِعَ النَّدَمِ ... ثُمَّ وُفَّقَ أَرَفْيُيُوسُ إِلَى لَحْنٍ رَائِعٍ فَعَادَ فَرَحًا لِيَعْزِفَهُ أَمَامَ زَوْجَتِهِ، فَإِذَا بِهِ يَجِدُهَا شَبَهَ نَائِمَةٍ فِي طَرِيقِهِ، فَحَاوَلَ إِيقَازَهَا بِلَحْنِهِ الْجَدِيدِ السَّاحِرِ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَسْتَيْقِظْ، وَحِينَئِذٍ أَدْرَكَ أَنَّهَا مَيِّتَةٌ، فَهُوَ يَقْبَلُ

^{١٢} إشارة إلى عدسات الكامرا في مراسم السينما.

جسمها القدسي في جنون من الحزن ... ثم شعر أنه لا ملاذ له سوى الالتجاء إلى بلوتو وبرسفون، مليكي مملكة الموت؛ ليردًا إليه حبيبته. فذهب في جنونه، وكلُّ عدته لوره وألحانه الساحرة التي تأثّر منها الصخر فتفتّح لها، كما تأثّر منها سربروس حارس مملكة الموت فلم يعترض سلوكه إلى داخلها، وتأثّر منها بلوتو وبرسفون — ولكلّ منهما صلات سابقة بالأرض وگرامها — واستمعا إلى سؤاله، وهو الرجوع بمحبوبته يورديس إلى حياته الأرضية، فأجاباه بشرط ألاّ يحدثها، ولا يلتفت إليها حتى يجتاز ظلال مملكة الموت، ولكنه في شغفه نسي هذه النصيحة، فكانت العقبي استحالة محبوبته يورديس إلى خيال أسيف عاتب النظرات وما لبث أن افتقدها ... وعاد يحاول مرة أخرى أن ينالها، ولكن على غير جدوى، فخرسها إلى الأبد، وعاش ليزيب في الألحان نجوى روحه الحزين).

عَرَفَ الحَيَاةَ صَبَابَةً وَنَشِيدًا	فَمَضَى يَبْتُ جَمَالَهَا تَغْرِيدًا
وَاسْتَصَحَبَ اللُّورًا ^{١٣} كَانَ خُيُوطُهَا	تَسْتَنْطِقُ الدُّنْيَا هَوًى وَنَشِيدًا
لِمَ لَا وَقَدْ أَهْدَى «أَبُولُو» وَحْيَهَا؟	لِمَ لَا وَقَدْ جَعَلَ الْفُتُونُ فَرِيدًا؟
سَحَرَ الْأَنَامَ بَعَزْفِهِ، وَلَطَالَمَا	بِالْعَزْفِ قَدْ جَعَلَ الْأَنَامَ عَبِيدًا
وَأَبَى الْغُرُورَ بَقْنَهُ وَفُنُونَهُ	مُسْتَوْحِيًا فَنًا أَجَلَ بَعِيدًا
فَمَضَى إِلَى الْغَابَاتِ يَخْطِفُ وَحْيَهَا	نُورًا وَظِلًّا شَائِقًا مَمْدُودًا
وَيَصُوغُهُ لُغَةً الْحَنَانِ عَجِيبَةً	فَيَنَالُ مِنْ إِعْجَازِهِ التَّوْحِيدَا
وَتُطْيِعُهُ الْمُهْجُ الْعَصِيَّةُ بَعْدَمَا	كَانَتْ تَعَاثُ الطُّوْعَ وَالتَّقْيِيدَا

* * *

ما «أرفيوس» سوى الألوهة في لغى	للحن، واللحنُ الوجودُ الباقي
تمضي النجوم به على دَوْرَانَهَا	وَكأنَّ مِنْهُ طَبِيعَةُ الْخَلْقِ!
يَأبَى الْقِنَاعَةَ، فَالْقِنَاعَةُ مَيَّةٌ	لِلْفَنِّ، بَلْ يَعْتَزُّ بِالإِغْرَاقِ
كُلُّ الْوُجُودِ مُوقَّعٌ بِجَمَالِهِ	حَتَّى الْهَوَاءُ وَخَافِقُ الْأَوْرَاقِ

^{١٣} اللّورا معربة من اليونانية.

ما في الحَيَاةِ إذا وعيتَ كبيرةً
اللَّحْنُ أَبَدُهَا وسوف يُمِيتُهَا
مَنْ فَاتَهُ استيعَابُهَا أو فَهَمُهَا
فهو البعيدُ عن الحياةِ وَسَرَّهَا

وصغيرةً إِلَّا بلحنٍ راقٍ
كتجدُّ الأحلامَ والأشواقِ
بشعوره المتوثَّبِ الدَّفَاقِ
وهو الجديرُ لذاك بالإشفاقِ!

* * *

نال العزيزةَ «يُورديس» بفنِّه
أصغَتْ إلى اللحنِ الشَّهِيِّ فصَادَهَا
جاءَتْ مِنَ الجبلِ الأشمِّ مُطِيعَةً
لكنَّه لم يَرْضَ حَتَّى نَصَرَهُ
واشتاقَ أَبْعَدَ مِنْ تَخِيلِ فنِّه
سحرته أحلامُ العباقرَةِ الألى
نشدَ التَّنَاهِي في الجمالِ بفنِّه
ومَضَى يجوب الغابَ يَسْتَوِجِي به

قَبْلًا وكانت في مَلَاذِ جبالٍ
والفنُّ لا يَرْغَى إِبَاءَ جمالٍ
وهي المِثَالُ بحُسْنِها المتعالِي
ولو أَنَّهُ قد عُدَّ شَبَهَ مُحالٍ
ورَأَى خيالًا فوقَ كُلِّ خيالٍ
خلقوا مثلاً بَزَّ كُلَّ مثالٍ
وأحسَّ نقصًا عندَ كُلِّ كمالٍ
آيَ الفنونِ بروحه الجَوَّالِ

* * *

لم يَدِرْ حينَ مَضَى مَخَاطَرَ حَظِّه
لم تَرْضَ إِلَّا أَنْ يُحَقِّقَ حُلْمَهُ
رشفَ النَّدَى والضوءَ والظِّلَ الذي
وأحالَ ما يَهْوَاهُ لحنًا معجزًا
لكنَّ «أرستِيويُس» لم يرحمَ هَوَى
ورأته يُزْمَعُ خطفها عَمْدًا كَمَا
ريعتُ فلم تَرَ مَلَجًا لنجاتِهَا
ومَضَى يُتَابِعُهَا فَأَنقَذَهَا الرَّدَى

وغَدَتْ تُحَاذِرُ «يُورديس» هُمُومَهُ
في الغابِ حيثَ رَأَى النَّشِيدَ نعيمَهُ
يحنُّ عليه كَأَنَّ مِنْهُ نَسِيمَهُ
والليلُ مُصْغٍ لا يَفُكُ نَجُومَهُ
لَهُمَا، وكم فَقَدَ الغرامُ رحيمةَ
خَطَفَ الجَرِيحُ المَسْتَنَارُ غريمَهُ
إِلَّا الهُرُوبَ وما رأتَ تسلِيمَهُ
والموتُ يُنْقِذُ خِلَهُ وخصِيمَهُ

* * *

سَقَطَتْ بعضُةً أفْعوانِ خاتِلِ
وَأَتَى «أرستِيويُس» يَحْسِبُهَا هَوْتُ
ومَضَى بِلُوعَتِهِ يَعُضُّ بنانَهُ

في حينِ تَهَرَّبُ مِنْ مُحِبٍّ خَاتِلِ
أثرَ العناءِ فذاقَ هَمَّ القاتِلِ
ويُئِنَّ في أَلَمِ المحبِّ الغافلِ

وكأنما قد عادَ عودَ مُقاتِلٍ
مَهما يُكفِّرُ عن ذُنُوبٍ عُقُوبَه
ماتتْ فأيتَمتْ النَشِيدُ فَرُوحُها
كانت حَبِيبَةً «أَرْفِيوسَ» وسمَعَه
واللَّحْنُ إن لم يَلِقْ سَمْعًا واعيًّا
لِغَناهُ ضاعَ ومات مِيتَةً عاطِل!

* * *

سَخَتِ الطَّبِيعَةُ والسَخاءُ بذاتِها
فإذا تَفَنُّنُ «أَرْفِيوسَ» مِثالُها
بَلَغَ الكَمالَ به وعادَ كأَنه
وكانَ إكسِيرَ الحِياةِ بلحنِه
فإذا بَجَّتْ «يُورديسَ» أَمامَه
فأَطلَّ من فَرَجٍ عَلَیْها عازِفًا
لكنَّها لم تُسَتَثِّرْ بنَشِيدِه
فرأى المَماتِ مُروِّعًا مُتَكَبِّرًا

* * *

غَلِبَتْ مَشايعِرَ «أَرْفِيوسَ» شُجُونُه
فاختارَ مَمْلَكَةَ الرَّدَى لِتَصونِه
لَمَ لا وفيها «يُورديسَ» مَقِيمَةً
فَمَضَى وَكُلُّ قَواهِ حِيلَةً عَزَفِه
فانشَقَّ صَخَرٌ من فَتونِ نَشِيدِه
وتَدَفَّقَ النَغَمُ الحَنونُ إلى مَدَى
وإذا «سِرْبَرُوسُ» الرَّقِيبُ مَخْذَرٌ
وأَهابَ يَنْشُدُ «يُورديسَ» لَعِيشَه

* * *

جَارَى «بلوتو» «برسفون» بَمَنْحِهِ
أُمْنِيَّةٌ هِيَ بِنْتُ حُبٍّ رَائِعٍ
لَكُنَّمَا اشْتَرَطَا الصُّمُوتَ بَعُودِهِ
فَمَضَى يُحَاذِرُ مِنْ حَدِيثِ فَوَادِهِ
فَأَعَادَ نَظْرَةً وَالِهِ مَتَهَالِكِ
فَأَضَاعَ مَنْحَةَ «يورديس» لِعَيْشِهِ
نَظَرْتُ إِلَيْهِ بِكُلِّ مَا يَعْنِي الْهُوَى
وَاحْتَالَ ثَانِيَةً بَلَا جَدْوَى لَهُ
أُمْنِيَّةٌ هِيَ كُلُّ غَايَةِ رُوحِهِ
وَلَطَالَمَا عَرَفَا الْغَرَامَ بَجُرْجِهِ
حَتَّى يَعُودَ مِنَ الظَّلَامِ لُصْبُجِهِ
وَفَوَادُهُ يَأْبَى مَوَانِعَ نُصْحِهِ
مَتَحَدَّثٍ بِغَرَامِهِ وَبَلْفَجِهِ
وَعِدَا خِيَالًا مَا أُنِيلَ بَفَتْحِهِ
مِنْ عَتْبِهِ أَوْ لَوْمِهِ أَوْ قَدْحِهِ
فَأَذَابَ فِي الْأَلْحَانِ نَجْوَى رُوحِهِ!

عاهل العرب

(رثاء الملك العظيم فيصل الأول).

هَكَذَا هَكَذَا شَعُوبٌ تَيَّتَمَ!
رُزُونَا بِالْعَظِيمِ «فِيصَلٍ» لَا يُحَدِّثُ
عَلَمٌ كَانَ لِلْعُرُوبَةِ إِيْمَا
قَدْ نَمَتَهُ الْحُرُوبُ وَالْفَتْحُ وَالْبَأْسُ
وَالصَّرِيحُ الصَّرِيحُ مِنْ رُوحِهِ الْحَرِّ
الزَّعِيمُ الْجَرِيءُ، الْفَاتِحُ الْغَازِي
بَطْلُ الثَّوْرَةِ الَّتِي لَمْ تَزَلْ تُحَدِّثُ
بَطْلُ السَّلَامِ وَالْمَعَارِكِ، سَيِّدُ
جَدَدِ الْمُلْكِ مِنْ عَلَى آلِ عَبَّاسٍ
كَمْ تَرَامَتْ عَلَيْهِ أَحْدَاثُ أَعْدَائِهِ
وَتَجَنَّى عَلَيْهِ أَقْصَى عَدُوِّهِ
وَإِذَا بَابِنِهِ الْمَرْجَى الْمُفْدَى
وَإِذَا عَالَمُ الْعُرُوبَةِ وَثَا
أَيُّهَا الْمَوْتُ سَاءَ غُنْمُكَ مَغْنَمُ!
صَرَ فِي الْخَطْبِ، إِنَّمَا الرُّزْءُ أَعْظَمُ
نَا وَذُخْرًا وَعِزَّةً تَتَجَسَّمُ
سُ كَمَا قَدْ نَمَاهُ مَجْدٌ تَقْدَمُ
ةٌ فِي بَيْئَةٍ بِهَا الْحَرُّ يَنْعَمُ
أَبُو «غَازٍ»، الْمَلِكُ الْمَكْرَمُ
كَيْ أَعَاجِبُهَا وَتُرَوَّى بِدَمِ
نَ بِتَدْبِيرِهِ الْحَصِيفِ الْمُقَدَّمِ
سِ، وَكَمْ عَاهِلٌ وَمُلْكٌ تَهْدَمُ
عِ شِدَادٍ وَحَزْمُهُ يَتَبَسَّمُ
فَإِذَا الْمَوْتُ — بَعْدَمَا مَاتَ — يُهْزَمُ
يَحْمِلُ التَّاجَ فِي إِبَاءٍ تَجْهَمُ
بُ وَفِيَّ، وَبِاسْمِهِ الْيَوْمَ أَقْسَمُ!

* * *

أيتها الشعبُ يا سليلَ الألى سا
نحن في مصر نسمعُ اللوعةَ الكبـ
ذاك شعرُ الحياةِ مِنْ رُوحِكَ الحَيِّ
نَفَخَ الرُّوحَ فِي فؤادِكَ مِنْ قـ
ماتَ في قِمةِ الجبالِ، كما عا
كالشهيدِ الذي تكفلَ بالرا
يخطفُ النَّصرَ بالدهاءِ وَيَمْضِي
إِنْ بَكاَهُ العِراقُ، أو أَجفلَ النهـ
فالأنينُ الأنينُ أَصداؤه شتـ
وقليلٌ مَنْ سادَ في الناسِ للنـا
وقليلٌ مَنْ عاشَ في الشعبِ للشـعـ

دُوا، وما زالَ مَجْدُهُمْ يُتَنَسَّمُ
رَى لبغدادَ والنُّواحِ المُنْعَمُ
وإنْ كانَ في رِثاءٍ ومَأْتَمُ
بِ كَبيرٍ على رِضاكَ تَحَطَّمُ
شَ مِثالاً مِنَ التَّسامي وَمَعْلَمُ
يَ في العَزوِّ فوقَ حِصْنِ مُيَمَّمُ
طائراً جارِحاً إِذا النَّسْرُ هَوَّمُ
رُ، وسيفٌ بغمدهِ يَتَضَرَّمُ
سِ عَميمٌ، وَقَلَّ خُطْبُ يُعَمَّمُ
سِ، وَمَنْ عَلَّمَ الورى وتعلَّمُ
بِ زعيمًا بعِبيتهِ وتألَّمُ

* * *

ذاك شعري مِنْ نارِ نفسي التي ثا
هو نفسي، تسيروُ في موكبِ الغا
رثَ ونامتْ فكدتُ لا أَتكلَّمُ
زي وقد عادَ كالكميِّ الملتئم!

من القلب

عابوا تَفَنَّنَ ريشتي، وكأنما
ولو أَنَّهُم وهبوا «الطبيعة» نظرةً
الخالقُ الرِّسَامُ لم يحفلْ بهم
يرنو إليها الملهمون فينتشي
هذي «الطبيعة» مُؤثلي ومُعلمي
أنطقتُ لَوحاتي بروحِ حنانها
والآنَ قد مَضَتِ السَّنونُ وأثقلتُ
وأنا أحاربُ في صميمِ تَفوُّقي
مَضَتِ السَّنونُ وقد شَقِيتُ وهَدَمْتُ

نطقتُ بأصباغِ الخيالِ الكاذبِ
صدقتُ لما عابوا فَنونَ عجائبي!
في أَلِفِ لَوْنٍ مِنْ غريبِ خياله
كلُّ بروحِ جماله وجَلاله
وأنا الأَبْرُ بَرُوحِها الفَنانِ
ومَرَجْتُ مِنَ ألوانِها ألواني
عَبثي وناءَ به فؤادي الباكي
حتى أَطيعَ البِغْغاءَ الحاكي
تلك السَّنونُ مِنَ الكِفاحِ قَوايا

فإذا نُصِفْتُ^{١٥} فكم جُهودٍ ضِيَعَتْ وكأنَّ إنصافي يقول رِثايَا
 إنني أسيرُ كأنما مِنْ مَلْبَسِي كفني، وإنْ أَكْ في إِبَاءِ حَيَاتِي
 هذا هو الموتُ الأليمُ، وَمَنْ يَعِشْ بين القبورِ يُعَدُّ في الأمواتِ

* * *

وطني! إلَامَ النابغون على الأذى يفنون حين تنام أنت هينئًا؟!
 حتى إذا شربوا العذابَ وكَفَّنُوا أرسلتَ دمعك رائيًا وبريئًا؟!
 يا هولَ ما تجني، فكم مِنْ ثروة ضَيَّعَتْهَا، ولكم قتلتَ حبيبًا
 العبقريَّةُ رأسُ مالِكٍ وحدها فعلامَ تَلْقَى الذَّلَّ والتخريبًا؟

الحج الأخير

(أهداها الشاعر إلى صديقيه الأديبين علي محمد البحراوي، وأحمد علي عوض عضوي
 «جماعة الأدب المصري» بالإسكندرية.)

إلى العَلِيِّينَ مِنْ نُبَلٍ وَمِنْ أدبٍ إلى الحَبِيبَيْنِ فِي جدٍّ وفي طربٍ
 أهدي تحياتٍ مشتاقٍ ومغتربٍ عن مَنبَعِ الحسنِ أو عن مَنبَعِ الأدبِ

* * *

أهدي تحياتٍ رُوحِي فَهِيَ ما بَرِحَتْ رهنَ المحبةِ إنْ ناحَتْ وإنْ فَرِحَتْ
 وأنتما في أمانٍ طالما مَرِحَتْ يا للأمانِي التي تلهو وقد جَرِحَتْ!

* * *

الصيفُ وَلَّى وكم للصيفِ مِنْ نَعَمٍ في هَدَاةِ البحرِ أو في ثورةِ النَعَمِ
 وكم عبدنا معاني الحسنِ عن أَمَمٍ فجَدَّدَ الحسنُ ألوانًا من الأَلَمِ

* * *

^{١٥} نصفت: خدمت.

شعر الديوان

والآن تفرض حَجِّي فرضُ توديعي هذي الحياةُ وتَحَنَّاني وترجيبي
كم عشتُ ما بين تشويقٍ وترويعٍ رهنَ الجمالِ، فهل يُعنى بتوديعي؟!

* * *

يا صاحبي وفودي موشكُ دانٍ فهيئاً لي رجاءً عند دِيَّاني
وهبتُ رُوحِي وأطيافي وألحاني إلى الجمالِ، فهل ما زال يَسْأَني؟

* * *

إن لم يَزَلْ بفنونِ اللهو مسحوراً ولم يزل بغرورِ الحظِّ مغموراً
فالبحرُ يزخرُ بالسُلوانِ موفوراً وسوف أرجعُ مدحوراً ومسروراً!

العودة

(نُظِمت في قطار البحر في صحبة الدكتور زكي مبارك مساء ١٧ سبتمبر سنة ١٩٣٣).

وداعاً للرمالِ وللمغاني وداعاً للملاحه يا صديقي!
أتذكرُ كيف كان الموجُ يجري كما يجري الشقيقُ إلى الشقيقِ؟
وقفنا في جوارِ اليمِّ سَكَرى كسكرِ الناظرينَ إلى الرحيقِ
نرى في البرِّ ألوانَ التناجي وفي البحرِ المُشارفِ والعميقِ
كأنَّ الحُسْنَ ذابَ بكلِّ لونٍ نراه وفي المياهِ وفي الطريقِ
سكرنا سكرةَ الحرمانِ حتى كلانا كالأسيرِ وكالطليقِ
وهذا الجوُّ يملؤه حنانٌ ولو أن الغروبَ من الحريقِ
وأبنا أوبةَ المهزومِ لكنْ بنا طربٌ من الأدبِ الحقيقي!

* * *

وحين مضى القطارُ يقلُّ وجدي ووجدك كالرفيقِ من الرفيقِ
رأينا الحسنَ وثأباً جريئاً يحاصرنا كأحلامِ العشيقِ
فعوَّضنا من التبريحِ صفواً ومن صُورِ الخشونةِ بالرفيقِ
وأضحكنا من السَّفَرِ الموافي بألوانِ الأثاثِ وبالزعيقِ

رَمَوْهُ خَنَادِقًا وَقِلَاعَ حَرْبٍ فصار مَدَى الطريقِ من المضيقِ
وَذَا طُسْتُ الغَسِيلِ يُدَاسُ حَتَّى يَزْمَجِرَ بِالرُّعُودِ وَبِالْبَرِيقِ
وَتَمْضِي الغَانِيَاتُ عَلَى تَثْنٍ تَثْنِي النُّورَ فِي الجَوِّ الصَفِيقِ
فَسُبْحَانَ المَكَافَى وَالمَعَزَى وَمَا أَدْنَى الرِّجَاءِ بِكُلِّ ضَيْقٍ!
لَقَدْ عُدْنَا بِقَهْقَهَةٍ وَأُنْسٍ وَأَحْلَامِ الرِّشَاقَةِ وَالرَّشِيقِ!

أبو شادي

(رد الدكتور زكي مبارك بعد شهر من ذلك التاريخ.)

أَبَا شَادِي، وَأَنْتَ فَتَى طَرُوبٍ أَسِيرُ العَيْنِ فِي قَلْبِ طَلِيقٍ
تُذَكِّرُنِي؟ وَهَلْ أَنْسَيْتُ يَوْمًا جَمَالَ اسْكَندَرِيَّةَ يَا صَدِيقِي؟
وَكَيْفَ؟ وَفَوْقَ شَاطِئِهَا المَفْدَى يَحُومُ القَلْبُ مَوْصُولَ الخُفُوقِ

* * *

رَعَاهُ الحَبُّ مِنْ شَطِّ جَمِيلٍ خَفِيفُ الرُّوحِ مَصْقُولِ أَنْيَقِ
بِهَيِّ الرَّمْلِ تَحْسِبُهُ سُجُوفًا مُطَرَّرَةً بِحَبَّاتِ العَقِيقِ
أَطُوفُ بِهِ فَيَغْلِبُنِي خُشُوعِي كَأَنِّي طُفْتُ بِالْبَيْتِ العَتِيقِ

* * *

أَيَا حَرَمِ الطُّبَاءِ أَنْتَ رُوحِي بِمَشْكَاةٍ مِنَ الحَسَنِ الرَفِيقِ
يَرَاكَ الْأَكْمَهُونَ حِمَى مُبَاحًا يَذْكُرُهُمْ بِأَسْوَاقِ الرَّقِيقِ
وَلَوْ كُشِفَتْ غِشَاوَتُهُمْ لَقَالُوا صَبَايَا الخُلْدِ تَسْبَحُ فِي الرِّحِيقِ!

* * *

رَجَعْتُ إِلَى الشَّوَاطِئِ بَعْدَ شَهْرٍ أَشُقُّ إِلَى المَلَاكِ بِهَا طَرِيقِي
فَأَلْفَيْتُ الخَرِيفَ جَنَى عَلَيْهَا جِنَايَتُهُ عَلَى الدَّوْحِ الْوَرِيقِ
وَعُدْتُ مَرُوعَ الْأَحْلَامِ أَشْكُو — وَلَمَّا أَصَحُّ — صَرَغَاتِ المُفِيقِ

زكي مبارك

في سفر

غَلَبَ السُّرُورُ عَلَى السُّرُورِ تَجَاوَبًا
دُنْيَا الْوَصَالِ وَلَا وَصَالَ سِوَى الْمَنَى
سَفَرٌ يَطُولُ، وَإِنَّمَا فِي طَوْلِهِ
لَوْ أَنَّ عِيشِي مِثْلُ هَذَا سَفَرَةٍ
كَتَمَازِجِ الْبَسْمَاتِ بِالْبَسْمَاتِ
وَتَعَانِقِ الْخَطَرَاتِ وَالنَّظَرَاتِ
قَصَرُ مِنَ الْإِنْسَانِ وَالْحَسَنَاتِ
لَعَدَدْتُ مِنْ صُورِ النِّعَمِ حَيَاتِي

عيدان

(رُفِعَتْ إِلَى صَاحِبِ الْجَلَالَةِ الْمَلِكِ فُؤَادِ الْأَوَّلِ لِمُنَاسِبَةِ عِيدِ جُلُوسِهِ فِي ٩ أَكْتُوبَرِ سَنَةِ ١٩٣٣.)

مَوْلَايَ عِيدُكَ عِيدُ مِصْرَ الْبَانِي
عِيدٌ تَجِيَّشُ بِهِ الْخَوَاطِرُ فِي مَدَى
حَاوَلْتُ أَخْفِي مَا ارْتَضَتْهُ خَوَاطِرِي
وَتَذَفَّقَ الشَّعْرُ الَّذِي هُوَ مُهْجَتِي
صَرَحًا مِنَ الْإِيمَانِ لَيْسَ بِفَانٍ
كَالْبَحْرِ: بَيْنَ تَوُثُّبٍ وَتَفَانٍ
لَكِنْ تَغَلَّبَ بِالْيَقِينِ بَيَانِي
فَانْسَابَ مِنْ رُوحِي وَمِنْ إِنْسَانِي!

* * *

مَوْلَايَ! مَا مَدَحُ الْمُلُوكِ سَجِيَّتِي
وَرَأَيْتُ مِصْرَ تَلَفَّتَتْ لَكَ بَعْدَمَا
مُنِيَتْ بِأَحْزَابٍ تَعَدُّ، وَكُلُّهَا
لَا تَسْتَفِيدُ مِنَ الصُّرُوفِ كَأَنَّمَا
وَطَنُ الْخُلُودِ بِكُلِّ مَا يَحْوِي الثَّرَى
يَا لَيْتَ صَائِمَةُ السِّيُوفِ تَذَوَّقَتْ
أُودَتْ بِحَقِّ الْجِيلِ بَيْنَ تَنَاطُحِ
وَالنَّيْلِ مُحَمَّرٌ بِخَجَلَةٍ مُحْسِنِ
وَإِذَا الزَّعَامَةُ فِي الْبِلَادِ مَهَازِلُ
لَكِنْ مَدْحِي لِلْعَظِيمِ الْبَانِي
عَانَتْ مِنَ الْأَخْصَامِ وَالْأَخْدَانِ
يَوْمَ الْبَطُولَةِ لَيْسَ فِي الْحُسْبَانِ
تَحِيَا عَلَى كَرَّةٍ بَلَا دَوْرَانَ
تَرَكْنَاهُ فِي حُكْمِ الْجَرِيحِ الْفَانِي
مِنْ هَذِهِ الْأَحْزَابِ دُونَ تَوَانِ
وَتَحَاكَمْتُ لِلْهُوَ وَالْبَهْتَانِ
فِي الْوَالِدِينَ أَسِيءَ لِلْإِحْسَانِ
مِنْ بَعْدٍ مَا كَانَتْ رُمُوزَ أَمَانِي!

* * *

مولاي! رأيك ثم حكمك للجمي
ما شئت مر من تضحيات جمّة
إنّ الشجاعة في النفوس، وإنما
الشعب أن بما يعاني ريفه
والعابثون الصائحون تنعموا
والزارعون المحسنون تمرغوا
حتى أتى العيد الجليل فأملوا
في هذه الأزمات يلتقيان
لجلال مصر يضح كل جبان
خذل الشجاعة خاذلو الأوطان
وكأنه قفر بلا سكان
وكأن هذا الريف ليس يعاني
في الترب كالموتى بلا أكفان
وإذا حنانك أنت عمر ثان!^{١٦}

* * *

مولاي! نصر الشعب غضبة عاهل
يحيي الموات بحذقه وبحزمه
يأبى سبيل الظلم، لكن لا يني
ولقد رفعت إليك وحي عقيدتي
يُسميه فوق مراتب الإمكان
وبروحه المتأجج المتفاني
في سحر كل مغرر أو جان
فإذا بعيدك للمنى عيدان!

لهو القدر

كم يعبث القدر العتي، وكم له
يدع الحقيير يلوخ أعظم فاتح
فترى البطولة أرخصت أو ضيعت
يمضي المخاطر للفناء وغيره
يا أرض! أنبت الممات خديعة
لَهُ مِنْ «الأبطال» و«الأبدال»^{١٧}
وسواه قام بدوره المتعالي
ما أشبه الأبدال بالأبطال!
تُعزى إليه عجائب الأجيال
فإذا الحياة تُعدُّ شبه مُحال

^{١٦} رصدت الحكومة المصرية مليوناً من الجنيهاً بإشارة جلالته لتخفيف أزمة الفلاحين، واتخذت إجراءات خطيرة أخرى لخيرهم.

^{١٧} الأبدال: من يقومون بتمثيل الأدوار الخطرة في السينما بدل سواهم، وإن نسبت المخاطرة خدعة إلى الآخرين الذين يفوزون زوراً بإعجاب الجمهور بمخاطراتهم المزعومة، حينما يقوم بها في الواقع غيرهم؛ أي أولئك الأبدال.

أين الجريءُ الأَلْمَعِيُّ؟ وأين مَنْ
يمضي الضحية حين يحيا غيره
ويُصفقُ المتفرِّجون وكلهم
فإذا المواهبُ كالعثيرِ كريهة
يُحيي مواتِ الناسِ دونَ ضلالٍ؟
في ذروة الإسعادِ والإقبالِ
مَيَّتْ كتصفيقِ المكانِ الخالي
وإذا العليمُ مطيئةً الجاهلِ

في العواصف

(إلى الحبيب الغائب في الإسكندرية.)

قد طال بُعْدُكَ يا حبيبي! لم يَعدْ للصيفِ صائفُ!
أنا في بَعادِكَ كالمُسَخَّرِ للوساوسِ والمخاوفِ
لم يَبْقَ إِلَّا أَنْ تُطِلَّ على المياهِ وأن تُشارِفَ
تتلو صحائفها، وكم حَوَتْ الأَسَى تلك الصحائفُ
كم في اصطخابِ الموجِ مِنْ صَخَبِ المشاعرِ والعواطفِ
كم فيه غَرْقى للأمانِ أو ضحايا للعوارِفِ
انظُرْ! تَأْمَلْ يا حبيبي! إِنَّ رُوحِي ثَمَّ طَائِفُ
يهفو إليك وليس يَعْرِفُ أينَ أَنْتَ ولستَ عارفُ!
أنا في بَعادِكَ لستُ أدري مَنْ أُجِبُّ وَمَنْ أُخَالِفُ
حتى الطبيعة خاصمتني وهي مَلْجَأُ كُلِّ خائفُ!
حَتَّامَ تنأى يا حبيبي والحنينُ لديك هاتِفُ?
أنا كاليتيم: يتيم رُوحِي بعد حُسْنِكَ في العواصفِ!

الحنن الوديع

تَأْمَلُنْهَا بفؤادي الحزينُ
تطوف عليها أمانى السنينُ
فألفيتها مثلَ حظِّي الغبينُ
ولكنها في سُرورِ الحزينِ
سرورِ الوداعةِ للمستهينِ

إذا ابتسمت فابتسامُ الربيع بكى في سُرورٍ وحُزنٍ وديع
 بكى والشتاءُ قتيلٌ صريع وقد مُزِجَتْ بالأغاني الدُمُوعُ
 فصار المشوَّقُ مثلَ المَروغِ
 تأملْتُها وهي بنتُ النعيمِ كأنَّ النعيمَ قرينُ الجحيمِ
 كأنَّ المتاعَ بقايا الهشيمِ فتنظرُ عن لوعةٍ تستقيمُ
 وهذا الوجودُ الودودُ اللئيمُ
 أَللَّحُكُمَ نظرتُكِ الشاعرة؟ أَللشعرِ بِسمتِكِ الأسرَّة؟
 أَللحزنِ هذي المُنَى القاهرة؟ لقد زدتِ همِّي يا ساحرَه
 وحَبَّبتِ لي الحسرةَ الناصرة!

اللود

بني مصر أين النُّبلُ فيكم وأنتمو
 لقد علَّم الدنيا الحضارة حينما
 أصبحتمو حتى تراث جُودكم
 أروني أروني مِنْ مَتَانَةِ خُلُقكم
 أروني جمالاً للِتسامحِ رائِعاً
 يقضِّض أحداثَ الزَّمانِ ويعتلي
 بني مصر كونوا السيفَ للمجد مُصلِّتاً
 حرامٌ حرامٌ أن تُوارى عِظائِمُ
 سئمنا الوصوليين في كل مَضربٍ
 كنوزُ بوادي النيلِ أولى بملكها
 غيورٌ على أن يرفعَ الجمعُ فردَه
 حريصٌ على دينِ الأخوةِ، جَوْهَ
 سلالةٍ شَعْبٍ أَمُسُهُ النُّبلُ والمجدُ
 تَمْشَى بها ليلٌ من الجهلِ مُنَادٌ^{١٨}
 تعافون؟! بئسَ المجدُ هذا أو السعدُ!
 بروقاً إذا ما جلجلَ القاصفُ الرَّعْدُ
 يَرُدُّ حقوقَ الشعبِ إن عثرَ الجُدُّ
 بكم كلما همَّ التنايُذُ والحقْدُ
 فأنتم بهذا الموتِ موتكمو الغمْدُ
 بغفلتكم قبلاً وسقطتكم بَعْدُ
 وكلُّ بخذلانٍ المكارمِ يعتدُّ
 من الناس شعبٌ لا ينام ويرتدُّ
 وأن يرفعَ الجمعُ العزيزُ به الفردُ
 تنفَّسَ فيه الصدقُ جذلانَ والودُ

وإلا فخلوا مصرَ تحيا بأهلها
ولكن أهليها لُحودٌ عزيزةٌ
فلستم لها أهلاً وإن عظم العُدُّ
ومن كلِّ لحدٍ يشرقُ النبلُ والمجدُ!

المهزلة

وَيْلي من الدَّهْرِ! يُبْكيني وَيَبْتَسِمُ
قد عَدَّ شَرَّ ذُنُوبِي ما يَفِيضُ به
وَيْلي من الدَّهْرِ! وَيْلي! مَنْ أَقَرَّ له
أَطْلَّ دَمْعِي وماءَ العَيْنِ مضطربُ
أنا الذي في شَكَاَتِي يَزَارُ الشَّمَمُ
سَخَرْتُ مِنْ بَيْتِي لَمَّا بَرَمْتُ بها
لستُ الذي إِنْ تَغَالَى في مُحَبَّتِهِ
لَنْ يُنْصَرَ الحَقُّ إِلَّا في مِصْرَاحَةٍ
أنا ابنُ مصر، فما لي لا أَقْرَعُها؟
هرمتُ يا مصرُ لا عن أَعْصَرِ درجتِ
الْخِصْبِ وارثه أَخْلَقَ مُدَنِّسَةً
دانتُ وضاعتُ فلا المَغْبُونُ مُنْتَصِفُ
إِذا اسْتَوَى النَّاسُ في فَضْلِ وَمَنْقِصَةٍ
وهازلُ جعلَ الأحلامَ مَهْزِلَةً
أرادُ جُرْحِي وكم أَسْلَفْتُهُ مِنْني
فلم أَذُدْ عن فَوَادِي طَعَنَ ضَرْبَتِهِ
إِنَّا لَفِي زَمَنِ فَازَ اللُّثِيمُ به
لولا ضَالَّةٌ مَنْ ضَجُّوا وَمَنْ صَخَبُوا
أَعَزَّ عَلَيَّ بَأْنَ أَلْقَى كَرَامَتَهُمْ
مَنْ لَمْ يَصُونُوا بِأَيْدِيهِمْ كَرَامَتَهُمْ
هانَ الرِّجَالُ، وسادَ السَّاخِرُونَ بهم
وعشتُ في غَزَلَتِي الموفورَ في شَرْفِي

ولا يَرُدُّ عَوادي جَوْرِهِ السَّقَمُ
قلبي إلى النَّاسِ مِنْ حُبٍّ ويزدحمُ
هذا الْعُتُو؟ وهل في الحُبِّ مُتَّهَمُ؟
وهاجَ وجدي وَسُخْطُ القلبِ محتدمُ
وفي بُكَائِي ونَارِي يُهْزَمُ الأَلَمُ!
وَنُحْتُ لَكِنْ نَوَاحِي كُلِّهِ كَرَمُ!
فساءَهُ الدَّهْرُ عُمْرًا ناله النَّدَمُ
ولنْ تَعِيشَ على عِلَّاتِها الأُمَمُ
هي الطفولةُ حاكِي حَالِها الهَرَمُ!
لَكِنْ قَفَرِكَ فِيهِ يَسْكُنُ العَدَمُ
والشَّيْبُ أدناه ما دانتُ له الهمَمُ
له بَغْبَنُ، ولا المَأْفُونُ مُتَّهَمُ
فقد تساوى البَيانُ العَذْبُ والبَكَمُ!
يَلْهُو فَتَعَنُّوْا له الأخلاقُ والذَّمَمُ
وكلُّ جُرْحٍ لِمِثْلِي سوفَ يَلْتَنَمُ!
حتى يُطَهَّرَ مِنْ وُدِّ حَوَاهِ دَمُ!
وما لغيرِ رضاهُ مِسْمَعُ وفمُ!
ما عاثَ فينا سَفِيهٌ أو هَوَى عِلَمُ
وهَمًّا، وقد صغروا شَأْنًا كما وهَمُّوا
فليس يُجِدِيهِمُو سَمْعُ ولا صَمَمُ
لولا التَّهْيِيبُ ما هانوا ولا انهزَمُوا
أبكي وَأَضْحَكُ والأحداثُ تلتطمُ!

هرقل وديانيرة



هرقل وديانيرة.

(كان هرقلُ مَضْرَبَ المَثَلِ في البأس، وكان كثيرَ العشق كثيرَ التقلُّب، وكانت مليكة حبه أخيراً الفاتنة ديانيرة التي عشقها قبله أخلوس أحد آلهة الأنهار، وكان أخلوس إلهاً قوياً واسع الحيلة، فحاول التغلب على منافسه هرقل إذ كان أخلوس يتشكل بصور شتى ليفاجئ هرقل منافسه ويصرعه وهو بعيدٌ عن الحيطة والحذر. فكان هرقلُ يتغلب عليه دائماً بالرغم من مفاجآته، وكانت آخر صورة له ظهوره في مظهر ثور قوي غلاب، ولكن هرقل تمكن من مغالبتة، وإحراز نصره الأخير عليه إذ انتزع أحدَ قرنيه، فقدمه قرباناً إلى ديانيرة، وأقيمت بمناسبة ذلك حفلة عرسهما. وكثيراً ما كان هرقل ينسى بأسه وقوته، فحدث في حفلة العرس أن غضب على أحد الخدم لسوء تصرُّفه فضربه ضربةً أفضت إلى موته، بينما لم يكن يعني سوى نهريه ... وجاءت الآلهة تحاكم هرقل فحكمت بنفيه، ولكن عزَّاه أنه سيصطحب معه ديانيرة.)

سار هرقل وديانيرة إلى منفاهما، وفي الطريق اعترضهما نهرٌ عظيمٌ، وقد بحثا عند شاطئه عن وسيلة لعبوره فلم يوفقا، وأخيراً وَجَدَا إفينس، ذلك الجواد العجيب الإنسي

الصورة الممتلئ حكمةً وعاطفةً، وقد أحبَّ العزلة، فواجهاه وسألاه المعاونة لاجتياز النهر، فلبَّى عن طيب خاطر وبدأ بنقل ديانيرة. ولكنَّ هرقل لحظ تباطؤَه فقدَّر سرَّ ذلك وهو شغف إفينس بديانيرة، وعزَّز ذلك صياحُها حينما اقتربا من الشاطئ الآخر، فأسرع هرقل وسدَّد إلى إفينس سهمًا أصمها، ولكن قبل وفاته أدرك بها الشاطئ، وحينئذ صرَّح لها بأنه يموت شهيدًا حبَّها، ثم خضب رداءها بدمه، وقال لها إن هرقل كثير الملل والتقلب، وسيأتي يومٌ قريبٌ يعطي فؤاده إلى غيرها، وحينئذ عليها أن تهدي إليه هذا الرداء الخضيب فتجتذب قلبه ثانية، ثم مات ...

وأدركها هرقل أخيرًا فإذا به يجد إفينس ميتًا، ورأى في سلامتها حياةً جديدةً له، ولكنهما لم ينعما طويلاً بحياتهما الغرامية إذ قَضَى تقلُّب هرقل بأن يهجر ديانيرة، ويحبَّ بدلها أيول الجميلة، فأحزن ذلك ديانيرة حزنًا عظيمًا، ولكنها تذكرت الرداء الخضيب فأرسلته إلى هرقل، وكان مع أيول حينئذ، فضحكا من هذه الهدية التي أرسلتها ديانيرة الغبية في عرفهما، وألقى هرقل بالرداء على كتفه فسقط ميتًا ...!

ولما أتى ديانيرة النعي الأليم بكت بدموع البريئة الأثيمة وهي في أشدَّ الندم والحيرة لا تدري كيف مات هرقل، وما مبلغ نصيبها ونصيب الرداء الخضيب في موته، وأي سرُّ في ذلك، ولبثت تشتهي الموت منقذًا لها من حزنها العظيم، ولبثت تسأل الآلهة، ولكن الآلهة أبت أن تجيب ...

«هرقل» وكمْ لهرقل العظيم	وقائعُ تُنسى فخارَ القديم
وقائعُ في بأسِه لا تُحدُّ	وفي عشقِه دائمًا لا تُعدُّ
«هرقل» على بأسِه صار ينسى	مدى بأسِه، وكذا البأسُ ينسى
ففي ساعةِ الحظِّ منْ عُرْسِه	وقد جُمع الصَّفوفُ في أنسِه
أصاب بضربتهِ خادمُه	جزاء تصاريفه الغاشمُه
وما كان يعنِي سوى نَهْرِه	فراح الشهيد إلى قبرِه

* * *

وجاءتْ تحاكمُه الآلهةُ	ولكنْ على أسفٍ والهةُ
فكان له النِّفْيُ منها الجزاءُ	وفي النفي مَعْنَى كمعنى الفناءُ

ولكنْ أباحَتْ له زوجَتَهُ رَفِيقًا، فأَلْفَى بها رَحْمَتَهُ

* * *

وكانَتْ «ديانيرَةُ» الغالِيَةُ تشوِّقُ مَفَاتِنُهَا الآلهَةَ فَجُنَّ بها «أَخِلُّوسُ» الجَلِيلُ وحاولَ في أَلْفِ لَوْنٍ وحيَلُهُ وكم مرَّةٍ راحَ يَسْعَى لِيُرِدِّي «هرقْلُ» العَزِيزُ القَوِيُّ الحَبِيبُ إلى أن بدا مِثْلُ ثَوْرٍ عَنِيدٍ ولكن «هَرَقْلُ» الجَرِيءُ القَوِي تَغَلَّبَ مُنْتَزِعًا قَرْنَهُ وكان له تحفَةٌ يَوْمَ عُرْسِهِ وإنْ كانَ قد غنمَ الفاتِنَةَ

جَمالًا تَجَسَّم في غانِيَةٍ بروعتها الحلوة النابِهَةُ وكان إلهاً لنهرٍ جميلٍ يخادعُها لتكوُنَ الخَلِيلَةُ «هرقْلُ» فلم يزدجرُ عند حَدِّ «هرقْلُ» المذلُّ القَوِيُّ والقلوبُ يروُّعُ حتى «هرقْلُ» الشَّدِيدُ تَغَلَّبَ مِثْلَ الأَتِيِّ العَتِي فأفقدَه أبداً فَنَّهُ ولكنما العُرْسُ أَفْضَى لبؤسِهِ وصارتْ بها نَفْسُهُ آمَنُهُ

* * *

إلى النَّفْيِ قد أزمَعَ العاشقانُ وللحُبِّ معنَى يَبْزُ المعاني فكلُّ عَسِيرٍ لَدِيهِ يَسِيرُ وجاءا بسيرِهِما عند نَهْرٍ ولم يَجِدَا قاربًا للعبورِ وبيننا هُما في هُمومٍ ويأسٍ وما هو إلَّا الشريدُ الحَكِيمُ تَخَلَّى عن الناسِ مستوعبًا وكم فيه مِنْ حكمةٍ للألوهُة فجاءا إليه لِكَيَّ يَسْأَلَاهُ فرحَّبَ بالعونِ في مقدَرَهُ وأعطى «ديانيرَةَ» أوَّلًا ولكن «هرقْلُ» رأى عَبرَهُ

فسارًا بروحِ الشجاعِ الجبَّارِ وهل يشملُ الحُبُّ إلَّا التفاني؟ وساوى الخطيرُ لَدِيهِ الحَقِيرُ كثيرِ المخاطرِ بالموتِ يَجْري وقد سخطَ الموجُ سخطَ الدُّهورِ تراءى جوادٌ شَبِيهُه بِإنْسِي على عَزَلَةٍ هي سِرُّ النعيمِ حياةَ التأملِ مستعذِبًا ومِنْ ضعفِ دُنْيَا الأنامِ السَفِيهَةُ مُعاوَنَةً في عُبورِ المِياهِ وأظهرَ نخوتَهُ الخَيْرَةُ عنايةً لأمحًا مأملا بطيئًا، فألهمه سِرَّهُ

وعزَّزَ هذا صياحُ الفتاة
فأصمى «هرقل» بسهم مصيب
ولكن «إفينس» رغم الإصابه
وقبل المماتِ هوى في وفاء
وقال لها: أنا رمزُ الغرام
أموت وأعطيك سري العظيم
إذا حان يومٌ وأعطى «هرقل»
فأعطيه أنتِ الرداءَ الخضيب
فإن دمي من صميم الغرام
ومات ضحية هذا الهوى
ولما استطاع عبور المياه

وقد أوشكت أن تجوز المياه
«إفينس» ذاك الجواد العجيب
تمكن من أن يؤدي حسابه
وخضب بالدم طرف الرداء
أموت شهيداً أحبي الحمام
بروح المحب البخيل الكريم
سواك فؤاداً له كم يمل
يعود إليك الوفي الحبيب
يعيش ولو ذاق جسمي الحمام!
ومن ذا الذي خافه وارعوى؟
«هرقل» رآها جديداً حياً!

* * *

وما مرَّ عهدٌ سعيدٌ طويل
فإن جموح «هرقل» الغريز
وخلَّفها في أسى واغتراب
وحينئذٍ ذكرت كنزها
فأهدت إليه الرداء الخضيب
وكان «هرقل» طروباً يغني
وقد هزنا بالرداء الهدية
فألقي «هرقل» به فوق كتفه

على نشوة في الغرام الظليل
مضى بالنعيم العزيز القصير
تنوخ على قلبها والشباب
وقد لمحت أثره عزها
هدية قلب يُناجي الحبيب
«أيول» الهوى وأحب التغني
لعرسهما من فتاة غبيّة
فكان الرداء كسهم لحتفه!

* * *

ولما أتاهما النعي الأليم
بكنه «ديانيرة» النادمه
وحارت وثارَت تود الممات
وليس سواه طبيب يُرام
ولم تدر هل خدعت أم أُصيب
وكم سألت في الأسى والهه

بكت بدموع البريء الأثيم
وناحت لآلهة ظالمه
فليس سواه كريم الصفات
إذا خذل الدهر أهل الغرام
«هرقل» بموت خفي غريب
فصمت ولم تنبس الآلهة!

خذ يا فؤادي!

خُذْ يا فُؤادي قبل أن يستيقظَ الدَّهرُ العنيدُ
خُذْ ما تيسَّرَ مِنْ نعيمٍ لا يُحلَّلُ للعبيدُ!
أنا لا أعيشُ بغيرِ صفوكِ يا فُؤادي في الحياةِ
لولاكِ ما ساوى الحَبَى شيئاً ولا مَجْدٌ وجاءُ!
ما أظلمَ الدنيا إذا حُرِمَتْ مناجاةُ القُلوبِ!
ما للحياةِ من المعاني غيرُ ما يهبُّ الحبيبُ!
بادِرْ إلى عَطْفِ الحبيبِ ولا تَقُلْ عَطْفُ ضئيلٍ
هو عندَ مأساةِ الحياةِ من انتهابِ المستحيلِ!
بادِرْ وبادِرْ سوفَ يفنى العمرُ في الألمِ الدفينِ
إن لم تشأْ بعضَ السُّلُوِّ فعشْ إذنْ عيشَ الحزينِ!

الجراح المفتعلة

هذي جراحُك يا فتى	بيديكَ تُفَتِّلُ افتعالاً!
فيمَ النواحُ ولست تَمَ	لكُ أن تحمِلنا المحالاً؟
نطقَت جِراحُك بالهوا	نِ وأعلنتَ عنكَ الخبالا
أسفِي على هذا الذكا	ء يحولُ أكثرهُ ضلالا
أسفِي عليه وكم أَرَا	هُ ينوءُ محمومًا مُذلالا
عانيتَ بالتهريجِ والتـ	دجيلِ أعباءٍ ثقالا!

النجوم الهاوية

بتحالفِ الأحبابِ والأعداءِ
لكَ حينَ نسحقُهم بروحِ عدا
كنزاً ونلتَ ولأهم بولاءِ
برجالها العلماءِ والأدباءِ
أفنى حُماةَ الشرقِ كلَّ رجاءِ
كتبدُّدِ الإشعاعِ في الصحراءِ!
المجدُّ بالإتلافِ لا الإنشاءِ!
أهلَ الحياةِ فلستَ في الأحياءِ
إلا معاني الجهلِ والجهلاءِ
ورخاءِ أوهامٍ لغيرِ رخاءِ
كتناوحِ الأطيافِ بالأصدا
لم يُجدِهم فضلٌ وصدقُ إباءِ
كانوا جواهرَ تاجِكَ الوضاءِ
يأبى غناه بروحه العمياءِ!

يا للجهودِ تضيُعُ بينَ عدا
وطني! بنوكِ النابهونَ هُمُ العلى
لو كنتَ تعرفَ قدرَهم لذخرتَهم
لا قدرَ للأوطانِ إنَّ لم تنتفعْ
هَمِّمَ تضيُعُ ولا رجاءَ لها، وكم
كم يتركون مَدَى النُبوغِ مبدِّداً
ويُحاربُونَ المنشئينَ كأنَّما
وطني! إذا لم تستغلَّ موفِّقا
فَوَضَى حياتَكَ، ما أرى معنى لها
دَجَلٌ، وتضليلٌ، وإفكٌ شائعٌ
وحُروبُ أحزابٍ تصيحُ وتنتهي
بيننا الأباةُ المبدعونَ تراجَعُوا
ولو احتفلتَ بهم وسُستَ نبوغَهم
لم أَلَقَ مثلكَ في غناه وفقره

حياة الضجر

وملءَ الحياةِ بمصرِ الضَّجَرِ؟!
فما لامرئٍ مِنْ أذاها مَفَرُّ
ثمَ حتى جهلناه بينَ البَشَرِ
يَرى حظَّه في التُّرابِ اندثرَ
بلا عوضٍ، وبه كم سَخِرَ
كَأَنَّ بما حَفَّه قد عَثَرَ!
بغيرِ الرِّغامِ وغيرِ الحُفَرِ؟

علامَ السُّرورِ وفيَمَ النَشِيدِ
حياةً تَغْلغلُ فيها الهَوَانُ
وشَعْبٌ يَذَلُّ دُونَ السَّوَا
حليفُ التُّرابِ، ولكنه
أَجِيرٌ يُسَخِّرُهُ الأَجَنبِيُّ
يُحاربُ مِنْ كُلِّ ما حَفَّه
لَمَنْ هُوَ يَسْعَى وما حَظُّه

ولم يُغْنِ إِلَّا بَشْتَى الهمومِ
مَآسِيهِ لَا تَنْتَهِي، بَيْنَمَا
حبا غَيْرَهُ بِالنَّعِيمِ الْجَزِيلِ
وَمِنْ عَجَبٍ يَنْتَمِي قَدْرُهُ
فَمَنْ عَلَّمَ الشَّعْبَ هَذَا الْهَوَانَ
أَلَيْسَ التَّنَاطُحُ بَيْنَ الرَّءُوسِ؟
دَعُونَا إِذَنْ مِنْ مَدِيدِ الصَّغَارِ
دَعُوا كُلَّ هَذَا الْهَتَافِ الطَوِيلِ
أَلَيْسَ لَكُمْ عِبْرَةٌ فِي الشَّقَاقِ؟
فَهَبُّوا إِلَى وَحْدَةٍ لَا تُضَامُ
وَلَوْ أَنْكُمْ مِنْ عُنِيدِ الصُّخُورِ

وَشَتَّى السَّقَامِ وَشَتَّى الْعِبَرِ
أَمَانِيهِ أَقْسَى لَهُ أَوْ أَمْرُ!
وَأَبْقَى لَهُ مَا اشْتَكَى مِنْ ضَرَرِ
إِلَى كُلِّ مَجْدٍ جَلِيلِ الْخَطَرِ
وَمَنْ أَصْغَرَ الْمَجْدَ حَتَّى صَغُرَ؟
أَلَيْسَ التَّطَاحُنُ بَيْنَ الزُّمَرِ؟
وَحَلُّوا إِذَنْ كُلَّ هَذَا الْهَذَرِ!
فَكَمْ فِيهِ مَهْزَلَةٌ لِلْقَدَرِ
فَمَا الظَّفَرُ إِلَّا لِمَنْ يَعْتَبَرُ
وَهُمُّوا إِلَى عِزَّةٍ تَنْتَظَرُ
لَأَذْكَى الْمُصَابِ دَفِينِ الشَّرِّ!

ثمن الحرية

سَوْفَ أُعْطِيَ فَوْقَ مَا يُعْطَى الَّذِي
سَوْفَ أَرْضَى شَظْفَ الْعَيْشِ كَمَا
سَوْفَ أَرْضَى مَا أَعَانِي إِنْ يَكُنْ
لَنْ يَنَالَ الشَّعْبُ أَمَالًا لَهُ
إِنَّمَا الشَّعْبُ حِمَى أَفْرَادِهِ

يَتَنَاهَى بِمَسَاعٍ وَمِنْ
سَوْفَ أَرْضَى مَنْ تَجْنَى وَغَبْنُ
فِيهِ مِنْ حُرِّيَّةِ الشَّعْبِ ثَمْنُ
فِي جَمَى التَّغْرِيرِ أَوْ قَيْدِ الرَّسْنِ
فَإِذَا أَفْرَادُهُ هَانُوا وَهَنُ

* * *

أَيُّهَا الْأَحْزَابُ أَنْتُمْ دَاؤُنَا
فَتَرَكْتُمْ مَصْرَ لَا تَعْرِفُ مَنْ
لَوْ وَقَفْتُمْ مِثْلَ سَدٍّ رَائِعٍ
خَشَعَ الدَّهْرُ لَكُمْ مِنْ نُبْلِكُمْ

قَدْ تَفَرَّقْتُمْ حَيَارَى فِي الزَّمَنِ
مَنْ بَنِيهَا يُرْتَجَى أَوْ يُؤْتَمَنُ
ثَابِتِ الْبَنِيَانِ مَرْفُوعِ الْقَنْنِ
وَتَخَلَّى عَنْ غُرُورٍ وَضَغْنِ!

الذهول

كم بي حنينٌ للتقشُّفِ بينما
وأحنُّ للتربِ الذي هو غايتي
وأنوحُ لكنْ لا لنفسي نوحُها
بل كلُّ نوحٍ للأنام، فهمُّهم
وأئنُّ في قلبي المصدِّع مثلاً
ما كان لي جُرمٌ سوى جُرمِ العلى
حتى حسبْتُ من الذنوبِ تقشُّفي
وذكرْتُ قولَ أبي عليٍّ^{١٩} ذاهلاً
ولقد نهزْتُ مع الغوَاةِ بدلوهُم
وبلغتُ ما بلغَ امرؤُ بشبابه

يلهو ويعبثُ بالفؤادِ غَرامُ
وكأنَّما هو منزلي البسَّامُ!
مهما شَقِيتُ وخانتِ الأيامُ
همي، وإنْ جحدُوا هوايَ وهامُوا
تَنَصَّدَعُ الأطيافُ والأحلامُ
لمواطنٍ فيها العزيزُ يُضامُ
وكأنَّما حربُ الحياةِ سلامُ
تنتابُنِي الأحلامُ والآلامُ:
وأسمتُ سرحَ اللهوِ حيثُ أسامُوا
فإذا عصارَةُ كلِّ ذاكِ أثامُ!

سجن الشرف

إني أشمُّ وفاءَ الناسِ مُدَخِّراً
وليس تُقنِعنِي دَعْوَى وإنْ لطفَتْ
ولا أُجربُ إلا مرةً، فإذا
فراستُ الحبَّ تَجْرِي في صميمِ دمي
لكنْ أعودُ ألومُ القلبَ في شغفي

لهم من الحبِّ أضعافَ الذي عَرَفُوا
وليس يقهرُنِي بأسٌ ولا صلفُ
خُذِلْتُ صُنْتُ فؤادًا حُبُّهُ تَلَفُ
وقد أُعاندُها حيناً وأعترفُ
بالناسِ حينَ عَذَابِي ذلكَ الشَّغَفُ

* * *

يا مَنْ بكى أو تَبَاكى بعدما صَدَفْتُ
دَعْنِي برَبِّكَ في سجنِ ألودْ به

نَفْسِي، رويدَكَ! حَسبي الصَّمْتُ والشَّرْفُ!
وازَّتْخَ كما شِئْتُ، ولينعمَ بك الخَرْفُ!

^{١٩} هو أبو علي الحسن بن هانئ الشهير بأبي نواس.

آلام الريف

وَضَحِكَ بَيْنَ تَضاحِكِ الْأَصَالِ
مَسَرَى اللَّهيبِ عَلَى الهَشِيمِ الْبَالِي؟
فَتَعِيدُ لِلأَضواءِ هَمَّ لِيالٍ؟!
يُنشِدْنَ لِلْماءِ النَشِيدَ الْغالي؟
أَقْدامُهُنَّ فَمَا تَراهِ يُبالي
وَالشَّطُّ مَزْهُوٌّ بِهِنَّ مُبَالٍ
صَفْوُ الحِياةِ وَنشوَةُ الْأَجِيالِ
وَكأنَّهُنَّ مِنَ النِّباتِ غَوَالٍ
وبِمائِها المَتَبَرِّجِ المِتَلالي
وسماءِها فِي نُورِها المِتوالي
أَوْحَتْ طَبِيعَةُ مِصرَ بِالْأمالِ
مَتَشَبَّعٌ بِالسُّلَمِ وَالْإِقْبالِ
أَكْذا السَّلَامُ يَحولُ شَبَهَ قَتالٍ؟!
جَدْبًا، وَهذا التَّبَرُّمُ مِثْلُ رَمالٍ؟!
مِصرُ وَأَضْحوا فِي عِدادِ خيالٍ؟!
صَدَقَ الزَّعامَةُ أَوْ فَرُوضُ رِجالٍ؟
إِنَّ التَّناحَرَ أَصْلُ كُلِّ ضلالٍ
بِالنُّبْلِ؟ أَيْنَ شِجَاعَةُ الْأَبْطالِ؟
لَكُنْهُمْ حُرِّمُوا شَعورَ جَلالٍ
كَالْفاتِحِينَ مَشَوْا عَلَى الْأَوْصالِ
تَبْكِي وَتَضْحَكُ فِي أَسَى وَخَبالٍ
خَجَلْتُ رِءُوسَ لِلزَّرِوعِ حِيايِ
صَوْتُ الجَنونِ وَصرخَةُ الْأَجالِ
وَالْمَوْتُ بَيْنَ مُخاصِمٍ وَمُوالٍ
وَتَزاحِمِ الْأَمالِ وَالْأَهْوالِ!

زَغَرْدَنَ بَيْنَ تَدافِعِ الْأَمالِ
أُتْرَى نَسِيْنٌ مَدَى الشَّقَاءِ وَقَدْ سَرَى
أَمْ أَنَّ أَحْلامَ الشَّبَابِ كَفِيلَةُ
ما بِالْهَنْ لَدَى الْغَدِيرِ حَوانِيَا
وَالْماءُ يَضْرِبُ فِي حِناں دافِقِ
يَغْسِلُنَ عابِسَةَ المِلابِسِ تارَةً
وَيَعِدْنَ يَرشِفْنَ المِياةَ كَأَنَّها
وَيَسِرْنَ بَيْنَ تَهْلُلٍ وَتَأْمُلٍ
فَتَيَّاتٍ مِصرَ الْمُنجَبَّاتِ بِطِينِها
حاكِينَ أَرْضَ النِّيلِ مِلاءَ وَداعَةٍ
وَجَعَلْنَ مَلْبَسَهُنَّ فَضافُضًا كَما
وَطَنُ السِّماحَةِ وَالْجِمالِ فَجَوْهُ
ما بِالْهُ أَضْحَى مَجالَ تَنابُذٍ؟!
ما بِالْ هَذا الْكَنْزُ يُضْبِحُ خِصْبُهُ
أَيْنَ الرِّجالُ المِصْلِحونَ؟ أَأَقْفَرْتُ
ما لِلزَّعامَةِ لَيسَ تَعْرِفُ مَرَّةً
يَتَناحَرونَ وَما التَّناحَرُ حِكمَةُ
أَيْنَ التَّجَرُّدُ؟ أَيْنَ أَيْنَ تَخَلُّقُ
صادِ الْغَرِيبِ وَما دَرَوْا أَوْ قَدْ دَرَوْا
وَمَشَوْا عَلَى أَشْلائِهِمْ فِي حُمَقِهِمْ
وَالدَّهْرُ يَضْحَكُ وَالْمِجَاعَةُ مِثْلُهُ
وَفُتُوخُ ذاكِ الْمَجْدِ تَخْجَلُ مِثْلَما
وَكَأَنَّ زَغْرِدَةَ الْحِسانِ مِنَ الْأَذَى
وَكَأَنَّ هَذا الرِّيفَ مَقْبَرَةُ الْمَنى
وَكَأَنَّما اِختَلَطَ الْوُجُودُ مَعَ الرَّدَى

النعاج

قُلْ لِلنَّعَاجِ إِذَا لَجَّ التُّغَاءُ بِهِمْ
يَا مَنْ أَحْصَى بَتَانِيثٍ مُذَكَّرَهُمْ
يَا آيَةَ الضَّعْفِ فِي حُمَقٍ وَفِي هَذَرٍ
مَنْ كَانَ يَقْبَلُ هَذَا الضَّيْمَ مِنْ شَبَحٍ
عَارٌّ عَلَى أُمَةٍ أُمَثَالِ كُنَّ لَهَا
دَعَاوُ الْمَقَاعِدِ رَعِيًّا فِي مَنَاكِبِهَا
هَذَا الْمَجَالِسُ لِلْأَخْلَاقِ عَالِيَةً

أَنْتَنَّا وَاللَّهِ أَعْدَى النَّاسِ لِلنَّاسِ
قَدْ حَارَ فَيَكُنْ تَفْكِيرِي وَإِحْسَاسِي!
مَا فِي الْمَذَلَةِ بَعْدَ الضَّعْفِ مِنْ بَاسٍ
فَإِنَّمَا هُوَ مَعْنَى الضَّيْمِ وَالْيَاسِ
أَوْ أَنْ تَكُنَّ بِهَا مَعْدُودَ أَنْفَاسِ
بَيْنَ الْحَشَائِشِ لَا سَادَاتٍ جُلَّاسِ
لَيْسَتْ مَعَارِضُ أَوْشَاقٍ وَأَنْجَاسِ

أَنْشُودَةُ الْأَنْشَادِ THE SONG OF SONGS

«مارلين»! ^{٢٠} تِلْكَ مَنَاحَةُ الْفَنَّانِ
لَا تُرْجِعِي الْأَحْدَاثَ عَنْ ثَوْرَانِهَا
هِيَهَاتَ نَنَعُمُ بِالْخَدِيعَةِ بَيْنَمَا
لَا تُوْهِمِينَا بِالْحَيَاةِ جَدِيدَةً
إِنَّ الزَّمَانَ لَسَاخِرٌ وَمُعَانِدٌ

ذَلَّ الْبَرِيءُ بِهَا وَعَزَّ الْجَانِي
لَنْ تَرْجِعَ الْأَحْدَاثَ عَنْ ثَوْرَانِ!
الْغَبْنُ كُلُّ الْغَبْنِ لِلْفَنَّانِ
فِي جَنَّةٍ خُلِقَتْ مِنَ النِّيرَانِ
وَأَنَا الْخَبِيرُ بِمَا يَكُنُّ زَمَانِي!

* * *

«مارلين»! أَشْبَعَتِ الطَّبِيعَةُ نَضْرَةً
يَرْنُو إِلَيْكَ الْمَلْهُمُونَ كَأَنَّمَا
هَذَا الْمَعَانِي الدَّافِقَاتُ عَوَاطِفًا
هِيَ فَوْقَ مَا تَهَبُّ الْحَيَاةُ لِأَهْلِهَا
بَحْرُ الْأُلُوهَةِ فِيهِ نَسْبَحُ عَنْ هُدًى

بِالْفَنِّ فِي فَرَحٍ وَفِي أَشْجَانِ
يَرْنُونَ فِيكَ إِلَى نُهَى الدِّيَّانِ
لَيْسَتْ مَنَالٌ عَوَاطِفٍ وَمَعَانِ
مِنْ قُوَّةِ الْإِلْهَامِ وَالْإِيمَانِ
وَبِلَا هُدًى بِأَشْعَةِ وَأَغَانِ

^{٢٠} هي الممثلة الفنانة مارلين ديتريش بطلّة رواية «أنشودة الأنشاد».

فِيصِيبُ حَظَّ الشَّطِّ غَرُّ مَاكُرٍّ وَيَغِيبُ فِي الْيَمِّ الْفَتَى الْمُتَفَانِي
وَيُظَنُّ فِي هَذَا الْفَنَاءِ نَعِيمُهُ وَهُوَ الشَّرِيدُ وَإِنْ يُظَنُّ الْهَانِي!
وَكَأَنَّهُ سَيْفٌ هُنَاكَ مُشْطَبٌ أَلْقَتْهُ يَوْمَ الرَّوْعِ كَفُّ جَبَانِ^{٢١}

* * *

«مارلين»! مَنْ قَالَ الْحَيَاةَ رَحِيمَةً بِالْحَبِّ، حِينَ نَعِيشُ كَالْعَبْدَانِ؟
نَهَبُ الْحَيَاةِ أَعَزَّ مَا خَلَدَتْ بِهِ وَنُغَصُّ نَحْنُ بِكُلِّ مَا هُوَ فَانٍ
مَثَلَتْ مَعْنَى الرَّيْفِ حُلُومًا سَادَجًا كَالزَّهْرِ فَوْقَ الْعُشْبِ فِي نَيْسَانٍ
ثُمَّ الْحَيَاةُ بِخَيْرِهَا وَبِشَرِّهَا مِنْ حَيْثُ بَيْنَ النَّاسِ يَلْتَقِيَانِ
فَإِذَا الْغِنَى وَإِذَا الْفَقْرَةُ وَالْمَنَى لَا شَيْءَ حِينَ يُفَرِّقُ الْإِلْفَانِ

* * *

«مارلين»! مَنْ هُوَ بِالْجَمَالِ أَحَقُّ مِنْ وَاعِيهِ فِي نَحْتٍ وَفِي أَلْوَانِ؟
أَهْلُ الْخُلُودِ، وَكُلُّهُمْ مَتَشَرِّدٌ كَالْحَقِّ بَيْنَ مَعَالِمِ الْبَهْتَانِ
لَا كَانَتْ الْأَيْدِي الَّتِي لَمَسَتْهُ إِنْ لَمْ تَصْطَبِغْ بِعَوَاطِفِ وَبَيَانِ
حَمَلَتْ قَرَابِينَ الْجَمَالِ شُعُورَهَا فَبِكُلِّ كَفِّ شُعْلَةٍ وَأَمَانِي!
وَالدَّهْرُ يَقْطَعُهَا فَتَرْجِعُ فِي أَسَى لَا كَالْأَسَى، وَتَنْوُو بِالْأَحْزَانِ!

* * *

«مارلين»! يَفْنَى الْكَوْنُ قَبْلَ قَطِيعَةٍ بَيْنَ الْجَمَالِ وَمُبْدِعِ الْإِتْقَانِ
وَلئِنْ تَخَيَّلَ لِلْفَنُونِ حَيَاتَهَا فِي عُزْلَةٍ، فَبَرُوحِهَا رُوحَانِ
إِنَّ الْجَمَالَ هُوَ الْفَنُونُ تَوَحَّدَتْ وَتَدَفَّقَتْ بِشُعَاعِهِ الْفَتَانِ
فَإِذَا الْبَصِيرُ يُصَدُّ عَنْهُ مُوَلَّهَا وَإِذَا الضَّرِيرُ يُخَصُّ بِالْإِحْسَانِ!

* * *

«مارلين»! غَيْرُ الْعَدْلِ فِي الدُّنْيَا لَنَا عُقْبَى فَلَيْسَ الْعَدْلُ لِلْإِنْسَانِ
مَهْمَا أَضَاءَتْ لَنْ يَكُونَ مَصِيرُهَا غَيْرَ الظَّلَامِ لِأَنْفُسِ وَمَغَانِ
وَلَقَدْ أَثَرَتْ مَدَامَعِي وَمَبَاهِجِي فَإِذَا السُّرُورُ مَعَ الدَّمُوعِ رَثَانِي!

^{٢١} البيت للشاعر الفحل ابن حمديس.

بعد الكفاح

هذي بقايا القطن ترقد في الثرى
صرعى مجندلة ولكن بعدما
حتى النبات يرى الضحية واجباً
ويعيش بالبذل السخي، وموته
وينال منه الناس ثروة عيشهم
جهلوا التجارب للسمو فما سمو
وتطلبوا مجد الحياة، وإنما
يفنى ويعطي غيره من روحه
كجنود حرب بعد طول كفاح
صحت بأجمل نورها الوضاح
ومنى فليس يضمن بالأرواح
عيش، وكم في الموت من إفصاح
وكأنما هي ثروة الأشباح!
وغدا متاح الحظ غير متاح
مجد الحياة لمنقذ مناح
فتبت في الأرواح والأوضاع

الشهوات

عظمت! ... أنت وأنت وحدك من لها
من ذا سواك يفت في أعضادنا
كم من جهود ثم كم مال وكم
ضاعت وضاعت كالهباء، وكلنا
لو أن ما قد ضاع طوع خصومة
دين الهزيمة في بلاد النيل!
ويخص بالإصغار كل جليل؟
فضل أضيع ضياع مال بخيل^{٢٢}
ذاك الذليل محارباً للذليل
صناه كان تراث هذا الجيل

عدلي يكن

(رثاء الزعيم المصري الكبير وقد مات في باريس).

عدي يا ابن مصر إلى التراب الذي قدرك
إلى المغاني التي أودعتها زهرك
إلى الأمانى التي لقنتها سهرك
إلى المعالي التي أكسبتها أثرك

^{٢٢} لما يعقب ضياعه من الحسرة اللاذعة عنده.

حتى غَدُونَا حَيَارَى فِي إِسَارِ شَرِّكَ
مِنْ قَبْرِهِ، فَكَأَنَّ الرُّشْدَ قَدْ قَبَّرَكَ!
جِرَاكُهَا كَسَكُونِ وَالسَّكُونُ حَرَكُ
إِلَّا عُقُوقَ لُئِيمٍ يَشْتَهِي ضَرَرَكَ
عَلَى بِلَادٍ أَضَاعَتْ ضَلَّةً خَطَرَكَ
وَأَنْتَ تَقْنَعُ بِالْحَبِّ الَّذِي غَمَرَكَ
وَعَيْتُهَا فَإِذَا لِلْخُسْرِ مَنْ خَسَرَكَ
كَأَنَّمَا هِيَ لِلْوَحْيِ الَّذِي عَمَرَكَ
وَفَاؤُكَ السَّمْحُ لَا تَهْرِيجُ مَنْ غَدَرَكَ
مِنْهُمْ وَبَالٌ عَلَيْهَا طَالَمَا قَهَرَكَ
لَكِنْ عَلَى كُلِّ سَلَمٍ رَبُّهَا فَطَرَكَ
فَعُدْ تَنْظُرْ مَدَى الْحُزَنِ الَّذِي انْتَذَرَكَ
الْحَيَّ يَشْقَى وَيَلْقَى مَيْتُهَا كَدَرَكَ

عُدْ يَا زَعِيمًا جَحَدْنَا فَضْلَهُ زَمَنًا
يَا رَبُّ مَيِّتٍ كَأَنَّ الرُّشْدَ مَوْتَلَقُ
مَا فِي الْحَيَاةِ حَيَاةً بَيْنَ أُخِيلَةٍ
فِي مَوْطِنٍ مَا تَرَى لِلْوَجَابَاتِ بِهِ
أَبْكِيكَ لَكِنْ بُكَائِي كُلَّهُ حَرَقُ
تَمْشِي الْحَزَازَاتُ فِيهَا جَدَّ ثَائِرَةٍ
مَنَاهْلُ اللَّطْفِ وَالْإِيمَانِ رَائِعَةٌ
«عَذْلِي» وَمَا اسْمُكَ إِلَّا رَمَزُ مَنْقَبَةٍ
عُدْ يَا ابْنَ مِصْرَ إِلَى حِضْنِ أَحَقَّ بِهِ
كَمْ مِنْ حَيَارَى ادَّعُوا إِنْصَافَهَا، وَلَهَا
رُوحٌ كَرُوحِكَ لَمْ تُخْلَقْ لِمَعْرَكَةٍ
بَذَلْتَهَا بِذَلِّ مَنَاحٍ لَأَمَّتِهِ
هَذِي رَوَايَةُ مِصْرَ كُلُّهَا شَجُنُ

فلسطين الثائرة

قَدْ آتَى عَهْدُ الْحَرِّ يُكْتَبُ بِالدِّمِّ!
هَبَاءٌ إِذَا الْأَسْيَافُ لَمْ تَتَكَلَّمْ؟
وَإِنْ لَمْ يُغَنَّ الْمَوْتُ فِي كُلِّ مَأْتَمٍ؟
إِذَا كَانَتِ الْأَرْوَاحُ أَرْوَاحَ نَوْمٍ!

تَقْصَفُ يِرَاعِي! وَاصْمُتِ الْآنَ يَا فَمِي!
عَلَامَ صِيَاحِ النَّاسِ حِينَ كَلَامُهُمْ
وَإِنْ لَمْ يَدُ الْحَقُّ مِنْ كُلِّ مِدْفَعٍ
حَرَامٌ عَلَيْنَا أَنْ نُنَادِيَ بَبِقِظَةٍ

* * *

بَعَرَّتْهَا بِالرَّغَمِ مِنْ كُلِّ أَعْجَمِي
وَشَبَّانَهَا فِي وَحْدَةٍ لَمْ تُقَسِّمِ
وَتَكْتَسِحُ الْعَسْفَ الَّذِي رَاحَ يَحْتَمِي
فَإِنَّ انْكَسَارَ الْحَرِّ لِلنَّصْرِ يَنْتَمِي
فَمَنْهُ سَطُورُ الْحَقِّ يَقْرُؤُهَا الْعَمِي

وَتَائِرَةٍ فِي نَخْوَةِ الْعُرْبِ آمَنْتُ
مَشَتْ لِلرَّدَى فِي جَحْفَلٍ مِنْ شُيُوخِهَا
تَهْزُ حُصُونُ الظُّلَمِ فِي صِيحَةٍ دَوَتْ
وَتَرْجَعُ كُلَّمَا فِي شُمُوحٍ وَكُسْرَةٍ
وَتُضْمَنُ لِلْأَجْيَالِ بِالدِّمِّ حَقَّهَا

تَهَشُّ لِمَمْطُورِ الرِّصَاصِ كَأَنَّهُ سَخِيٌّ مِنَ الوَسْمِيِّ لِلرَّائِدِ الظَّمِيِّ
وهيهاتَ تحيا أُمَّةٌ ما تَعَرَّضَتْ لوابله، فالموتُ في جُبْنٍ مُنْعَمٍ!

* * *

«فلسطينُ»! يا دارَ النبوةِ! هكذا
تَخَذَتْ مِنَ النارِ المَطْهَّرةِ الحَمَى
فَعَلِمَتِنا مَعْنَى الكِرامَةِ والعُلَى
وكيف يُعَدُّ الموتُ أَكْرَمَ مُنْقِذٍ
وكيف العِذارى كَالشَّبَابِ وأَهْلِهِمْ
بأَسْلَائِهِمْ صَانُوهُ مِنْ صَدْمَةِ العِدَى
وما ندموا إِلَّا على أَنَّ مَنْ هَوَّوا
تَهَاوَوْا أَمَامَ الموتِ نَشَوَى بِفِرْحَةٍ
جُسُومٌ وَأَرْوَاحٌ تُضَحَّى رَخيصةً
فَتُوحَى وَتَفْنَى، والفناءُ بِقَاوِمِها

تَصِيرُ جِنَانُ الخُلْدِ دارَ جَهَنَّمَ!
حَلِيقُكَ في يومِ البلاءِ المَحْتَمِّ
وكيف العُلَى رَغَمَ الشَّقَاءِ المَخِيمِ؟
إِذَا المرءُ بالأَحْدَاثِ لَمْ يَتَعَلَّمِ؟
بِنَاءٍ لِهَذَا الهَيْكَلِ المَتَهَدِّمِ؟
وقد تَمَلَّوْا لَكِنْ بِغَيْرِ مُحَرِّمٍ
قَلِيلٌ، كَأَنَّ الحَيَّ يَحيا لِمَنْدَمٍ!
كَأَنَّ لَهُمْ في الموتِ فِرْحَةٌ موسِمٍ
وَلِكنَّها كَالشَّهْبِ بِالنُّورِ تَرْتَمِي
وَتُشْعِرُنَا بِالنَّبْلِ والرُّوحِ والدَّمِ!

دنيال في جُبِّ الأسود

مَثَلُ المَكِيدَةِ مِنْ حَسُودٍ «دَنِيالُ» فِي جُبِّ الْأُسُودِ
عَبَدَ الإِلَهَ مُوَحِّدًا لَا عَن ثَوَابٍ أَوْ وَعِيدٍ
بَلْ عَنِ عَقِيدَةِ مُؤْمِنٍ يَكْفِيهِ إِيمَانٌ يَذُودُ^{٢٣}
وَأَبَى لَهُ حُسَّادُهُ إِلَّا النِّكَايَةَ وَالْجُحُودَ
جَعَلُوا المَلِيكَ مُحَرَّمًا لِسَوَى المَلِيكِ دُعَا المَسُودِ
لَكِنْ «دَنِيالُ» النَّبِيُّ لَأَبَى التَّحَوُّلَ بِالْعُهُودِ
مَا كَانَ عَهْدُ الرَّبِّ إِلَّا عَهْدُهُ، فَلَهُ السُّجُودُ
وَمَضَى عَلَى إِخْلَاصِهِ لِلرَّبِّ لَا يَخْشَى الشُّهُودُ!

^{٢٣} يحميه ويصونه.



دنيال في جب الأسود.

* * *

وَإِذَا الْوُشَاةُ تَعَلَّقُوا لَمْ يَلْقَ عُذْرًا أَوْ مَفْرًا
وَهُوَ يَشْعُرُ بِالشَّرِّ فَمَضَوْا بِهِ لِلْجُبِّ وَالـ
مَلِكُ الْأَسِيفِ كَمَنْ هَلَكَ يَشْجَى «لَدَنِيَالٍ» الْحَبِيبِ
بِـ كَمَا شَجَا^{٢٤} دَاجِي الْحَلَكِ وَدَنَا الصَّبَاحُ فَرَاخَ نَحْـ
وَالْتَّخَوُّفِ مَا امْتَلَكَ وَدَعَا وَفِيهِ مِنَ التَّوَجُّسِ
مِثْلَانِ مَنْ لَمْ يَرْتَبِكْ فَأَجَابَهُ «دَنِيَالُ» فِي اطـ
لَكَ» بِفَضْلِ رَبِّي مَنْ مَلَكَ! أَنَا فِي أَمَانٍ يَا «مَلِيـ

* * *

دُ وَقَدْ بَدَا مَلَكُ لَهَا	فِي الْجُبِّ رُوِّعَتِ الْأُسُو
فَاهَا، تَخَافُ مَالَهَا	زَارَتْ وَكُلُّ فَاغِرْ
زِ كَمَا رَعَتْ «دَنِيَالَهَا»	رُدَّتْ عَنِ الْمَلِكِ الْعَزِيْ
مِ تَخَالُهُ أَجَالَهَا	حَرَسَتْهُ فِي اللَّيْلِ الْبَهِيْ
لُكُ وَقَدْ رَأَى إِجْلَالَهَا	حَتَّى تَلْقَاهُ الْمَلِيْ
أَعْطَى الْبِلَادَ نَوَالَهَا	فِي فَرْحَةٍ، وَكَأَنَّمَا
إِيْمَانَهَا وَجَمَالَهَا	وَلَقَدْ غَدَا إِيْمَانُهُ

* * *

خَدَعُوهُ نَفْسَ جَزَائِهِمْ	وَرَأَى الْمَلِيكَ جَزَاءَ مَنْ
لُ مَالِهِمْ وَثَوَائِهِمْ	فَلَدَى قَرَارِ الْجُبِّ عَدُ
مَكْرُ وَثُوبَ فَنَائِهِمْ	بُعِثُوا إِلَيْهِ فَمَا حَمَى ^{٢٥}
بَغُورِهِمْ وَذَكَائِهِمْ	كَمْ مُفْسِدِينَ تَوَرَّطُوا
مَا نَالَ مِنْ أَشْلَائِهِمْ	نَالَ التَّمَايِي مِنْهُمْ
النَّاسِ فِي غُلُوَائِهِمْ	بَذَلُوا الَّذِي بَذَلُوا لَشَرِّ
وَإِذَا الرَّدَى لِرَجَائِهِمْ!	فَإِذَا الْأَذَى لِحُظُوظِهِمْ

نُبْلُ الْخُصُومَةِ

وَلَكِنَّهُ نُبْلُ رِعَاهِ خَصِيمُ	وَمَا النُّبْلُ مَا تَلْقَاهُ مِنْ وَدِّ صَاحِبِ
كَرِيمٍ، وَلَمْ يَصْمُدْ وَزَلَّ لَنِيْمُ	إِذَا طَغَتْ الْأَحْدَاثُ جَاَزَ امْتِحَانَهَا
عَزِيْرًا نَبِيْلًا، فَالْكَرِيْمُ كَرِيْمُ	فَلَا نُبْلُ فِي وَدِّ إِذَا حَالَ لَمْ يَكُنْ

^{٢٥} منع.

عائدة

(أهديت إلى «عائدة الجديدة» الآنسة الفنانة فتحية شريف لمناسبة تمثيلها البارع لدور عائدة).

«رداميس» قد عاد يا «عائدة»
إلى أَمَلِ الحُبِّ ملءَ الحياةِ
أَفِيقِي مِنَ السَّنَةِ المُنْتَهِي
أَفِيقِي وَحَيِّي غِرَامَ الفُنُونِ
لِسُمْرَتِهَا نَشْوَةَ فِي العُيُونِ
أَفِيقِي وَعُودِي كَعُودِ الحيا
تَطْلُعْ بَعْدَ الحَيَا للحياةِ
فَعُودِي إِلَى رُوحِهِ البَائِدَةِ
فَمَا غَيْرُهُ نِعْمَةٌ سَائِدَةٌ
إِلَيْهَا هَوَى مُهْجَتِي الشَّارِدَةِ
بَطْلَعَتِكَ الحُلُوةِ المَاجِدَةِ
وَأُخْرَى بِأَفْنِئِدَةٍ عَابِدَةٍ
إِلَى التُّرْبَةِ الرِّثَّةِ الهَامِدَةِ
وَتَنْشُقُ مِنْ رُوحِكَ الخَالِدَةِ

* * *

تَعَالَيْ إِلَى مَسْرَحِ للحياةِ
لَقَدْ نَسَخَ الدَّهْرُ أَيَّ المِمَاتِ
لَنْ لَمْ تَنَالِي أَمَانِي أَمْسِ
تَعَالَيْ! تَعَالَيْ! فَدُنِيَا الفُنُونِ
تَعَالَيْ إِلَى عَارِفِي قَدَرَهَا
يَصُونُونَ رَقْصَكَ أَشْعَارَهُمْ
وَمَا الفَنُّ إِلَّا حَيَاةُ التَّجَا
بَرْقَصَتِكَ السَّمْحَةِ الآمَنَةِ
وَعُدْنَا إِلَى غَيْرِهَا فَاتِنَةِ
فَلِلْيَوْمِ أُخْرَى لَهَا دَائِنَةٌ
تَحْيِي مَفَاتِنِكَ الكَامِنَةِ
أُولِي الشَّعْرِ فِي اللِّهْفَةِ الصَّائِنَةِ
وَلَوْ نَظَرُوا نَظْرَةً مَاجِنَةً
وَبَيْنَ عَوَارِفِكَ الهَاتِنَةِ!

ديوني

لَقَدْ زَادَ عِبْنِي مِنْ دُيُونٍ كَثِيرَةٍ
وَلَسْتُ وَإِنْ حَاوَلْتُ أَرْضَى سَدَادَهَا
وَكَيْفَ لِمَثْلِي أَنْ يَرُدَّ مَفَاتِنَا
دَعِينِي إِذَنْ كَالطِّفْلِ أَلْهُو مُحَاوَلًا
عَلَيَّ فَخَلَّيْنِي أَرْدُ دِيُونِي
وَهِيَهَاتَ مَهْمًا قَدْ أَطْعَتْ جُنُونِي!
تَنَاوَلْتُهَا مِنْ سَاحِرَاتِ عُيُونِ؟!
سَدَادَ دِيُونٍ فَوْقَ كُلِّ دِيُونٍ

أَقْبِلْ هَذَا الْحَسَنَ مِنْ كُلِّ مَشْرَعٍ عَلَى نَهْمٍ مِنْ رَوْعَةٍ وَفَنُونٍ
لِعَلِّي وَإِنْ قَصَّرْتُ أَبْلَغُ مُحْسِنًا رِضَاكَ بِتَقْبِيلِي وَوَحْيِ فُتُونِي!

شيخ الصحافة

(رثاء الصديق الكاتب الطائر الصيت الأستاذ داود بركات رئيس تحرير «الأهرام».)

وَدَّعْتَ يَوْمَ رَحَلْتَ أَحْزَنَ دَارٍ وَخِيَ الْبَيَانَ السَّمْحَ أَيْنَ مُجَاجُهُ؟
زَهَبَتْ بِشَاشَتِكَ الْحَبِيبَةُ مِثْلَمَا وَهَبَ الْغُرُوبَ حَنَانُهُ وَجَمَالُهُ
حَتَّى غَمَرْنَا مِنْ تَجَاوُبِ رُوحِهِ فَإِذَا الصَّدَى مِلءُ الصَّدَى وَإِذَا الشَّجَا
وَإِذَا الْمَسَامُحُ وَالْعَيُونُ كَلِيلَةٌ فَالْحَزَنُ فِي الْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ!

* * *

«سَيِّحُ الصُّحَافَةِ»! تِلْكَ أَكْرَمُ رُتْبَةٍ لَوْ أَنَّ لِي النِّعَتَ الْأَبْرَّ بِرَبِّهَا
هِيَ هَاتِ أَنْسَى مَا وَهَبْتَ تَأَلُّقًا سَكَنَ الْأَبَاةُ إِلَيْكَ فِي إَعْيَانِهِمْ
وَلَكُمْ وَصَفَتْ مُورِّخًا وَمُحَدِّثًا تُلْقِي الْعِظَاتِ كَأَنَّمَا فِي وَزْنِهَا
وَمِنْ الْقُلُوبِ النَّابِضَاتِ عَوَالِمٌ قَدْ زِدَتْهَا قَدْرًا عَلَى أَقْدَارِ
آثَرْتُ أَنْ تُدْعَى «أَبَا الْأَحْرَارِ» وَتَحَرَّرًا كَالنُّورِ فِي النُّوَارِ
وَأَتَى الْهُدَاةُ إِلَيْكَ فِي الْأَخْطَارِ كَالدَّهْرِ بَيْنَ بَنِيهِ غَيْرَ مُجَارِي
وَجَلَالِهَا هِيَ لَفْظَةُ الْمَقْدَارِ وَمِنْ الْقُلُوبِ الْبَالِيَاتِ عَوَارِي!

* * *

أَدَبَ الرِّوَائِعِ أَيْنَ أَيْنَ زَعِيمُهُ جُذِبُوا إِلَيْهِ، كَأَنجَمِ وَضَاءَةٍ
شَاخَ الزَّمَانُ وَعَشَتْ أَنْتَ فَتَيُّهُ فَتَوَلَّفَ الشَّمْلَ الَّذِي آثَرْتَهُ
فِي مَجْلِسِ الْأَعْلَامِ وَالْأَخْيَارِ؟ جُذِبَتْ حَيَالُ الْكُوكِبِ السَّيَّارِ
وَكَبَا الشَّبَابُ وَأَنْتَ فِي الْمَضْمَارِ لِحْيَا مِصْرَ بَعْقَلِكَ الْجَبَّارِ

فكأننا الأهرامُ قد أُوْحِتْ بما
وكانَ آلافَ السنين استودعتْ
فجرتْ بروح الشرقِ في فيضانها
حتى انتبهنا عندَ فِقدِكَ في أَسَى
وكاننا غَرَقَى المَصَابِ، فكلُّنا
أُوْحيتَ من رُوحٍ ومن أسرارِ
أنهارك المعبودَ من أنهارِ
جَرَى الحياةِ على مديدِ صَحارِ
فوقَ الأسَى مِن صدمةِ الأقدارِ
مَتَخَبَّطٌ في صاحبِ التَّيَّارِ!

* * *

«داودُ» لن أنسى محبتك التي
وحديثك العذب الذي نفحاته
أحيَتْ وقد حفلت بمصرَ وأهلها
مَنَنْ عليَّ ولستُ واحدَها فكم
حتى ثارت من الزمانِ وأهلِهِ
وَحَيِّيتْ كعبةَ كلِّ حُرٍّ مُصلِحِ
فالْيَوْمَ تدمعُ للمروءةِ عينُها
عمرتُ وسوف تَجَلُّ في الأعمارِ
صلواتُ «داودِ» على المزمارِ
حَفَلِ الأصيلِ بأهلِهِ الأبرارِ
أَسَدَيْتَ مِنْ مَنَنْ وَمِنْ إِيثارِ
بالنُّبْلِ واستعذبتُ أخذَ الثَّارِ
وبقيتَ ملجأهم من الفُجَّارِ
واليومَ نمشي في فجاجِ النارِ!

* * *

لا كُنْتَ يا يَوْمَ المَصَابِ تَجَنِّيَا
أَدْرَيْتَ أَنْكَ قد نَكَبْتَ مَرُوعَا
تَرَبَّدُ أَفَاقٌ على حَسَرَاتِهَا
وتكاد تلمحُ للِمَمَاتِ وَإِنْ جَنَى
أَعْلَمْتَ أَنَّ البِرَّ يُفْجَعُ بَعْدَهُ
صَلُّوا عليه ومثله يَغْنَى غِنَى
وَمَشَوْا مِائَاتٍ في الخُشُوعِ، ونعشُهُ
أَغْنَاهُ إِكْلِيلُ المَآثِرِ وحدها
سَادَ السُّكُونُ كأنما ساروا به
وتَأَمَّلُوا دُنْيَا الغُرُورِ بحسرةٍ
وكاننا الدنيا خيالَ مُزْعَجٍ
فإذا المودعُ في الخُلُودِ مَوْسَدُ
نحيا بعصرٍ للمناحةِ وحدها
وَشَجَى على الآمالِ والأوطارِ
أُمَمَ العروبةِ في الزعيمِ الدَّارِي؟
والشُّهْبُ تَلْمَعُ خَلْفَهَا بَشَارِ
قَبَلَ الحَيَاةِ شَعُورَهُ بِالْعَارِ
في المُحْسِنِ المَتَنَكِّرِ المَتَوَارِي؟
بالنُّبْلِ عن صلواتِ هَذِي الدَّارِ
كالْفَاتِحِ المحفوفِ بالأنصارِ
عن أَنْ يُكَلَّلَ نَعَشُهُ بِالْغَارِ
مَتَحَدِّثِينَ إِلَيْهِ في الإِضْمَارِ
عَزَّتْ، ووحشةِ أدمعِ أَبْكَارِ
يَتَجَلَّدُونَ إِزَاءَهُ بوقارِ
وإذا المودعُ في أسَى وَصْغَارِ
فكأنما هو مدفنُ الأعْصَارِ!

فندق الحياة

جئنا إلى الدنيا ضيوفَ خداعها
ونرى بفندقها الحياة تناقضًا
تجري الحوادثُ بيننا بتناسقٍ
ندري وما ندري علاقةً بعضها
حتى كأننا في تخيلٍ حالمٍ
دُنيا الخداعِ فلا حقيقةَ عندها
فإذا الضيافةُ كلُّها إرهاقُ
في طيِّها الإثراءُ والإملاقُ
وجميعُها متنافرٌ أفاقُ
بالبعضِ بل قد يُطرقُ الخلاقُ!
بالصفوِ والدِّم في يَدَيْهِ يُراقُ
وقوامُها الأوهامُ لا الأرزاقُ!

الشارع الخلفي

«أيرين»^{٢٦} فيك عواطفِي وحياتي
مَثَلْتِ دنيا الحبِّ خانَ حُظوظها
قَدَرْتُ يَعدُّ مِنَ الخطيئةِ كلَّ ما
كم نحن نَصْفُحُ عن مَدَى إجْرامِهِ
يُشْقي الأنامَ إذا أضاعوا لحظةً
قَدَرْتُ أبى لك ما اشتَهيتِ مِنَ المُنَى
فحييتِ أشرفَ ما حييتِ على الضنى
أَعْطَيْتِ عُمرَكَ للغرامِ وفِيَّةً
وحَيَّيتِ عنوانَ الضحيةِ عَذْبَتِ
ترعين مَنْ أَحَبَّبتِهِ وَحَبَّوتِهِ
والدهرُ يَأْبَى أَنْ تَعيشَا عيشَةً
فخلقتِ مِنْ أحْزانِهِ فرحًا كما

فيك الحياةُ تفوقُ كلَّ حياةٍ
قَدَرْتُ مَوَاتٍ وهو غيرُ مَوَاتِي
أوحاه بالأحكامِ والعاداتِ
ولديه نَشَقَى نحن بالهفواتِ
وهو المضيُّعُ أنْفَسَ اللحظاتِ
وهو الغباءُ أو الجنونُ العاتي
والوهمِ والحسراتِ والعثراتِ
وقضيتِ عُمرَكَ في جحيمِ عُدَاةٍ
واستعذبتِ أشْجانها النضراتِ
بالْحُسْنِ والأحلامِ واللذاتِ
سلمتِ مِنَ التجريحِ والحسراتِ
أبدعتِ مِنْ نيرانِهِ جناتِ

^{٢٦} هي الممثلة المبدعة «أيرين دون» بطلاة الفلم الإنساني «الشارع الخلفي».

ورأى الوفاة دُعاكَ قبلَ وفاةٍ
وأجبتَه بالدمعِ والصيحاتِ
فذهبتِ ظافرةً بَغْنَمِ مماتٍ!

حتَّى إذا القدرُ الغشومُ أصابَه
فسمعتَه همساً بسمعِ مِسْرَةٍ^{٢٧}
وحيتِ ترجينِ المماتِ وقد دنا

الحسنة والهيكل العظمي

وهل عالمٌ بالحسنِ والحبِّ ضائعٌ؟
وتَنبُعُ منها للحياةِ الروائعُ
مَعانٍ تناءتْ عن مَذاها المنابعُ
فصيحاً نُحْيِي سِحْرَهُ ونُطالِعُ
مَعانيه لم تُفْسِدْ سناها الطبايعُ
تُناجيه في الكونِ الذي هو تابعُ
فليس لِمِرايَ الحسنِ في الكونِ خادعُ

رأَتْ حُسْنَهَا الأخاذَ للحبِّ عالماً
رأَتْهُ حياةً ينبضُ الخُلْدُ مِلاها
مَعانٍ يُبينُ الحسنُ عنها، وكلُّها
هي المُبْهَمُ المجهولُ مهما يَبْنُ لنا
فصارت تُناجِي حُسْنَهَا كلُّما بدتْ
تُناجيه في المِراةِ حيناً وتارةً
وما خدعتْ مِراةَها أو جمالَها

* * *

كما يَجْمَعُ الخصمينِ في العيشِ جامعُ
قَرينٌ لِحُسْنِ كُلِّ ما فيه ساجعُ
وفيه حَنانٌ للملاحَةِ خاشعُ
لديه، أم الحسنِ المقدَّسِ شائعُ؟
ويَذْهَبُ ما تحنو عليه الأضالعُ؟
وهل هو مِن قبلِ المنيةِ ضائعُ؟
وكم مِن صُموتٍ ساحرٍ النطقِ رائعُ
ومن عِزَّةٍ حينِ المِعْزَزِ جازعُ
وفيه تناهتْ ما تُكِنُّ الشرائعُ

وقد يَجْمَعُ الضدَّينِ في الفنِّ جامعُ
ولأ فكيكُ الهيكلِ الميتِ اللُّغى
دَنَتْ منه في مِثْلِ الخشوعِ كما بدا
تُساوِلُهُ: هل غايةُ الحسنِ غايةُ
وهل تَغْتدي في صورةِ كعظامِهِ
إلى أيِّ حَظٍّ ينتهي في جلالِهِ
فراقبَها في بَسْمَةِ مِن صُموتِهِ
وحَيَّرَها مِن راحةِ لفنائِهِ
كَأَنَّ به للفيلسوفِ بصيرةً

^{٢٧} المِسرة: التليفون.

شعر الديوان

تَمَرُّ بِهِ الْأَحْدَاثُ وَهُوَ مُرَاقِبٌ
وَقَدْ وَقَفَا صَنَوَيْنِ، حِينَ كِلَاهُمَا
وَحَارًا وَحَارًا فِي الْوُجُودِ وَمَا بِهِ
هُوَ الْعَيْشُ فِي الدُّنْيَا سَكُونٌ بِثُورَةٍ
وَكَمْ مِنْ جَمَالٍ يَمْلَأُ الْعَيْنَ رَوْعَةً
وَهَلْ كَانَ فِي الدُّنْيَا سِوَى الْمَوْتِ عِزَّةً
حَكِيمٌ، وَتَمْشِي بِالْحِظْوِظِ الْفَجَائِعُ
حَيَاةً وَمَوْتَ ضَيِّقُ الْحَصْرِ شَاسِعُ
إِذِ الْعِلْمُ مِثْلُ الْجَهْلِ لَهْفَانُ وَادْعُ
وَكَمْ مِنْ سَلَامٍ دَاعَبَتْهُ الْمِصَارِعُ
وَفِيهِ مَجَالٌ لِلْمُنِيَةِ صَادِعُ
تُصَانِعُهُ الدُّنْيَا وَلَيْسَ يُصَانِعُ؟

* * *

فَلَمَّا أَطَالَتْ لَهْفَةً بَعْدَ لَهْفَةٍ
مَشَتْ فِي أَسَى كَالْهَيْكَلِ الرُّثِّ سَاقَةً
تُسَائِلُهُ حِينًا وَحِينًا تُسَامِحُ
عَلَى الْبَحْرِ غَمْرًا مَوْجُهُ الْمَتَدَاعُ؟

عقاب الغدر

نَزَهْتُ نَفْسِي عَنْ إِسَاءَةِ غَادِرٍ
وَأَخَذْتُ أَرْقُبُ كُلَّ مَا أُوْحِتَ بِهِ
فَإِذَا الْمَآسِي وَالْمَهَازِلُ جُمِعَتْ
مَلْهُى الْحَيَاةِ، وَهَلْ لَهَا مَلْهُى سِوَى
لَمْ أَلْقَ غَيْرَ النَّأْيِ مُنْصَفَ حِكْمَتِي
كَمْ مِنْ مَطَاعِنٍ لِي تُكَالِ كَانُهَا
بَاعَ الصَّدَاقَةَ بِاسْمِ كُلِّ صَغَارٍ
نَزَوَاتُهُ بِالْعَارِ بَعْدَ الْعَارِ
فِي طَيْشِهِ الْمَتَفَنِّ الْغَدَارِ
مَا سَاءَ مِنْ أَبْنَائِهَا الْأَغْرَارِ؟
إِنْ عُدَّ طَيْشِي الْوُدُّ أَوْ إِيثَارِي
شَرَفٌ يُكَلِّلُ هَامَتِي بِالْغَارِ!

قوميتي

أَبْنَاءَ قَوْمِي إِنِّي لَا أُمَالِقُكُمْ
أَنْفَقْتُمُ الْعُمْرَ أَخْصَامًا كَأَنَّ مَدَى
أَمَا عَلِمْتُمْ بَأَنَّ الْحَقَّ مُضْطَهَدٌ
لَمْ يُعْرِفِ الْحَقُّ يَأْتِي مَنَحَةً أَبَدًا
لَيْسَ التَّمَلُّقُ مِنْ طَبْعِي وَلَا دَابِّي
هَذَا الْخُصُومَةَ مَلْهَةً لِأَحْزَابِ
وَإِنْ يَكُنْ أَهْلُهُ أَرْيَابَ أَرْيَابِ
بَلْ يُؤْخِذُ الْحَقُّ دَوْمًا أَخَذَ غَلَابِ

* * *

أحيا وأُننَى أَنَا حِيَّتُكُمْ وَأَنْصَحُكُمْ
لَنْ تَبْلُغُوا حَقَّكُمْ إِلَّا بِوَحْدَتِكُمْ
وَلَنْ يَكُونَ بَخِيرٌ مَنْ يُفَرِّقُكُمْ
خَيْرٌ لِمِثْلِي أَنْ تُؤْذِيَ كَرَامَتُهُ
وَأَنْ أَعِيشَ كَجَنْدِيٍّ عَلَى شَرْفِي
وَلَوْ رُجِمْتُ بِأَشْيَاعِي وَأَحْبَابِي
لَا أَنْ تَبِيتُوا ضَحَايَا كُلِّ إِرْهَابٍ
إِلَّا وَأَنْتُمْ كَأَنْعَامٍ وَأَسْلَابٍ
بِالْصَدَقِ عَنْ مَدْحِ أَفَاقٍ وَكَذَابٍ
مَنْ أَنْ أَعِيشَ بِخَزْيٍ عِيشَ أَقْطَابٍ

الخيانة العظمى

(لهفة إلى صاحب العرش.)

مولاي! وَحْدٌ بِالزَّعَامَةِ أُمَّةٌ
صَغِرُوا وَخَانُوا عَهْدَهُمْ لِبِلَادِهِمْ
لَمْ يَتْرَكُوا شَعْبًا وَلَا حَقْدًا وَلَا
وَمِنْ الْعَجَائِبِ أَنَّهُمْ لَوْ مُحْصُوا
فَبَأْيِ حِلْمٍ أَوْ لَأَيَّةِ مَلَةٍ
وَلَأَيِّ حَالٍ يَسْتَمِرُّ كِفَاحُنَا
لَمْ يَبْقَ غَيْرُ الْعَرْشِ مَلْجَأَ هَمُّنَا
تَلَقَّى مِنَ الْأَحْزَابِ كُلِّ هَوَانٍ
بَخِيَانَةِ الْإِخْوَانِ لِلْإِخْوَانِ
سَوْءًا وَلَا ضَعْفًا مِنَ الْأَضْغَانِ
كَانُوا رِجَالَ النَّبْلِ وَالْعِرْفَانِ!
يَتَقَاتِلُونَ تَقَاتِلَ الْحَيَوَانِ؟
بَعْدَ الَّذِي نَلْقَاهُ مِنْ خَذَلَانِ؟
وَمَثَابَةَ الْأَمَالِ وَالْإِيمَانِ

غُمني ودَيني

كَمْ مِنْ مَطَاعِنَ لِي تُزْفُّ فَأَشْتَهِي
كَفَلْتُ ظُهُورَ ذَوِي الدَّنَاءَةِ بَعْدَمَا
أَهْلًا بِهَذَا الْغَدْرِ يُكْشَفُ سِتْرُهُ
وَقَدْ اشْتَرَيْتُ كَرَامَتِي بِشُرُورِهِمْ
لَوْ أَدْرَكَ السَّفَهَاءُ غُمنِي بَعْدَمَا
إِنِّي الْمَدِينُ لِبَرِّهِمْ بِجُنُونِهِمْ
أَلَّا تَزُولَ، فَلَنْ أَكُونَ غَبِينًا
كَانُوا يَدُسُّونَ الْأَذَاةَ فُنُونًا
فَأَرَى بَعِينِي الْخَسِيسَ الدُّونَا
حَتَّى أَعِيشَ مُنْزَهًا وَمَصُونًا
جَانِبَتُهُمْ عَدُوًّا الْأَذَاةَ جُنُونًا
وَسَأَعِيشُ مَا حَمَلُوا عَلَيَّ مَدِينًا!

القلب المتفجر

(إلى الممثلة الشهيرة السيدة زينب صدقي.)

سمعتُ شَكَاتَكَ يا غَانِيَهُ
فهل كنتِ إِلَّا فؤَادِي الكَلِيمِ
أُعِيدِي عَلَيَّ حَدِيثَ الشُّجُونِ
وَزَيْدِي تَأْجُجَ نَارِي التِّي
فما النارُ إِلَّا لأَهْلِ الفَنُونِ
أُعِيدِي أُعِيدِي الهوى والعَذَابِ
أُطَهِّرُ نَفْسِي بما أَسْبَغَاهُ
وَضَحَكَتِ الحُلُوةُ العَانِيَهُ
نَفَجَّرَ بالأَدْمَعِ القَانِيَهُ!
وَقُصِّي مَصَارِعَهَا البَاقِيَهُ
أَعِيشْ بِهَا شُعْلَةً فَانِيَهُ
ولو سَكُنُوا الجَنَّةَ العَالِيَهُ
عَلَيَّ فَأَحْيَاهُمَا ثَانِيَهُ
عَلَيْكَ مِنْ اللَهْفَةِ السَامِيَهُ

* * *

ضَحَكْتَ فما كنتِ إِلَّا السَّمَاءَ
تَجَلَّتْ بِألَوَانِ وَحْيِ الرِّبْعِ
وَجَادَتْ بِسِحْرِ الجَمَالِ الطُّرُوبِ
وَكَمْ مِنْ وُرُودٍ بَرغمِ الأَسَى
وليس لها غير رُوحِ الفَنُونِ
تُقَهِّقُهُ عن ثُورَةٍ خَافِيَهُ
ولكنَّهَا في أَسَى بَاكِيه
وَمِنْ خَلْفِهِ حَسْرَةٌ جَانِيَهُ
تَسْرُّ بِمُهْجَتِهَا الدَامِيَهُ
عِزَاءً، ولكنَّهَا قَاسِيَهُ^{٢٨}

يا للغباء!

يا لَلْغَبَاءِ! أَصَارَ مِثْلِي يَسْتَحْيِ
أَهْلًا دُعَاةَ السُّوءِ! لَيْسَ يَضِيرُنِي
قُولُوا كَمَا شَاءَ الجُحُودُ وَأَسْرِفُوا
مِنْ شَتْمِهِ وَأَنَا العَزِيزُ بذَاتِي؟
إِلَّا افْتِقَادَ شَجَاعَتِي وَأَنَاتِي
حَتَّى تَبَيَّنَ^{٢٩} عَنِ الجُحُودِ حَيَاتِي

^{٢٨} أي روح الفنون.

^{٢٩} تبعد.

هيهات أندم، فالعقوق وإن قسا
فيم الندامة إن شتِمتُ دناءةً
النحلُ يُعطي الشهدَ جودًا سائغًا
ويظلُّ يدأبُ في وفاءٍ بالغِ
يَشْقَى وَيَشْقَى مانحًا، فإذا أبى
فسدتْ مقاييسُ الزمانِ فلم يَعُدْ
نعمُ الصديقُ، فكم يُبينُ ٣٠ عِداتي
وجزاءَ ما أسديتُ من حسناتٍ؟
ولكم يكافئهُ الورى بأذاةٍ
لرسالةِ الأحياءِ والأمواتِ
عسفَ الطغاةِ شكوهُ أيِّ شكاةٍ
إلا التَّخَبُّطُ في المحيطِ العاتي!

بعض العزاء

حَمْدًا لَكَ اللَّهُمَّ! لم أرَ مرةً
خَيْرَ عَنائِي مِنْ خِيَانَةِ غادِرٍ
بَعْضُ الْعَزَاءِ — وَمُرُهُ حُلُو الْجَنَى —
آثَرْتُ أَنْ أَفْنَى شهيدَ مبادئي
شَرًّا سِوَى مِمَّنْ وَفَيْتُ إِلَيْهِ
مَنْ أَنْ يُقَالَ فَتَى جَنَيْتُ عَلَيْهِ
أَلَّا أَقَاتِلَ مَنْ طُعِنْتُ لَدَيْهِ
وَدَمِي الْوَفَى يُرَاقَ بَيْنَ يَدَيْهِ!

تجني الرياء

يا مَنْ تَجَنَّنَا عَلَى قَلْبِي وما رَجِمُوا
بَكَيْتُ لو أَنَّنِي أَرْضَى مَوَدَّتَكُمْ
كفْتُ سَنِينَ مَنَحْتُ الْوَدَّ أَخْلَصَهُ
لا تذكروا ذلك الماضي فقد دُفِنْتُ
لا خَيْرَ فِي الْوَدِّ لا يَحْيَا عَلَى زَمَنِي
ولا بِقُرْبٍ جَدِيدٍ جَدِّ مُصْطَنَعٍ
هَيَّا تَجَنَّنَا فَإِنِّي زَاهِدٌ فِيكُمْ
لَكُنْهَا مِنْ رِيَاءٍ فِي مَبَانِيكُمْ
لكم، فضاء ودادي في تجنيكم
زُهورُهُ بِقُبُورٍ مِنْ مَاسِيكُمْ
ولا بَوَصْلٍ تَنَاهَى فِي تَنَائِيكُمْ
وذاك وَجْهُ الْمُرَائِي فِي مَرَائِيكُمْ!

٣٠ يظهر.

موت النسور

(رثاء الطيارين المصريين فؤاد عبد المجيد حجاج وشهدي دوس، وقد سقطا ميتين في أرض فرنسية في طريق عودتهما إلى مصر في ١٨ نوفمبر سنة ١٩٣٣.)

كذا فليطر للموت مَنْ مات واستغنى
كذا فليكنْ هزلُ الحياةِ وجْدها
كذا فليضمَّ الموتُ أحلامَ أمةٍ
طلبنا الهواءَ السَّمَحَ عند اختناقنا
فيا فرحةً قد أعقبتْ شرَّ حسرةٍ
أكانَ عزيزًا أن يُوجَّلَ رَوْعنا
شهيديان قد راحا ضحيةَ جُراةٍ
لئن فاتنا تكليلُ رأسيهما علَى
وقد سقطا في حُبِّ مصرٍ بشعلةٍ
شبابٌ لهم إلهامُ شَعْبٍ مكبَّلٍ
فإن فقدَ السَّرْبُ الفخورُ كليهما
وقد بعثَ الموتُ الحياةَ بأمةٍ
فهبُّوا على الآلامِ هبَّةَ مؤمنٍ
سبيلُ الضحايا وحده نهجُ أمةٍ
ونهجُ الأماني في سُكونٍ وغفلةٍ

عن المجدِ في دُنْيا نَضِيقُ بها مَعْنَى
فنفتقدُ الروحَ الذي نَظَّم الكونا
فترغمُهُ رَدًّا وتثقلُهُ دِينا
فلما بَلَّغناهُ لقينا به الغبنا
وقد تُعقبُ الأفراحُ في وثبها الحزنا
إلى أن ينالَ الطيرُ في وكرهِ الأمان؟
ولكنَّما قد جرَّد الموتُ مَنْ مَعْنَى
فقد بَلَّغا فوقَ الذي نحْنُ بجلِّنا
وفي شُعلةٍ عاشا، فعاشا بها مثنى
وقد أقسموا يَفنُّون عَزْمًا ولا يَفْنَى
فما عرفَ الفقْدَ الذي رادفَ البينا
وكم قد رأينا الموتَ بالخلقِ مفتنًا
بما يُنصفُ الأوطانَ والذكرَ والفنا
نَسْقُ الدُّجَى كي تبلغَ المأربَ الأسنى
هو المدفنُ الأوفى لمن يَرتضي الدفنا

* * *

برغمِ الشَّبابِ الحُرِّ يا رمزَ رُوحِهِ
تحوطكما أنفاسنا وحناننا
فلم تُحرقا إلَّا وأنفاسنا لظى
ولم تُطعنا مِنْ خدعةِ الحظِّ ميتةً

مَماتُكُما في نكبةٍ رَمَزها أَهْنا
إذا القَدْرُ العاتي تابَى وما حَنّا
وقد نِلتما التخليدَ أو حُرِّمنا عَدنا
فنحن الألى ذُقنا المنيّة والطعنا!

عيش الألوهة

مَنْ لِي بَأَن تَدَعَ الْحَيَاةَ تَغْلُغْلِي
حَتَّى أَعِيشَ بِلُبِّهِ وَصَمِيمِهِ
لَا تُرْجِعُونِي لِلْحَيَاةِ بَبَقْظَةٍ
بَلْ فَاتَرَكُونِي فِي سَعَادَةِ حَالِمٍ
يَنَسَابُ فِي رُوحِ الطَّبِيعَةِ رُوحَهُ
وَكَأَنَّمَا الْأَشْجَارُ مِنْ خِلَالِهِ
وَكَأَنَّمَا النَّيْلُ الْحَبِيبُ خَوَاطِرِي
وَمِنْ الْحَقُولِ مَسَارُحُ لِعَوَاطِفِي
وَمِنْ الْأَشْعَةِ حَامِلَاتُ رَسَائِلِي
يَتَجَاذِبُ الْكَوْنُ الْفَسِيحُ تَهَافُتِي
وَكَأَنَّنِي أَنْسَيْتُ نَفْسِي عِنْدَهُ
فَقَدَوْتُ مِنْ أَجْزَائِهِ، وَلِمَحْتُ فِي
فَإِذَا رَجَعْتُ إِلَى الْحَيَاةِ وَأَهْلِهَا

فِي كُلِّ أَلْوَانِ الْجَمَالِ أَمَامِي
عِيشَ الْأُلُوهَةِ فِي مَدَى الْإِلْهَامِ
هِيَ كَالْمَمَاتِ قَتِيلَةُ الْأَيَّامِ
ذَاقِ النِّعِيمِ الْحُلُوَّ فِي الْأَحْلَامِ
فَكَأَنَّمَا هِيَ رُوحُهُ الْمُتَسَامِي
وَتَجَاوَبُ الْأَصْدَاءِ وَقَعُ كَلَامِي
تَجْرِي أَمَامَ تَلْهُفِي الْمَتْرَامِي
وَبِكَلِّ نَبْتٍ لَهْفَتِي وَأَوَامِي
لِهَوَايَ، أَوْ مِنْ حَامِلَاتِ غَرَامِي
بَيْنَ الظُّلَامِ وَنُورِهِ الْبَسَامِ
وَصَعَدْتُ فَوْقَ مَشَارِفِ وَغَمَامِ
أُنْدَائِهِ، وَعَرَفْتُ فِيهِ سَلَامِي
فَلَقَدْ رَجَعْتُ إِلَى أَدَى الظُّلَامِ!

وحدتي

وَحْدَتِي! وَدَعْتُ أَطْيَافِي وَقَدْ غَابَ وَدَاعِي
أَنَا كَالصَّخْرِ وَلَكِنْ مَيِّتٌ دُونَ نَفَاعِ
أَطْفَاتُ أَحْلَامِي الْأَيَّامِ إِطْفَاءُ الشُّعَاعِ
لَمْ تَعُدْ لِي ذِكْرِيَّاتٌ لِمَحَبٍّ أَوْ شُجَاعِ
كُلُّ مَا حَوْلِي خَوَاءٌ فَهُوَ زَادِي وَمَتَاعِي
سَمِئْتُ نَفْسِي غُرُورَ الْعِيشِ وَالْحُبِّ الْمُضَاعِ

* * *

أَيُّهَا الصُّوفِيُّ فِي لَهْوٍ وَفِي دِينٍ مُطَاعِ
أَنَا مَنْ يَهْدِيكَ لِلنِّعْمَةِ لَوْ تَرْضَى اتِّبَاعِي

قد بلوتُ الحلوَ والمرَّ وألوانَ الطِّباعِ
 فإذا العُزلةُ عن كلِّ طُمُوحٍ وطَماعِ
 وإذا الغفلةُ عن دنيا جنونٍ وصراعِ
 وإذا الإيمانُ بالوَحدةِ والموتِ المشاعِ
 هي نخرٌ من حياةٍ وسُموٍّ وابتداعِ
 رَبِّ ميتٍ دونَ نفعٍ هو بأسٌ في قناعِ
 كمننٌ فيه حياةُ الموتِ في مثلِ القلاعِ
 لا يُبالي، وهو في مَثَواه في مَثَوى الرِّماعِ
 يجذبُ الأحياءَ والأحياءُ حيرى في نزاعِ!

* * *

وحدتي إن كنتَ موتًا فوقَ سَنٍّ واشتراعِ
 فلقد جدَّتِ عُمرِي بعد عُمرِي المستطاعِ
 إن أقسى الموتِ في صُحبةِ أحبابي الجِيعِ!

نشيد النيروز

عَيْدِي يا غُصُونُ وافرِحِي مثَلنا
 قد حواكِ السكونُ في جلالِ الغنى!
 يا عَوالي النَّخيلُ في شُمُوخِ الطَّهارةِ والثَّباتِ والحياةِ
 لك عِيدٌ نبيلٌ هو عيدُ الحضارةِ! عيدُ ماضٍ عيدُ آتِ
 راح عامٌ كريمٌ وأتى غيرُهُ
 هو مَجْدٌ مُقيمٌ بيننا سرُّهُ!
 مَجْدُ مصرِ القديمِ وهو كُنْزُ ثمينٍ للحياةِ المُعَاذَةِ
 كم له في النَّسيمِ مِنْ هَوَى أو حَنِينٍ! وهو يُحيي بلادَهُ
 راح عامٌ كريمٌ وأتى غيرُهُ
 هو مَجْدٌ مُقيمٌ بيننا سرُّهُ!

أَقْبَلَ النَّيْرُوزُ وَهُوَ بُشْرَى الْجَدِيدِ هَاتِفًا بِالرَّبِيعِ
 هُوَ عِيدٌ عَزِيزٌ هُوَ عِيدُ السَّعِيدِ! كَالْمَلِكِ الْوَدِيعِ
 رَاحَ عَامٌ كَرِيمٌ وَأَتَى غَيْرُهُ
 هُوَ مَجْدٌ مُقِيمٌ بَيْنَنَا سِرُّهُ!
 فَلْنَهْنِ النَّخِيلَ بَابْتِهَاجِ الْقُرُونِ فِي احْتِفَاءٍ وَاعْتِلَاءِ
 كُلُّ مَعْنَى نَبِيلٍ رَمَزُهُ لَنْ يَهُونَ! بَيْنَ أَهْلِ أَمْنَاءِ
 عَيْدِي يَا غُصُونُ وَافْرَحِي مِثْلَنَا
 قَدْ حَوَاكَ السَّكُونُ فِي جَلَالِ الْغِنَى!

النار والجنة

أَنَا نَارٌ وَأَنْتِ جَنَّةٌ رُوحِي
 أَطْفِئِينِي إِذَا أَرَدْتِ، فَحُلْمِي
 جَنَّةٌ أَنْتِ قَدْ وَعَدْتِ مَنْ لَهْيِي
 كُلَّمَا ضَمَّنَا وَصَالٌ نَسِينَا
 أَتَلَشَّيْ لَدَيْكِ حُلْمًا نَبِيلًا
 وَتَعُودِينَ لِي رَجَاءً نَبِيلًا
 خَلَقَ الْحُبُّ بَيْنَنَا الْمُسْتَحِيلَا
 أَنْ تَحُولَ الْحَيَاةُ طَيْفًا جَمِيلًا
 شُعْلًا زَادَهَا فَمِي تَقْبِيلًا
 حُرْقَتِي حُبَّنَا وَعَفْنَا الدَّلِيلَا

* * *

أَنَا نَارٌ وَأَنْتِ جَنَّةٌ رُوحِي
 خَلَقَ الْحُبُّ بَيْنَنَا الْمُسْتَحِيلَا!

ألحان الحياة

أَزْهَارِي الْخَيْرَى تُتَاجِي الْحَيَاةَ
 هَلْ أَنْتِ فِي شَوْقِي وَفِي لَوْعَتِي
 تُصْغِينَ إِذْ أَصْغِي إِلَى فَاتِنِي
 حَسَّاسَةً أَنْتِ وَمَا صَوْتُهُ
 كَمَا أَنَا جِي فِي صَلَاتِي إِلَهَ
 أَمْ أَنَّ قَلْبِي وَحْدَهُ فِي هَوَاهُ؟
 كَأَنَّمَا الْعُودُ بِشِيرِ الْحَيَاةِ
 إِلَّا غِنَى الْحَسِّ وَأَحْلَى لُغَاهُ

عُذِّيتِ بِالْحُسْنِ غِذَاءَ الدُّهَاءِ	عُذِّيتِ بِالصَّوْتِ وَمِنْ قَبْلِهِ
قَدْ يَحْفَظُ الزَّهْرُ وَيُنْمِي صَبَاهُ	وَاللَّحْنُ كَالْإِكْسِيرِ فِي وَقْعِهِ
فِي حِينَ لِلشَّمِّ شَدَاهُ صَدَاهُ	صَدَاهُ فِي الزَّهْرِ نَمَاءٌ لَهُ
إِنْ بَاحَ، وَاللَّحْنُ حَنَانُ الشِّفَاهِ	كَأَنَّمَا الْعُودُ رَسُولُ الْهَوَى
وَالْأَرْضُ وَالْجَوُّ بِمَا أُودِعَاهُ	النُّورُ رَبَّكَ بِتَحْنَانِهِ
أَحْيَاكَ لِلْحَبِّ مَعَانِي مُنَاهُ	وَالْحُسْنُ بِالْحَبِّ وَالْحَانِهِ
وَحُمْرَةُ اللَّوْنِ مَرَأَى لَطَاهُ	كَأَنَّمَا دَمْعُ النَّدَى دَمْعُهُ
وَإِنْ بِكَيْتٍ كَانَ هَذَا بُكَاهُ!	إِنْ تَبْسِمِي كُنْتَ لَهُ بِسْمَةً

أنشودة الهاجر

كفى صيامي على هَوَاك!	أيا حبيبي كفى بَعَادُكَ
سوى فُؤَادِي الذي افْتَدَاكَ؟	وهل فُؤَادٌ لَهُ فُؤَادُكَ
فِي شُعْلَةِ الْحَبِّ مُنْتَهَائِي	أنا شهيدُ الْهَوَى الْبَرِيءِ
الْمُشْعَلُ النَّارَ فِي نَهَائِي	فإنما حُسْنُكَ الْوُضْيَاءِ
وَمِنْ جَنَى خَدِّكَ الْوَسِيمِ	كم أَشْرَبُ الْخَمْرَ مِنْ عَيْونِكَ
وَمُنْتَهَى الْخَلْدِ وَالْجَحِيمِ	فإنَّهَا مُشْتَهَى فُنُونِكَ
فأَجْتَنِي الْحَبَّ وَالْجَمَالَ	وَأَجْتَنِي ثَغْرَكَ الْمَحَلَّى
لِي الْفَنَاءُ الَّذِي اسْتَطَالَ	هَجَرْتَنِي الْآنَ وَاسْتَحَلَّ
وَفِي جُنُونِي مِنَ الْبَعَادِ	ما بَيْنَ شَوْقِي وَلَوْعَتِي
وكيف أَحْيَا بِلَا فُؤَادِ؟!	أَسْتَوْدِعُ الْآنَ مُهْجَتِي

سيف دامقليس

أَنْصَبُ سَيْفَ دَامَقْلَيْسَ عَمْدًا
لِمَنْ هَذَا السُّيُوفُ وَكُلُّ سَيْفٍ
أَهَذَا مَا يُزَيِّنُهُ التَّأَخِي؟!
خَدَعْتُمْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِحَرْبٍ
إِذَا كَانَتْ سَلَامًا أَوْ سُكُونًا
وَمَنْ ضَحَّى أَخَاهُ لِكِي يَعْلى
وَلَكِنْ كُلُّ مَا يَدْرِي التَّدْنِي

أَسِيرُ فَوْقَهُ سَيْفُ تَرَاءَى؟!
يُهْدِدُنَا وَيُشْبِعُنَا عَدَاءً؟
إِذَنْ بئْسَ الَّذِي مَدَحَ الْإِخَاءَ
مَنْوَعَةً وَتَنْتَظِمُ الْفَنَاءَ!
فَبَعْضُ السَّلْمِ نَغَّصْنَا رِيَاءً!
وَمَا يَعْلو، فَمَا يَدْرِي الْحِيَاءَ!
وَقَدْ فَقَدَ الْأَخَوَةَ وَالرَّجَاءَ!

كأس الظمأ

أَنْتِ قُدْسِيَّةُ الشَّبَابِ
قَدْ عَرَفْنَا بِكَ الْعَذَابِ
طَائِرٌ بَلْ فَرَاشَةٌ
هِيَ نُورٌ وَشُعْلَةٌ
حُلْمٌ طَافَ حَوْلَنَا
مَنْ تَرَاءَى لَهُ اغْتَنَى
عَبَقُ الْحُسْنِ وَالْهَوَى
ذُقْتُ مِنْ نَارِهِ الظَّمَا
مِنْ فُنُونٍ وَمِنْ فُتُونٍ
كُلُّهُ سَائِغٌ حَنُونٍ

فِي الْأَغَانِي وَفِي الْقُبُلِ
وَعَرَفْنَا بِكَ الْأَمَلِ
عَمْرُهَا مَا لَهُ حِسَابِ
تَتَهَادَى مَعَ الشَّبَابِ
نَسَجَتْهُ يَدُ الرَّبِيعِ
مِنْ حُبُورٍ وَمِنْ دُمُوعِ
ذَكَرَكَ الْمَزْهَرُ النَّدِي
بَيْنَمَا الْكَأْسُ فِي يَدِي
أَشْرَبُ الْوَهْمَ وَالْجَنُونَ
مَنْ نَدَى هَذِهِ الْعَيُونَ!

موسيقى العدم

أنا ماضٍ في سبيل الموتِ، زادي
يَمْلَأُ الجَوَّ حَنَانٌ غيرُ بادي
ذلك اللّحْنُ أنا أسمعُهُ
هو يَحْدُونِي كما أَتْبَعُهُ
أيُّهَا العازِفُ فوقَ السُّحْبِ لي
سَمِمتُ نَفْسِي فليستَ تَجْتَلِي
كم سَلام، كم نعيم، كم حَيَاة
أنَّه النَّايُ كَتَقْبِيلِ الشِّفَاةِ
أَيُّ مَوْتٍ ذاكَ تَحْدُونِي إِلَيْهِ
هَاتِفًا حِينًا عَلَيَّ وَعَلَيْهِ

ما شَجَا وَهَمِي وَحِسِّي مِنْ نَعَمٍ
يَمْلَأُ الرُّوحَ بِموسيقى العَدَمِ
حينما غيري غريبٌ عنه ساهي
في شَفَاءٍ مِنْ عَذَابِي المتناهي
طائرًا أو راکِبًا مَتَنَ السَّحَابِ
غيرَ ما تُوجِي لأَطْيَافِ الضَّبَابِ
كم غَنَى في كلِّ ما يُزجِيهِ لَحْنُكَ
وبكاءُ العُودِ قد وَاسَّاهُ فَنُكَ
مثلما يَحْدُو هَوَى الطِّفْلِ أَخَاهُ
فإذا الموتُ طريقٌ لِلنَّجَاةِ!

ملك العصاة

(إلى زعيم الثورة الدرزية سلطان باشا الأطرش.)

مَلِكُ العُصَاةِ مُشَرَّدًا وطريدًا
ما ضَرَّ قَدْرَكَ أَنْ تعيشَ بوحدَةٍ
اليومَ أَشْرَبُ نَخْبَ ذِكْرِكَ بينما
مَنْ لي بمثلِكَ في بِلَادِي بعدما
الفراسُ المغوارُ يَضُمُّ جُرْحَهُ
ويشُقُّ في جيشِ العدوِّ طريقَهُ
وَيَعْلَمُ الأبطالُ صدقَ بَطُولِهِ
يَمْشي على الأَهْوالِ مِشْيَةً فاتِحِ
لم يَدْرُعْ إلا الإِبَاءَ، وما بَكَى
جَعَلَ الضحيةَ نَفْسَهُ لا غَيْرَهُ

صَيَّرْتَ ذَكَرَكَ في المناحَةِ عيدًا
فمن الزَّعامَةِ أَنْ تعيشَ وحيدًا
أَلْقَاكَ أَقْرَبَ مَنْ يُخَالُ بعيدًا
أَضْحَى وفاءُ الأقربينَ بليدًا
بيديهِ مُرتقبًا سواهَ جديداً
ويعودُ مخضوبَ اليدينِ سعيدًا
والحربُ تعزِفُ للمماتِ نشيدًا
رَجَمْتُهُ ساخِطَةً لظَى وحيدًا
يومًا فقيدًا لن يموتَ فقيدًا
فإذا المنيَةُ تَتَّقِيهِ عنيداً

وإذا به بطلُ المعاركِ كُلِّها متغلَّبًا أو عاجزًا وطريدًا!
خُلِقَ الكماةُ الفاتحينِ يصونُهم والخُلُقُ يَخْلُقُ وحدهُ الصنيدًا

* * *

عش يا أبا الأحرارِ في حُرِّيَةٍ النَفْيُ مَجْدَ شأوها تَمَجِّدًا
حَرِدًا بلا زَادٍ، ولا مالٍ، ولا جُنْدٍ سوى مَجْدٍ يُشْعُ تليدًا
عش مثلَ آمالِ الحِياةِ تَحَجَّبَتْ لتعودَ صُبْحًا للحِياةِ أكيدًا
نحيا على أحلامِها في ظُلْمَةٍ حتى تلوحَ أشعَّةٌ وقصيدًا!

مصور البحر

(رثاء الفنان هارولد فاراوي الذي تملكه الهم لبيعه مضطرًا صُورَه الفنية التي رسم فيها البحرَ، ثم استردَّ عزاءه لما علم بغرق الباخرة ألباتروس التي كانت تَقْلُها، ثم نال منه الحزنُ العميقُ غايته لما علم بأن البحر لفظ الصندوقِ الحاوي تلك الصُور دون أن تُمسَّ بأذى، فتخيل أن البحر لم يُقدِّرَ فنه الكشَّاف لأسراره، وأنَّ «النور الأسمى» ازدراه ... فانتحر يأسًا وحزنًا.)

ماذا نَقَمْتَ مِنَ الوُجُودِ الفاني يا مُعْجَزًا للَفَنِّ والفَنِّانِ؟
يا خاطفَ السرِّ العميقِ برسمه للبحرِ في تصويره الفَتَّانِ
لم أَحْظَ إِلَّا بِالْقَلِيلِ لظَلِّهِ فإذا بِهِ والبحرِ يلتقيانِ
صُورٌ بإحساسِ الخلودِ تَأَلَّقَتْ وبها لألوانِ الفنونِ مَعَانِي
الموجُ فيها خافقٌ متوتَّبٌ حَيٌّ، وخَلَفَ الموجُ موجُ ثَانٍ
رُوحانِ مِنْ رَسَمٍ يَلُوحُ وآخرِ خَافٍ وغيرهما إليه رَوَانٍ
فكأنَّ هَذَا الرَّسْمَ دُنْيَا ما لَهَا حَدٌّ مِنَ التَّبَيَّانِ والإِحْسَانِ
غَلَبَتْ شُعُورَ المُلْهِمِينَ وَعَبَّرَتْ عَنْ كُلِّ إِحْسَاسٍ بِكُلِّ لِسَانٍ
فَنَحْسُ بِالصِفِ الرَّخَاءِ^{٣١} حَيالَنَا أَنَّا، وبالإعصارِ والثَّورَانِ

^{٣١} الرخاء: الريح اللينة التي لا تحرك شيئًا.

والأفق مبتسم يفيض بشاشة
والموج من أجناده متدافع
وسواه يغلبه العناق كأنه
ونرى رذاذ الماء يلمس بالرؤى
ونكاد نلمح فوقه أو تحته
الآخذات من المياه خيولها
والضاحكات للالعاب أماننا
خلقت بروح البحر فهي جريئة
ودعت وصاحت والمياه حيالها
صور الحياة كأنها صور الردى
ونطل في المعنى العظيم بكنهها

حيناً، وحيناً ساخط النيران
للحرب بين لظى وبين طعان
خلان في التوديع يعتنقان
والعين لم تمدد إليه يدان
من راقصات البحر سرب غواني
والجاريات بها على الشيطان
وكأنها في اليأس وهم أمني
هزأت بتيه المدلج^{٣٢} الحيران
ما بين صخب تارة وأغاني
تبدو كمزج مخافة وأمان
فنعود بالإمتاع والحرمان

* * *

أمصور البحر الخضم كأنه
والفاتح الغازي مكامن سره
والخاطف العبرات من قطراته
والمستقل بريحه وبجوّه
والعاشق الجولات في أنحائه
فتح الفنون شجاعة علوية
والبحر ينقشه كمي رائد
ميدان كل بسالة عذرية
أغليت صنعك فوق كل مثنى
وعددته دُخر الحياة كأنما
وأبيت إغواء الزمان لبيعه
حتى إذا اضطرتك ما حكمت به

حبس الشعاع برسمه النوراني
بالحب والإلهام والإيمان
والكاشف الآيات في الألوان
ببصيرة عزت على الأقران
وكأنه في روجه متفان
فوق أذراع شجاعة الفرسان
كالبحر يركبه العظيم الشأن
والفتح لم يخلق لعجز جبان
بالمال أو بنفائس التيجان
أودعت فيه رسالة الرحمن
وحسبته كنزاً لكل زمان
دنياك من بيع ومن حرمان

^{٣٢} المدلج (لغة): السائر بالليل، وهنا بمعنى الضال.

نُوقَتَ معنى الفقر بعد قناعةٍ وحقرتَ هذا المالَ في يدك التي وسهدت في حزنٍ على حزنٍ على حتى علمت بفقدٍ فنك ذاهباً ففرحت فرحة من أغيث ولاؤه وفرضت أن البحر أغرق مركباً هي ملكٌ جنّياته لا ملكٌ من أخذت من الوطن العميق وعوْدها غاصت إليها مثلما أحرزتها وعرفت كيف خصاصة الإنسان طرحته طرح اليم للأدران حزن، فصرت فريسة الأحزان للبحر كالأخوين يصطحبان من بعد ما عاناه من كُفران حملت نفائسه بلا استئذان عاداه في الإنسان أو في الجان حقٌ إلى الأعماق والأوطان بالغوص بين الدُرِّ والمرجان

* * *

البحرُ ثابَ فردٌ بَعْدُ وفأؤه فحزنت أقسى الحُزن، ما لعزائه وعددت ردَّ البحر ما استودعته وكأنما هو ساخرٌ بأعزَّ ما قد كنت تحسبه الغيور فسان ما قبس من الديان عاد لأصله والآن هذا اليم يلفظه بلا فرأيت في هذا الهوان ولم تطق وأبيت إلا أن تموت، وهكذا هذي الوديعة في أعز صيان سبب، كحزن الثاكل للهفان نجواك أشجى الرُزء والخُسران أبدعت أو ألهمت من إتقان أعلنته بتهافت الغيران فالبحرُ كان مثابة الديان عُذرٌ كأن اليم منه يُعاني للفن عيشاً في عذاب هوان بالموت يثارُ ناقمٌ ومُعاني

* * *

قالوا: جُنونُ الفن! قلتُ أجُلنا ذاق المصابَ بفقده أحبابه ورأى الطبيعة سُخرياتٍ كلّها وكأنها سكنت وما خفقت له فأراح مُهجته وحيْرتُه، وهل الآن أَسْتَوْجِي المِياه أنينها أنا شاعرُ الموج الذي هو غامرٌ خطراً وذا المجنون يستويان فالبعد ألوانٌ من الفُقدان في حين أعطاهَا أعزَّ مكان وفؤاده يشقى من الخفقان غيرُ الفناء إراحة الحيران؟ وأبث لوعتها شجىً بياني هذي الحياة وهادمٌ إنساني

فإذا رثيتك فالرثاء لمهجتي
ضاقَتْ بك الدنيا وضقتُ برحبها
وأنا أرى دمك الزكيَّ بحرقة
وأرى زفيرك في العواصفِ كلِّما
وأرى حنانك في توتُّب موجِه
ستعيشُ ما عاشت خواطرُ شاعرٍ
إن كان للأموالِ أولُ هائمٍ
وإذا بكيتُك فالحنانُ بكاني
فإذا نُسيتَ فلستَ في نسياني
للأفقِ في هذا الغروبِ القاني
هبتُ على البحرِ العزيزِ الجاني
أبدًا وملاء تجاؤبي وحناني
أو عازفٍ أو ناقشٍ فنَّانٍ
فالفنُّ للأحياءِ أولُ باني

موسى في اليمِّ



موسى في اليمِّ.

أُنْقَذَتْهُ مِنْ شَاطِئِ الْيَمِّ، وَالْيَمُّ حَرِيصٌ عَلَيْهِ جَرَّصَ الْأَبُوهُ
بِنْتُ فِرْعَوْنَ فِي رَعَايَةِ خَلْقٍ يُرَاعِي بِالْحُبِّ رُوحَ النُّبُوَّةِ

أَنْقَذَتْهُ فِي سَلَةٍ وَضَعَتْهُ فِي حِمَاهَا وَفِي حِمَى الْعُشْبِ أُمُّهُ
 إِنَّ عَدَلَ الْأَقْدَارِ أَنْ يَمْنَحَ الْمَظْلُومَ عَدْلًا بَلْ مُنْتَهَى الْعَدْلِ خَصْمُهُ
 كَلَّلَ اللَّوْتُسَ النَّقِيُّ جَبِينًا مِثْلَمَا كَلَّلَ الْقَمِيصُ قَوَامَا
 رَمَزَا بِالْبَيَاضِ لِلطُّهْرِ، وَالطُّهْرُ عَرِيقٌ بِنَفْسِهَا إِلَهَامَا
 وَبَدَا الْجَوُّ فِي حَنَانٍ غَرِيبٍ بَيْنَ نُورٍ وَصَبْغَةٍ وَابْتِسَامِ
 وَبَدَا الْعُشْبُ فِي اخْضَارٍ حَبِيبٍ كَانَتْعَاشِ الرَّجَاءِ عِنْدَ السَّلَامِ
 وَتَلَوُّهُ النَّخِيلُ مَنْفِرَدَاتٍ فِي مِثَالِ الْهَيْكَلِ الْمَنْثُورَةِ
 وَكَذَاكَ الْأَتْبَاعُ حَاكُوا التَّمَاثِيلَ خُشُوعًا وَرُوعَةً مُسْتَوْرَةٍ
 وَتَرَاءَى النِّيلُ الْوَفِيُّ بِلَأْلَاءِ رَشِيقٍ وَسَاكِنُ الشَّطِّ سَاجِي
 فَهُوَ فَرِحَانٌ بِالْوَلِيدِ وَلَكِنْ ذَلِكَ الشَّطُّ مُنْذِرٌ لَا يُدَاجِي
 فَرَحَهُ تَمَّ فِي ارْتِيَابٍ وَخَوْفٍ وَضِيَاءٍ بِظُلْمَةٍ فِي سُبَاتٍ
 هَكَذَا جَانِبَ الْمَنِيَّةِ «مُوسَى» وَهُوَ طِفْلٌ مُشَرَّدٌ فِي الْمَمَاتِ
 لَعَبَتْ دَوْرَهَا الْمَقَادِيرُ حَتَّى خَلَقَتْ حَوْلَهُ مِنَ الرَّوْعِ أَمْنًا
 إِنَّ لَهُوَ الْمَقْدَارِ وَالْحَظُّ فَنَانٌ جَرِيءٌ، وَكَمْ حَبَا الشَّعْرَ فَنَانًا!

النساء الغلمان

أَسْفِي عَلَى هَذَا الْجَمَالِ مُزَيَّفًا
 أَيْنَ الْأَنْوُثَةُ؟ أَيْنَ أَيْنَ دَلَالُهَا
 لَا كَانَ قَصُّ الشَّعْرِ إِنْ ضَحَّى لَنَا
 أَعْرِفَتْ يَا مَنْ جِنْسُهَا شَرَفٌ لَهَا
 لَمْ أَلَقْ فِي دُنْيَا الْعِظَائِمِ حَادِثًا
 وَكَأَنَّمَا كُنْزُ الْحَيَاةِ وَسْرُهَا
 فَإِذَا عَبَثَتْ بِهِ عَبَثَتْ بِحَظَّنَا
 وَإِذَا رَعِيَتْ جَلَالَهُ وَكَمَالَهُ
 أَكْذَا الْجِسَانَ تُعَدُّ فِي الْغِلْمَانِ؟
 وَحَنَانُهَا بِحَدِيثِهَا الْفَتَّانِ؟
 حُلُوُّ الشُّعُورِ وَعِطْفَاكِ الرُّوحَانِي
 مَجْدًا وَلَسْتَ لَهُ الْأَصِيلُ الْبَانِي؟
 لَمْ تَرَعَهُ لِكَ بِالنَّشْوَءِ يَدَانِ
 فِي حُسْنِكَ الْمَطْبُوعِ وَالْفَنَّانِ
 وَبِغَايَةِ الْفَنَّانِ مِنْ إِحْسَانِ
 خَلَّدَتْ سُلْطَانًا عَلَى سُلْطَانِ

الشرر

هنيئًا لكم بجنان الحياة
سأحيا بها وهجًا من ضياء
وأشرب من كأس هذا اللهب
وما النار إلا شراب الحياة
أعيش كما تسبح النيرات
أجوب الوجود ولي مهجة
تئن ولكن أنين اللهب
وأعتنق الحب دين الحياة
يرف علي بأمواجه
ويشيع لي لهفة لا تنام
فأمرح بين اللظى والشعاع

وأهلاً بنيرانها تستعير!
وأفنى بها رجمًا من شرر
وأضحك من ضحكة للقدّر!
فأرضعت الدهر حتى ابتدر
بهذا الأثير بعيد الأثر
تُعادي الأمان وتهوى الخطر
إذا هو أوشك أن ينفجر!
ودين الممات الذي لا يدّر
رفيف النسائم فوق الزهر
وإشباعها نهم ما استقر
كما يمرح الموت ملء الشرر!

قدسية المرأة

غبنوك حتى لم يعد لك بينهم
وكأنما لم تخلقي أحلامهم
ورضيت غبنك في خضوعك تارة
فتدققي يا نبع آمال الورى
وتجملني بإبائك العالي الذي
ودعي لشاعرك الوفي غرامه
حتى يرتل للخلود بيانه
ويصان حسنك عن غباوة عالم
ويُشار في تقديسه آياته

شأن سوى شأن المتاع الفاني
وسعادة الإنسان بالإنسان
أو في التوسل بالشذوذ الجاني
بحنانك المُرزي بكل حنان
يفتر عن فن وعن إيمان
بجمالك الروحي والجهنمي
وروائع الفنّان للفنّان
لاه عن الحسن العظيم الباني
فيتوب عن عبث وعن كُفران

* * *

مَنْ ذَا يُجَلِّكُ ثُمَّ يُحَسِّبُ وَصْفُهُ
ولكم يصيحُ العُمِّيُّ باسمِكِ بينما
نعتُوا الإِبَاحِيَّ الأَثِيمَ تَفَنَّنِي
والصدقُ لَوْ مِنْ عِبَادَةِ مَهْجَتِي
لِكِ غَيْرِ تَقْدِيسٍ وَغَيْرِ تَفَانٍ؟
هم يَنْعَمُونَ بِظُلْمَةِ الْعَمِيَانِ
في الوصفِ عن صدقٍ وعن إِحْسَانٍ
وعبادتي شَتَّى مِنَ الأَلْوَانِ

الحكمة الخالدة

رَاحَ يَسْعَى طَالِبًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
رَاحَ يَسْعَى دَائِبًا فِي فَرْحَةٍ
جَاهِدًا حَتَّى إِذَا أَوْفَى عَلَى
صَارَ لَا يَغِيبُ إِلَّا جَاهِلًا
قَبَسَ الْحِكْمَةَ أَوْ بَأْسَ الْعَتَى
وهو كَالْمَعْتَزِّ فِي نَصْرِ الْكَمِيِّ
غَايَةَ الْحِكْمَةِ وَالْمَجْدِ الْأَبِيِّ
أَوْ غَبِيًّا يَفْهَمُ الْكُونَ الْغَبِيَّ!

الأوراق الميتة

تَرَعْرَعُ رَوْضِي يَوْمَ حَانَ رَبِيعُهُ
وَمَا كُلُّ نَبْتٍ مَوْرِقٌ عِنْدَ رِيِّهِ
كَذَلِكَ بَعْضُ النَّاسِ حِينَ تَصُونُهُمْ
كَأَنَّ خُلِقُوا لِلْجَذْبِ فِي كُلِّ حَالَةٍ
وَمَا أَنَا مَنْ يَأْسَى عَلَى فَقْدِ جُهِدِهِ
تَكْشَفَ رَوْضِي عَنْ غُصُونٍ مَرِيضَةٍ
لَقَدْ سَقَطَتْ أَوْرَاقُهَا مِنْ سَقَامِهَا
فَطَهَّرْتُ رَوْضِي مِنْ كَرِيهِهِ أَبْوَةٍ
وَمَا كُلُّ سَقَمٍ ذَاهِبٌ مِنْ رِعَايَةٍ
أَلَا فَلْيُغَنَّ الشَّامِتُونَ فَلْيَنُنِّي
حَوَتْ مُثُلَ الْعَلِيَا لِنَفْسٍ أَبْيَةٍ
ولكنْ مِنَ الأَوْرَاقِ مَا سَقَطَتْ رَغْمًا
وَيَا رَبُّ نَبْتٍ كَادَ بِالمَاءِ أَنْ يَظْمَا
وَتَنَفَّحَهُمْ وَدًّا وَتُشْبِعَهُمْ عِلْمًا
فَإِنْ نُقِلُوا لِلْخَصْبِ زَادُوا بِهِ لُؤْمًا
فَمِنْ عَثَرَاتِ الْفَهْمِ نَسْتَكْمِلُ الْفَهْمَا
وَهَلْ كَانَ يَرْضَاهَا سِوَى الْبَصْرِ الْأَعْمَى؟
كَمَا يَقَعُ الْمَرَضَى فَرَائِسَ لِلْحَمَى
وَأَعْلَيْتُ نَفْسِي أَنْ تَكُونَ لَهَا أَمَّا
فَإِنْ سَقِيمَ الْعُطْفِ قَدْ يُورِثُ السَّقَمَا
أَعِيشْ بِدُنْيَا لَنْ تُبَادِلَهُمْ ذَمًّا
فَمِنْ خَانِهَا لَأَقَى الدُّنْيَةَ وَالْوَهْمَا

وَمَنْ شَاءَ أَنْ يَهْوِيَ إِلَى التُّرْبِ لَمْ يَكُنْ
وَفِي النَّاسِ مَنْ يَحْيَا نَضِيرًا عَلَى الْمَدَى
وَمَنْ قَالَ إِنَّ النَّفْسَ وَالْجِسْمَ وَاحِدٌ
بَاهِلٌ لِأَنَّ يَلْقَى لِمَحْمَدٍ طَعْمًا
وَأَخْرُ تَرْعَاهُ فَتَسْتَشْعِرُ الْيُتِمَا
فَفِي وَهْمِهِ لَمْ يَفْقَهُ النَّفْسَ وَالْجِسْمَا

المرسوم

يَا مَرْسَمَ الْأَلْوَانِ وَالْأَضْوَاءِ
أُرْصِدْتُ لِلنَّهْمِ الْمَصُورِ بَيْنَمَا
الشَّعْرُ أَحْوَجُ لِلْمِثَالِ مَعَزَّرًا
عَيْنَايَ فِي ظِلِّكَ وَمُهِجَتِي
مَنْ لِي بِسَاعَاتِ الْخُشُوعِ طَوِيلَةً
فَأَعُودُ أَنْقَشُ بِالْإِرَاعَةِ مُؤَمَّنًا
هَذِي الْأَشْعَةَ وَالظَّلَالَ جَمِيعُهَا
وَالشَّاعِرُ الْكَشَافُ يَنْفِذُ خَلْقَهَا
لَا خَيْرَ فِي شَعْرٍ إِذَا هُوَ لَمْ يَكُنْ
أَرْنُو إِلَى الْحَسَنِ الْأَصِيلِ كَأَنَّنِي
فَإِذَا حُرِمْتُ فَأَيُّ دُنْيَا مِثْلُهُ

هَلَّا أَذْكَرْتَ خِصَاصَةَ الشُّعْرَاءِ!
نَحْنُ الْأَحَقُّ بِأَنْفُسٍ وَمَرَاثِي
مَعْنَاهُ أَوْ مَبْنَاهُ فِي الْأَحْيَاءِ
ظِمَانَةٌ كَتَخِيلِي وَرَجَائِي
تُقْضَى لَدَيْكَ مَعَ الْجَمِيلِ النَّائِي
بِالسَّحْرِ وَالْإِعْجَازِ وَالْإِيحَاءِ؟
صُورُ الْفَنُونِ تَدْتَرْتُ بَرْدًا
فَيَرَى الْجَمَالَ بِرُوحِهِ الْوَضَاءِ
مِنْ هَذِهِ الْأَلْوَانِ وَالْأَضْوَاءِ!
أَسْتَوْعِبُ الدُّنْيَا بِعَيْنِ الرَّائِي
لِلشَّعْرِ فِي الْأَطْيَافِ وَالْأَصْدَاءِ؟

* * *

يَا مَرْسَمَ الْأَلْوَانِ وَالْأَضْوَاءِ
هَلَّا أَذْكَرْتَ خِصَاصَةَ الشُّعْرَاءِ؟

حلم الفراشة

تَطِيرُ إِلَى الزَّهْرِ فِي خَفَّةٍ
وَمَا تَتَمَنَّى سِوَى زَهْرَةٍ
تَحُومُ عَلَيْهَا وَتَنْشَقُّ مِنْهَا
لَتَمْتَصَّ مِنْهُ الرِّحِيقَ الشَّهِيءَ
تَبَادُلُهَا لَوْنَهَا الْقَرْمَزِيَّ
جَمِيلَ الشَّدَى، فَالْشَّدَى نَفْسُهَا

وتأبى التحول في النور عنها
كأنَّا بزهرتها أصبَحَتْ
وتلك الفراشة حين انتشت
تبادلتا ما لكلتيهما
فصانَ التبادلُ نفسيهما
فإحساسُ زهرتها جسُّها
فراشتنا الحلوة العائرة
على النور زهرتها الطائره
من الحظ والصورة الفاتنه
وعاشا به عيشة آمنه!

* * *

كذلك تحلم في لهوها
فدعها تغازل في وهمها
فراشتنا الحرّة الباسمه
خيالات ساعاتها الحالمه!

في السماء

كم دعاء وبكاء ورجاء
قد تناهت في أني الكهرباء
بعضها بالبعض في الجو اصطدم
وتلاشت في وجود كالعدم!

* * *

مجمع الأضداد، كم معنى به
كل معنى تائه في سربه
مضجك والمخزن المشجي أخوه
كل معنى ليس يدري من دؤوه!

* * *

تعجز الأرباب عن حل لها
أي رب لو يلبي سؤلها
فهي الغار بنعمى ونقم
يُنصف الأحياء أو ينفي الألم!

* * *

هي فوضى من أعاجيب الحياة
أبرياء الناس فيها والجناة
بين أنفاس ضعاف ثائرة
جمعتهم داعيات الآخرة

* * *

أي قاض باسم عدل يستطيع
أي عدل إن مشى بين الجميع
حُكمه في رغبة الخلق السواء؟
يعرف الجاني ويدري الأبرياء؟

* * *

هذه أنفاسُها قد حُمِّلَتْ ما حوَتْ أجواءُ هاتيكَ السماءِ
كم نفوسٍ حَكَمَتْ أو ذُلِّلَتْ وزَعَتْ أنفاسُها ملءَ الهِواءِ!

* * *

هكذا الماضي بما فيه لنا ذكرياتٌ وغذاءٌ وهِواءٌ
إنَّما الماضي ومستقبلُنا أخوا الحاضرِ أو كالرفقاءِ!

ذباب الصيف

هجمَ الذبابُ كأنَّما ثأرٌ له هذا الهجومُ بغضبةٍ متطايرةٍ
ما بالهُ مثلَ الهمومِ تتابعَتْ أو كالرشاشٍ من الجيوشِ الكاسرةِ
نُفْنِيهِ، لكنْ لا يزالُ وفودُهُ فكأنَّما يحيا ببعثِ الآخرةِ!

العناكب

حَاكَتْ مَصَائِدَهَا وما غفلتُ بها لكنَّها عرفتُ ضلالةَ صيدها
سكنتُ إلى حِيلِ الدهاءِ بنسجها فإذا الضَّحِيَّةُ خُوِدِعَتْ في زُهدِها
كم من رِجاجةٍ مُبَصِّرٍ في ضعفهِ غلبتْ نِزَاقَةُ أَكْمِهِ مِنْ جُنْدِها
الدَّهْرُ أستاذُ الدهاءِ فمن يَعِشْ غرًّا بدنياهُ تُمِتُّهُ كعبيدها

التمنية

لمن تسوقين منك أمنيّة؟
 لم يقبلِ الدهرُ ذلَّ غانيّة
 لا خيرَ في مُقيلٍ وقد فضحت
 لا تُخدعي بالرجاءِ واقتصدي
 ماتت ومُتنا نحنُ ميّتتها
 أدنى أمانيكِ باتَ أقصاها!
 إلّا وقد عافَ حُلُوَ مرآها
 دُنْيَاكِ عن منتهى نواياها
 فقلْبُ دُنْيَاكِ مِنْ ضحاياها!
 فمن عجيبِ رجاءٍ موتاها!

الثلث المدفوع

وذي غدرٍ يوُدُّ خداعَ حلمي
 فقلتُ له: حَسِئْتُ! أبعَدَ شَمِي
 دفعتُ جميعه ثمنًا لبُعدي
 فكيف تُريدني من بعدِ دفعي
 وبَعَدَ الغدرِ يدْعُوني صديقا!
 وإيْذائي تُضللُّني الطَّرِيقا!
 عن الغدرِ الذي طعنَ الرفيقا
 أطيْقَكَ أو أجِدُّهُ مطيقا!

طفلتي الشاعرة

أولَعْتُ طفْلَتِي «هُدًى» بالمعاني
 فهي تُعْنَى بما حَوَتْهُ الشِّفَاهُ
 وهي تُعْنَى بالموجِ حُلُوًا صغيرًا
 وهي تُعْنَى بالزَّهرِ والعطرِ فيه
 والنجومِ التي تُطِلُّ حيارى
 والهِلالِ الذي مع الليلِ ينمو
 والنَّدَى والضَّبَابِ من أيِّ نارٍ
 أتعبتُ ذهنها الصغيرَ بكُدِّ
 في جميعِ المُشاهداتِ الحسانِ
 كيف صاغَ الجمالَ منها الإلهُ؟
 كصغارِ الأطفالِ حاكوا الهديرا
 أين قد خبأَتْهُ أيدي ذويه؟
 كيف تبدو وكيف تخفى مرارا؟
 أتراعيه في جَمَى الليلِ أم؟
 طَوْقا الأرضِ هكذا بالبُخارِ؟
 وأبوها بالفكرِ أُنْعَسُ عَبدٍ

قلت: يا طفلي وُقيت الخيالا
قد بحثنا الوجودَ لفظاً ومعنى
وبلغنا بالشعرِ أرقى السماءِ
ثمَّ عُدنا بذلةِ الكبرياءِ!

المستبد العادل

(رُفعتُ إلى جلالة الملك فؤاد الأول لمناسبة عودته إلى عاصمة ملكه في ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٣٣).

صَجَّتْ لرحمتِكَ البلادُ وأعوَلَتْ:
أين ابنُ إسماعيل؟ أين أبو النهى
مَنْ ذا سواكَ وهذه أْحْزابُها
لم يبقَ غيرَ التاجِ مَوْثَلِ خَوْفِها
غَرِقَتْ بِبحرِ الحادِثاتِ وحاولَتْ
أينَ العظيمُ المستبَدُّ العادلُ؟
والحِزْمُ: مَنْ نَعْنُو له ونقاتلُ؟
طاشتْ، وكلُّ في المهازِلِ غافلُ؟
وحماك لا يرجو سِواهِ الوائلِ
تجدُ النِجاةَ، فأينَ أينَ الساحلُ؟

* * *

مولاي! تَقْصِفُ بالمدافعِ فرحَةً
والناسُ تَهْتَفُ في رجوعِكَ سالماً
فاسمَحْ لشعري أن يردِّدَ فرحَةً
قُتِلَتْ^{٣٣} كموتى الرِّيفِ لم يعبأ بهم
هو ذلك الفقرُ العميمُ، ومثله
لو أنَّ أهلَ الحكمِ هَبُّوا هبةً
لكنَّهم قنعُوا بما عَهِدُوا فما
لولا رعايتُكَ الأبيةُ لم يَقُمْ

* * *

^{٣٣} أي الفرحة.

أُزجِي إلى العرشِ السنيّ تَجَلَّتِي
وأزفُ تهنئةَ البلاد وإن تكن
فرحتُ بعودتكِ الوفيّ لحبّها
والعبقريّ بكلّ جَدْبٍ نفحةً
خُذْ أنتَ بين يديك كلّ زمامها
شُورى الحياة غدتْ شُورَ حياتنا
ونرى الوزاراتِ الحصونَ كأنها
قد ذقتُ منها اللوعتين، وربما
هذي بيوتُ الداءِ يَفْقَرُ شعبنا
وتزينها الراياتُ لكن تحتها

وأبْتُ عن قومي الذي أنا حاملُ
في الموتِ يخفقُ تُربُّها ويسائلُ
والنَّدْبَ إنْ فُقِدَ الوفيّ الباسلُ
لذكائه، وبكلّ خطبٍ صائلُ
ما كان غيرك في العظام جائلُ
والكلُّ فيها العاجزُ المتخاذلُ
للعابثين المفسدين معاقلُ
يمتنُّ بالعبثِ المسيءِ الجاهلُ
منها، ويهتبلُ^{٣٤} الغبيّ الخاملُ
يلهُو ويسحَقُنا ويجني الباطلُ!

* * *

مولاي هذي مصرُ يُؤكل أهلها
ولديك أنتَ وما لغيرك عدلُها
بعضاً لبعض، والعُنُو الكافلُ
فاصدعْ فأنتَ المستبِدُّ العادلُ

في الأصفاذ

أعوذُ إليكم أنتمو أهلَ موطني
على أيّ مجدٍ فُرقةٌ بعد فُرقةٍ
يئسْتُ ولكني على اليأسِ أملُ
أترضون هذا الذلَّ دستورَ عيشكم
وقد بيع هذا التربُّ غبنًا وضلةً
إذا عُدَّتِ الأصفاذُ زينةَ أهلها

أُهيّبُ لعلِّي أَسْتثِيرُ جوابا
أم المجدُ أنْ نُلقي البلادَ خرابا؟!
وإنْ نلتُ منكم لعنةً وعذابا
وتحيون للوهم العميمِ غضابا
ولم تعدلوا في الحاليتين ترابا؟!
فلا بدعْ إنْ عُدُّوا الممات غلابا!

* * *

^{٣٤} يغتنم.

لحبي وسخطي مُغَفَّلًا ومجاها؟
 تمرَّعَ في هذا الترابِ وغابا!
 فما بالهم حالوا لَقَى ويبابا؟
 ومن ذاقَ ما ذاقوا أذَى وعقابا
 عليهم فيأبُونَ الصوابَ صوابا
 ولو عقلوا خاضوا الممات عبابا
 هو العيش أن نأبى الحياة كذابا
 يُغيث رقابًا أو يطير رقابا
 ونخلق من هذا السحابِ قبابا
 وأعقلنا ألا نعيش كلابا
 ونبعث من هذا المصابِ مصابا!

سخطتُ وهل لي غير أبناءِ موطني
 سخطتُ وهذا بائسُ إثرَ بائسٍ
 لقد ملك الدنيا العريضة أمسهم
 أعنفهم تعنيفَ مَنْ روحه لهم
 أرى الدهرَ يُملِي كلَّ وعظٍ وحكمةٍ
 ويحيون في أمنِ الجبان بذلةٍ
 هو السِّلْمُ في نارِ المدافع والقنا
 وأن نُرغم الأعداء إرغامَ مؤمن
 وأن نملك الأرض التي نحن أهلها
 وإلا فما أخزى الحياة مهينةً
 وأن نجعل النيران سقيًا لغرسها

رقصة على بركان

على حافةِ اللهبِ المُستَنَارِ
 فماذا انتفعتم بغيرِ الدمار؟
 أغارَ عليكم فداءً بنفسي
 ويأس، ولستُ لِجُبْنٍ ويأس
 وبركانه قاذفٌ بِالْحَمَمِ
 كأنَّ البطولةَ محضُ العَدَمِ!
 بأرواحكم لبناء الوطن؟
 فعارٌ، وعارٌ دوامُ الفِتَنِ
 ورقصتكم فوق هذا اللهبِ
 لموطنكم وهو يَلْقَى العطب؟!

أجل! هذه رقصةٌ للجنونِ
 سئمتُ دعائي، سئمتُ حنيني
 إذا كنتُ أقسو عليكم فإنِّي
 وكم من مُجاملةٍ مَحْضُ جُبْنٍ
 تركتم مَواطنكم للهلاكِ
 وصرتم إلى رأسه في عراقِ
 وأين البطولةُ غيرُ الفداءِ
 فأما النزاعُ لغير انتهاءِ
 أترضون موتَ الخصامِ العنيفِ
 وتأبون صدقَ الإخاءِ الشريفِ

عباد الشمس

يا زَهْرُ عِشِّ لِلنُّورِ وَالشَّمْسِ
شمسي وشمسك ما لنورهما
بَدَدْتُ ما بَدَدْتُ مِنْ شَجِنِ
إِنَّا كَلانَا لِلْفَنَاءِ، فما
أنا ما حييتُ فداهما نفسي
إِلَّا أمانِي الرُّوحِ والحِسِّ
وطرحتُ ما أَلْقَيْتَ مِنْ يَأْسِ
أَغْبَى الذي يَبْكِي على أَمْسِ!

* * *

ترنو إليها دائماً فَرِحاً
ما أَنْتِ أَوَّلَ مَنْ تَتَبَّعُهَا
كم أمةٌ عَبدَتْ مَشارِقَها
تهفو وتضحكُ أَنْتِ في شَغَفِ
وأخوكُ قلبي في تَطْلُعِهِ
لا شيءَ إِلَّا الموتُ غايَتُهُ
وتبوحُ بالخطراتِ في هَمْسِ
بالرُّوحِ في أحلامٍ مُلتَمِسِ
فإذا بها نَهَبُ لَدَى الغَلَسِ
والدهرُ في تصمِيمِ مَفْتَرَسِ
كتطلعُ المسجونَ من حَبَسِ
ويعيشُ مثلكَ عابِدَ الشَّمْسِ!

الباكية

أَبْكَيْتُهَا فِي لَهْفَةٍ وَالدُّمَى
أَبْكَيْتُهَا لَا عَنْ مَدَى قَسْوَةٍ
لم أَبْكُهَا إِلَّا وَفِي ظَنِّهَا
ففارقَتني وهي في هَمِّها
فَبَلَلْتُ خَدًّا كَمَا بَلَلْتُ
يا لَيْتَها قَدْ أَبْصَرْتُ عَيْرَتِي
كَأَنَّمَا البَسْمَةُ مِنْ سُخْرِها
ما هَذِهِ اللُّوعَةُ مِنْ طِفْلَتِي
نَرَنُو إِلَيْهَا فِي أَسَى سَاهِمَةٍ
لَكُنَّمَا عَنْ مُهْجَتِي الرَّاحِمَةِ
أَنِّي الأبُّ القاسِي وَأَنِّي الخَصِيمُ
تَسْتَصْحَبُ النَّوْمَ بِطَرْفِ أَلِيمِ
بِالدَّمْعِ خَدَّ الدُّمَيْةِ النَّائِمَةِ
إِذْ شِمَّتْها فِي نَوْمِها بِاسْمِهِ
وهذه الدُّمَيْةُ لِي عَازِلُهُ
والبَسْمَةُ السُّمَحَةُ وَالْقَاتِلَةُ؟!

لطفية النادي

(تحية أول طائرة مصرية في يوم فوزها.)



لطفية النادي.

يا يَوْمُ أَنْتَ قَرِينُ أعيادِ
ما كُلُّ يَوْمٍ يُسْتَعَزُّ به
قد كِدْتُ أَيَّسُ من بني وطني
وأريتني لفتاته مَثَلًا
وَسَنَّاكَ خَلْفَ جَمَالِكَ البادي
ولرُبِّ يَوْمٍ رَمَزُ عُبَّادِ
فنقمت من يَأْسِي وإلحادي
يُحيي الرجاءَ ويُلهمُ الشَّادي
رُوحَ الفداءِ فروحُها الفادي
إِنْ يَنْسُ فتَيَانُ الحِمَى زمناً

* * *

أهلاً برائدةِ الهواءِ لنا!
سَبَقْتُ إلى مَجْدٍ تُسَجِّلُهُ
والمجدُ مخلوقُ لرؤادِ
زَهَبْتُ بكلِّ قيودٍ غفلتِنا
أهلاً بها «لطفية النادي»!
وسَمْتُ بنبُلٍ شعورها الهادي

طارَتْ وعَيْنُ النَّسْرِ فِي خَجَلٍ
وعيونُنَا أُسْرَى تَتَابَعُهَا
غَزَتْ الهَوَاءَ كَغَزْوِ غَفْلَتِنَا
وتَجَوَّلُ فِي مِيدَانِهِ فَرَحًا
وَالشَّمْسُ تُرْسِلُ مِنْ أَشْعَتِهَا
حِرْسًا لَهَا وَلِنَا تَطْلُعُهَا
وَكَأَنَّهَا رَمَزٌ لَأَمَّتِهَا
وَكَأَنَّهَا طَارَتْ لَأَبَادٍ
وتَرَى الدَّقَائِقَ طَوْلَ أَمَادٍ
وَسَمَتْ عَلَى مَعْهُودِ أُسْدَادٍ
فَرَحَ الْعَزِيزِ بِفَخْرِ أَشْهَادٍ
جَيْشِينَ مِنْ خَافٍ وَمِنْ بَادٍ
فَكَأَنَّهَا حَيِطْتُ بِأَجْنَادٍ
فِي حُلْمِهَا وَضِرَاعَةِ الْوَادِي

* * *

يَا بِنْتَ مِصْرَ أَرَى بِطَوْلَتِهَا
عَدَّتْكَ أَثَارُ لَهَا شَمَخْتُ
لَبِئُوا قَرُونًا فِي مَقَابِرِهِمْ
نَامُوا فَمَا نَامَتْ رِسَالَتُهُمْ
فَإِذَا هَتَفْنَا الْيَوْمَ مِنْ فَرَحٍ
مَثَلَتْهَا أَلْقَا لِمِرْتَادٍ
كَالْوَحْيِ مِنْ دَعَوَاتِ أَجْدَادٍ
يَتَرَقَّبُونَ نَهْوَضَ أَحْفَادٍ
وَكَأَنَّهَا طَارَتْ بِمِيعَادٍ
فَهَتَفْنَا مِنْ أَمْسِنَا الصَّادِي!

الوفاء الذبيح

(إلى صاحب الغادر)

مَدَحْتُ مَا مَدَحْتُ لَكِنْ
يَسْرُنِي مَا مَدَحْتُ يَوْمًا
سَاحَفُظُ الذِّكْرِيَّاتِ شَدُّوْا
وَكَلِمَا لَمْ أَجِدْ وَفَاءً
رَجَعْتُ أَسْتَنْشِقُ الْأَمَانِي
وَعِشْتُ فِي الذِّكْرِيَّاتِ أَبْكِي
هِيَهَاتَ أَنْ أَنْظِمَ الْهَجَاءَ
لَا نَدْمُ خَلِي إِذَا أَسَاءَ
يُزَيِّنُ الشَّعْرَ وَالْغِنَاءَ
أَوْ كَلِمَا زِدْتَنِي عِدَاءَ
فِي مَدْحِي الْمُزْدَهِي وَلَاءَ
وَلِيْتَنِي أَرْتَوِي بُكَاءَ!

* * *

قَدْ بَعْتَنِي غَادِرًا وَلَكِنْ
بَلْ زِدْتَ فَقْرًا وَأَيَّ فَقْرٍ
مَا نِلْتَ مِنْ بَيْعَتِي ثَرَاءَ
فَأَنْتَ مَنْ بَدَّدَ الْإِخَاءَ

رضيتُ والله أن تُفدَى لو كنتَ مَنْ يَنشُدُ الغداءَ
لا الختلَ إذ تَذهي جُحودًا بالودِّ أو تَذهي رياءَ
وكلُّ ذنبٍ يهونُ لكن لا ذنبُ مَنْ يَذبحُ الوفاءَ
ومَنْ يُجازي بكلِّ كيدٍ مَنْ يشتهي الناسَ أصدقاءَ!

* * *

تَواضعي نُقْتَهُ طويلاً فهاكهُ الآنَ كبرياءَ!

عذراء بختن The Maiden of Bekhten

ذاك «رمسيس» والوفودُ حوالِيه بأشهى الحُلِيّ والعُبدانِ
والأغاني تَسيلُ في لهفِ العيدانِ حينًا وفي حنينِ الغواني
زَنُّ منه اليمينَ في جِلْسةِ الفنِّ كما زانَ مَطْمَحُ الفنَّانِ
وعُيونُ الأتباعِ في شرفِ المُلكِ تَبَاهَوْا بين الهدايا الحِسانِ
وضخامُ المِزَواحِ الجَمَّةِ الوشي تَرْفُ النسيمَ قبلَ الأوانِ
ونقوشُ البَهْوِ البهيَّةِ ألوانُ تُحاكي الربيعَ في الطيلسانِ
والهدايا تَخْتالُ مِنْ كُلِّ رُكنٍ يَتسامى وكلُّ رُكنٍ يُداني
والمليكُ العزيزُ ينظرُها شَزْرًا وإنْ حُمِلَتْ فُنونَ المعاني
ما يُبالي بها وإنْ أَكْبَرَتْها تُحَفٌ للجمالِ مِلءُ الزَّمانِ
حينَ حُكَّامُه تَفانُوا بما أَهدَوْا وجازُوا به حُدودَ التَّفاني
ثم لاحت «عذراءُ بَخْتَن» في الشَّفِّ فكانت حُوريَّةُ المِهْرَجانِ
هي أَشهى ما يَسْتَطيع أبوها مِنْ هدايا تَبَرُّ سِحْرِ البَيانِ
فتخلَّى رمسيسُ عن عرشِهِ الفخمِ إِلَيْها والعرشُ في الزَّهو رانِ
جذبتُهُ إلى صِباها وكانت آيَةُ المُلكِ والمُنَى في ثوانِ!
جَلَّ مَجْدُ الجمالِ، فالمجدُ في الدنيا فناءٌ ومجدُهُ غيرُ فانِ
ورموزُ الأربابِ شَتَّى ولكنَّ هو رمزُ الموحِّدِ الديانِ

الدهر الساخر

سمعنا صياح الدَّهْرِ في الرَّعْدِ ساخرًا
لقد جعلَ الزنديقُ في الناسِ مُؤمِنًا
وبَدَّلَ مِنْ مقياسِ كُلِّ حَقِيقَةٍ
وما فاءَ إِلَّا لِلْحَتُونِ بحِكْمَةٍ
«لئن كانتِ الدنيا أفادتكَ ثروةً
لقد كشفَ الإثراءُ منك خلأثًا»
بأبنائه والدَّهْرُ يُوغِلُ في السُّخْرِ
كما جعلَ الإيمانَ لوئًا من الكُفْرِ
وتَوَجَّ إحسانَ البرِّيَّةِ بالغَدْرِ
ويا ما أَقَلَّ الوَعْظَ والصدقَ للدَّهْرِ: ٣٥
فأصبحتَ منها بعدَ عُسْرِ أَخا يُسْرِ
من اللؤمِ كانت تحت ثوبٍ من الفقرِ

بائع الأحلام

جَمَعْتُ أحلامي ورُحْتُ منادياً:
فتضاحكتُ حولي الطبيعةُ حُلوةً
أنا بائعُ الأحلامِ شَتَّى، كُلُّها
لم أَبْنِها يوماً بفضلِ مُعَلِّمٍ
لُعِبَ الخيالُ، وكم بها مِنْ مَظْهِرٍ
فيها المُتَلَمُّ والجريحُ، كما بِهَا
وأنا الصغيرُ الطفلُ في فَرَحٍ بها
والأمُّ تضحكُ مِنْ غروري تارةً
لم ألقَ في الدنيا جميلاً يُقَتِّنِي
هل مُشْتَرٍ يهفو إلى أحلامي؟
كالأمِّ عاطفةً على إلهامي
عَجَبٌ مِنَ الأضواءِ والأنغامِ
إِلَّا الأَسَى وهَوَى فؤادي الدامي
يَسْتَجْمَعُ السَّامِي وغيرَ السَّامِي
ما اختالَ مِنْ حالٍ وَمِنْ بَسَامٍ
وكسيرُها كسليمُها لغرامي
وهنيهةٌ تأسَى على أوْهامي
ويُبَاعُ غيرَ روائعِ الأحلامِ!

٣٥ البيتان التاليان للمعتمد بن عباد وجههما إلى صنيعته الأديب صالح بن صالح، وقد تنكر للمعتمد بعد أن ظفر بمعاونته تنكراً قبيحاً صار مضرب المثل في الجحود.

قطتي المتصوفة

لقد تقشّفتُ عمري
فهل تصوّفتِ مثلي
فما خَسِرْتُ كثيرًا
وقد هَجَرَتِ القصورا؟
رضيتِ خُبْرًا كسيرًا
ونلتِ قلبًا كسيرًا!

ليلة في الصيف A Summer Night

آمنَ بالبدر المُطلَّ حَنَانُهُ
فخلَعَنَ أُرْدِيَةً كَأَنَّ بَقَاءَهَا
وَجَلَسَنَ وَالنَّوْمُ الْمَخَادِعُ سَاحِرٌ
فَلَبِثُنْ بَيْنَ تَنَاعُيسٍ لَا يَنْتَهِي
وَالدَّفْعُ فِي الْجَوِّ الْحَنُونِ كَأَنَّهُ
وَكَشَفْنَ لِلَّيْلِ الصَّدِيقَ نِمَازِجًا
مِنْ كُلِّ جِسْمٍ نُورُهُ وَظِلَالُهُ
نَسَمَعُ الْأَنْغَامَ مَلءَ سُكُونِهِ
وَنَرَى بِهِ فَصَلَ الرَّبِيعِ وَإِنْ يَكُنْ
وَإِذَا الطَّبِيعَةُ فِي سُكُونٍ شَامِلٍ

حتى ينامَ على بساطِ الماءِ
كُفِرَ بِمَا لِلْحُسْنِ مَنَ آلاءِ
أَحْلَامَهُنَّ بِرُوحِهِ الْمَشَاءِ
وَالنَّوْمُ فِي شَغَفٍ وَفِي اسْتِحْيَاءِ
أَمَلُ الْحَيَاةِ يُبَثُّ فِي الْأَحْيَاءِ
لِلشُّعْرِ فَهُوَ مُعَلِّمُ الشُّعْرَاءِ
مَجَلَى الْفُنُونِ بِنَفْحَةِ عَذْرَاءِ
وَنَعْدُ رُؤْيَاهُ مِنَ الصُّهْبَاءِ
فِي الصَّيْفِ فَتَانًا لِحُلْمِ الرَّائِي
وَالْحُبِّ فِيهِ يَثُورُ كَالْأَنْوَاءِ!

السعادة المجنحة

أَتَحْسِبُهَا تَقَرُّ لَدَيْكَ خِلًّا؟
فَدَاعِبُهَا إِذَا مَا شِئْتَ طَيْفًا
إِذَا حَاوَلْتَ تَخَطُّفُهَا تَلَاشَتْ
أَبْتُ عَيْشَ الْإِسَارِ فَبَاعَدْتَنَا

فهل أَنَسَيْتِ أَهْوَاءَ الْغَوَانِي؟
يَمُرُّ كَمَا تَمُرُّ بِكَ الْمَعَانِي
تَلَاشِي الْوَهْمَ فِي دُنْيَا الْعِيَانِ
وَنَحْنُ بِأَسْرِنَا أَبَدًا نَعَانِي

تراها كالضياءِ بكلِّ لون
كأنَّ السَّحَرَ يملؤها حياةٌ
تطيرُ إذا تَتَبَّعَهَا حبيبٌ
ولم نتركْ محلاً لم تزُرْه
وكلُّ يَشْتَكِي وَضْلاً وهَجْراً
وكم جادتْ وكم بخلتْ ولكنْ
نبيع حياتنا لننالَ منها
فتخدعنا وتقهرنا وتمضي

وتمسكها فتفقدُها اليدانِ
ولكنْ كُلُّها بالسحرِ فانِ
وتهبطُ حيث لا يُرجى التَّدَانِي
على صُورٍ مُنَوَّعةٍ حِسانِ
وقد باتا بها يتساويانِ
لها سوقُ تَرُوجُ من الأمانِ
خيالاً يستحيل إلى دخانِ
بأجنحةِ القساوةِ والحنانِ!

الجاسوس

حارَبْتَنِي الحياةَ حتى دَعَنْتَنِي
نُقْتُ منها العَذَابَ والمُرَّ أُلُوا
لستُ بَعْدَ الَّذِي تَجَرَّعْتُ مِنْهَا
سوفَ أَمْضِي مُنْقَبّاً عن مَدَاهَا
أنا بالفنِّ دائبُ الكَشْفِ عنها
أنا أحيًا بالفنِّ فهو غِذائي

أَنْ أَعَاَفَ الرِّضَى وَأَبَى السَّلَامَا
نَا فَدَعْنِي أَذِيْقُهَا الانتِقَامَا!
أَشْتَهِي عَطْفَهَا وَأَرْضَى هَوَاهَا
ثمَّ أَفْشِي عُيُوبَهَا وَأَذَاهَا
فهو نَعَمَ الجاسوسُ نَعَمَ الحَلِيفُ
وانتِقَامِي، فما الحياةُ الرَغِيفُ!

أخت أفرديت

(لمحة من فرين Phryne، أروع مثال أبدعته الحياة.)

في قديم الزَّمانِ عاشتْ على جَمْعِ البراعيمِ مِنْ نَضِيرِ الحُقُولِ
شبهُ فَلَاحَةٍ يُصاحبُها الفَقْرُ وإنَّ أُسْعِدْتَ بحُسْنِ نبيلِ



ثم زارت في «إلوسيس»^{٣٦} حلى البحر بعيد للحسن زاه مؤات
فتجلت في نشوة ومراح من حنان الصبا ووثب الحياة
وجرت للمياه في غير حرص والغواني مداعبات إباء
فنزعت الإزار عنها ولكن صانها البحر عفة وحياء
ذاك يوم «فرين» قد سجلته في حياة الفنون والفنان
ألهمت فيه عبقرياً وفناً «لأبليس»^{٣٧} سيد الألوان
قد رآها ذاك المصور إعجازاً وآي الطبيعة الفتانة
فأبى أن يفوته بعض جدواها ومن حُسْنها رأى إحسانه
ودنا والجُمُوع ترقبها حيرى وقد أوشكت تفوت المياه
داعياً وهي من جلالته تُصغي وترعاه رهبةً وانتباهاً

^{٣٦} Eleusis مدينة إغريقية بحرية اشتهرت بمعبدها.

^{٣٧} Apelles هو المصور الإغريقي العظيم، وقد استوحى من فرين صورة (أفريت خارجة من البحر).

وإذا منتهى أمانى «أبليس» اتخاذ النموذج الحي ربّه
 راسماً وحيه مفاتن دُنياه، مُذنباً له كما شاء قلبه
 وإذا «أفرديت» تاركة البحر تجلّت عنها برسم الخلود
 صورة تنبض الحياة بها نبضاً وتُوجي لنا بمعنى الوجود
 كم أديب وشاعر فيلسوف وعظيم مُصوّر معدود
 صار لا يرتجي سوى الوحي منها ويَراها مآل حُلم السعيد
 فإذا بالفنون أَسرى لديها وإذا سحرها حياة الفنون
 وتملّى «بركستيليس» فيها ما يراه الفنان أشهى الجنون
 شام فيها «فينوس» واختار أن يُودع هذي الألوهة الصخر نحتة
 يقطع الصخر في دُحول عجب بينما ينسخ التفتن موتة!
 هكذا أصبحت «فرين» مثلاً للجمال المقدس التياه
 كل فن يرى بها ربّه العالي، فمنها استمد روح الإله
 بلغت غاية النفوذ وصارت في الغنى قوّة وأي مَليكة
 حمدتها دُنيا الجمال ولكن لم تهب مرة أدّى أو شريكه
 بل أفاضت على روائع يونان بهاء من سحرها العلوي
 كم جمال في صورة وقريض هو بعض من وحيها الأبدي
 غير أن الدُّنيا الحقيرة شاءت أن يجازى الجمال شرّ إساءة
 فادّعت ما ادّعت عليها لتلقى موتها وهي شمسها الوضاء!

* * *

وتولّى الدفاع «هيبيريديس»^{٣٨} ولكن رأى النجاة مُحالاً
 لم يُفدّها دفاعه الرائع الدّاوي ولم يُنقذ الذكاء الجمالا
 وبدا اليأس شاملاً، فتمادى نازعاً عن جمالها الحي ستره
 صائحاً: أيها القضاة! إليكم قُدرة غلبت على كل قُدرة!
 هذه لمحّة الألوهة جاءت في «فرين» العزيزة المحبوبة

^{٣٨} Hyperides مدرة كبير وزميل ديموستينيس الذي حضر — مع كثيرين من الأعلام — محاكمة فرين.

أَلْهَمْتُ كُلَّ شَاعِرٍ وَزَعِيمٍ فِي الْفَنُونِ الْمَآثِرَ الْمَوْهُوبَةَ!
هي فوق القانون في كل شيء فهي رمز الحضارة الفنَّانَةَ
ولها الحقُّ أن تُصَانَ وَتُحْمَى قَبَسًا مِنْ أُلُوهَةٍ فَتَّانَةً!
هي مَرَأَى الْإِعْجَازِ تَبَعَتْهُ الْأَرْبَابُ لِلنَّاسِ كِي يَشِيمُوا الْأُلُوهَةَ
هي فخرُ الحياة في هذه الدنيا نَسِينَا بِهَا الْهَمومَ السَّفِيهَةَ!
إِنَّ جِسْمًا كَذَلِكَ الْجِسْمِ لَا يُقْتَلُ بَلْ يَحْتَوِيهِ لِلْفَنِّ مَعْبَدُ!
أَيُّ قَاضٍ ضَمِيرُهُ يَحْمِلُ الْوِزْرَ إِذَا مَا قَضَى بِمَوْتٍ وَأَيَّدُ؟!

* * *

فإِذَا بِالْقَضَاةِ قَدْ بَرَّءُوهَا وَدَوَّى الشَّعْبِ الْمُحْيِي كَرِيمُ
فَمَضَتْ فِي الْأَسَى لَتَشْكُرَ «فِينُوسَ» كَمَا يَشْكُرُ الْحَمِيمُ الْحَمِيمُ

ساعة الأبدية

وَيَبْسُطُهَا عَلَى الْأَحْيَاءِ حُمُقُ	تركنا خلفنا الضوضاء تَطْغَى
وَتَشْرَحُهُ عَلَى الْأَفْنَانِ وَرُقُ	وجئنا «النَّيْلَ» نُقْرِؤُهُ هَوَانَا
وَفِي أَعْمَاقِهِ لِلْحُبِّ عُمُقُ	كَأَنَّ «النَّيْلَ» مَعْبَدُنَا الْمُفَدَّى
مِنْ الْأَحْلَامِ لَيْسَ لَهُنَّ أَفُقُ	جَرَى فَجَرَى بِهِ أَبَدٌ سَحِيقُ
وَفِي لِأَلَانِهَا أَمَلٌ وَشَوْقُ	خَوَاطِرُ مِنْ فَوَازِ الدَّهْرِ سَالَتْ
فَلَيْسَ جَمَالُهُ مِمَّا يُعَقُّ	تَمَلَّيْنَا الْجَمَالَ يَرَفُ فِيهَا
أَلَيْسَ عَلَى الْحَيَاةِ إِذْنٌ يَحَقُّ؟	إِذَا حَقَّ الْخَشَوْعُ عَلَى جَمَادِ
لَهُ فِي هَذِهِ النِّسَمَاتِ نَسَقُ	تَمَلَّيْنَا بِهَذَا تَه نَعِيمًا
كَأَنَّا شَبَهُ أَفْرَاحِ نُزُقُ	وَقَبَلْنَا الْعَوَاطِفَ فِي شِفَاهِ
بَدُنِيَا لِلْمَلَاخَةِ تَسْتَدَقُ	وَكُنَّا وَحْدَنَا لَكِنْ شَعَرْنَا
مِنْ الْوَهْمِ الْمَحَبِّ وَهِيَ صِدْقُ	تَحَفُّ بَنَا وَتَمْنَحُنَا رِضَاهَا
فَلَيْسَ لَنَا سِوَاهَا يَسْتَحَقُّ	وَتُحَسِّبُ وَحْدَهَا فِي الْعُمُرِ عُمَرَا
عَتِيًّا فِي الصَّبَابَةِ لَا يَشُقُّ	نَشُقُّ لَهَا مِنَ الظُّلُمَاءِ حِصْنًا

وَيَحْمِينَا النَّخِيلُ فَمَا نُبَالِي
وتَهْتَفُ حولنا الأطيافُ سَكْرَى
أُحْجِبُ خَلْفَهُ بَرْقٌ وَصَعْقُ
وليس لهنَّ حينَ لهنَّ نُطْقُ
وإنَّ مَلَأَ الهَوَاءَ مُنَى وَعِشْقُ!

الألحان السجينة

تلك القَمَارِيُّ والكِرْوَانُ صادحةٌ
هي الحياةُ بأفراحٍ تردُّدها
هَيَّا استمعْها ودعْ طيرًا كلفتَ به
لَحْنُ الطَّلِيْقِ تَرَى رُوحَ الحياةِ به
يا صاحبي! كلُّ ما في العيشِ مِنْ أثرٍ
ما في الطبيعةِ إِلَّا كلُّ مُحْسِنَةٍ
أذهبْ إليها ودعْ أَسْرًا تضيقُ به
لن يغنمَ الفنُّ صَدَاحًا يقيدهُ
كأنَّها أنبياءُ الحُبِّ للناسِ
لليائسينَ فتجلو ظِلْمَةُ الياسِ
رهنَ المَحَابِسِ في أمواتِ ألحانِ
تَطِيرُ ما بينَ أفنانٍ وأفنانِ
حالٍ تراه عَدُوًّا للتعاليدي
فاغنمَ حياتَكَ من هذي الأناشيدِ
ذرعًا وحرزًا أسيرَ الطيرِ يا صاح!
بل يبعثُ القيدُ أتراحًا لأتراح!

الزائر الخائف

أهلاً بزائرنا الجديد «الهديد» الخاشي أمانى!
ماذا؟ أتخشى يا عزيزَ الحُسْنِ فتانًا يُعاني؟
أبدًا يُتَابَعُ كلُّ حُسْنٍ كعزاءٍ لِهَوَاهُ
ويصونه أضعافَ ما صانته غاياتُ الحياةِ
أنظر! تأملْ ما تنالُ دواجني منْ صُحْبتي
فأنا الأسيرُ لها وإنْ عُدْتُ أسيرةَ رغبتى!
النحلُ مالكةُ الهواءِ سعيدةٌ بحديقتي
وحبيسةُ الغالي الدجاجِ أليفتي وصديقتي

شِعْر الدِّيَّانِ

وَأَرَانُبُ الصُّوفِ الْجَمِيلِ تَأَلَّقَتْ نَظْرَانُهَا
الْحُبُّ يَجْمَعُنَا وَلَمْ تَدْرِ الِهْمُومَ حَيَاتُهَا
بَيْنَا الْحَمَامُ يَطِيرُ فِي فَوْجِ كَأَحْلَامِ الرِّبْعِ
لَمْ يَخْشَ مِنْ شَغْفِي فَعَادَ إِلَيَّ فِي نَسَقِ بَدِيعِ
فَإِذَا أَرَدْتَ فَمَرْحَبًا بِكَ ضَيْفَنَا وَصَدِيقَنَا
وَإِذَا أَبَيْتَ فَلَيْتَنَا نَدْرِي رِضَاءَكَ ... لَيْتَنَا!

القَدِّيس

(أهداها الشاعر إلى صديقه الفنان شعبان زكي.)



شعبان زكي (بريشته).

يَا صَدِيقِي أَنْتَ كَالْقَدِّيسِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ
أَنْتَ حَيٌّ بَيْنَ أَمْوَاتٍ أَسَاءُوا لِلْمَمَاتِ!
ثَاوِيًا فِي عُزْلَةٍ كَالصَّخْرِ فِي بَحْرِ الطُّغَاةِ
تَقْبَسُ النُّورَ مِنَ الظُّلْمَةِ بَلْ مِنْ ظُلُمَاتِ

ترسمُ الأصباغُ شعراً قد تعالى عن رُواة
 لغة يفهمها الأحياءُ مِنْ دُونِ اللغاتِ
 أينَ هُمْ يا فَنُّ؟ أينَ الناسُ؟ في أيِّ الجهاتِ؟
 لا أرى إلَّا نُجومًا هامساتٍ باسماتِ
 علَّها الأحياءُ في الدنيا وأهلُ النظراتِ
 هُنَّ لَنْ يَخْذُلْنَ فَنَّا عَلَى الأرضِ المواتِ
 سابحاتٍ في مُحيطِ الدهرِ في ماضٍ وآتِ
 باحثاتٍ عن فقيدِ الفنِّ بين النِّيَّراتِ
 عازفاتٍ في مَجاري الكونِ لحنِ الكائناتِ
 عَشْ وتَرَجَمَ أَنْتَ مِنْ أسرارها أغلَى الصفاتِ
 في نُقُوشِ كُلِّها آياتُ فَنٍّ أو صلاةٍ
 تَبَعُثُ الألحانَ في النفسِ بلمحِ الخطراتِ
 كُلُّها صدحٌ وصمتٌ هو كالصَّدى مُؤاتي
 قَنَصَتْ أَطْيافَ أضواءٍ على لحنِ شَتاتِ
 لَهَجَتْ بالصَّفْوِ حينًا ثم حينًا بالشكاةِ
 يَتَمَشَّى الحبُّ فيها بالمعاني الخالداتِ
 أيُّ وَحْيٍ غيرِ وحيِ الحبِّ يَبْقَى للحياةِ؟
 لا أرى إلَّا نُورًا ضائعًا بين الهواةِ
 مَجْمَعُ الألحانِ، لكنَّ أينَ أفواهُ الشُّداةِ؟

* * *

يا صديقي! ذلك الإلهامُ فَيُضُّ النَّشْواتِ
 يتوالى في ازدحامٍ بالمعاني الرائعاتِ
 عبقرِيُّ الوحيِ يَهْوَى عبقرِيُّ اللمحاتِ
 أَوْحِيدُ أَنْتَ يا مَنْ نالَ هَذا المُلهِماتِ؟!
 مِنْ دُهورٍ تعرضُ الكونَ ببعضِ اللحظاتِ
 مِنْ نعيمِ سَرْمَدِيٍّ في ثوانٍ قلقاتِ
 كُلُّها طَوْعٌ لما تَهْوَى بأشهى السُّكَّراتِ

كُلُّهَا صَادٍ إِلَى الْفَنَّانِ مُخَيِّ كُلِّ ذَاتٍ
وَكَأَنَّ الْخَلْقَ وَهُمْ دُونَهُ حَتَّى يُؤَاتِي!
فَتَقَبَّلَ حُبَّهَا الْغَالِي وَمَحْسُودَ الْهَبَاتِ
هِيَ فِي الْأَحْلَامِ سَكْرَى وَهِيَ سَكْرَى الْيَقَظَاتِ
رَاوِيَاتٍ سِيرَةَ الدَّهْرِ وَأَيَّاتِ الْعِظَاتِ
هِيَ أَقْصَى مِنْ مُحَالٍ وَهِيَ أَذْنَى الرَّاوِيَاتِ
ثَائِرَاتٍ خَاضِعَاتٍ، خَاضِعَاتٍ ثَائِرَاتٍ
كُلُّنَا الْجَاهِلُ مَا تَعْنِي، سِوَى الْفَنِّ ... فَهَاتِ!
هَاتِ مَا تُبَدِّعُ فِي مُحَضِّ خُشُوعٍ وَتُقَاعٍ
مِنْ مَرَاءٍ وَمَعَانٍ وَصِفَاتٍ وَسِمَاتٍ
كُلُّهَا مِنْ عَالَمٍ خَافٍ وَطَوَّعَ اللَّمَّسَاتِ
تَتَجَلَّى فَتَرَاهَا بِنَهْئِ لِلْفَنِّ عَاتِ
ثُمَّ تُحْيِيهَا ضُرُوبًا مِنْ حَيَاةٍ شَائِقَاتِ
أَنْتَ يَا فَنَّانَ شَعْبٍ خَاسِرٍ فِي الْغَمَرَاتِ
إِنْ تَنَاسَ النَّاسُ لَمْ تَخْسَرْ سِوَى عَطْفِ الْجُنَاةِ
كَمْ ضَحَايَا لِفَنُّونٍ وَضَحَايَا لِأَذَاةِ
فَلْتَعِشْ لِلْفَنِّ قُرْبَانًا وَعِشْ أَسْمَى أَدَاةِ
وَإِذَا النَّاسُ تَنَاسَوْا فَتَقَبَّلْ قُبُلَاتِي!

المتعبّد

هَدَاةَ اللَّيْلِ أَنْتَ صَوْمَعَةُ الْحُبِّ فَرُوحٌ تَهْفُو وَقَلْبٌ يَرِفُ
ظُلُمَاتُ هِيَ الضِّيَاءُ لِنَفْسٍ بِسْمُوِّ الْإِيمَانِ تَسْمُو وَتَصْفُو
نَامَ أَهْلُ الْغَرَامِ بَعْدَ سُهَادٍ وَأَنَا سَاهِدٌ بِهِ أَسْتَخْفُ
سَكَرُوا بِالْهَوَى وَلَكِنَّ سَكْرِي بِمَعَانٍ عَنِ الْإِلَهِ تَشْفُ
خَمَرْتِي ذَلِكَ التَّأْمُلُ فِي اللَّيْلِ فَأَعْلُو فِي حِينٍ غَيْرِي يَسْفُ

قد تَذَوَّقْتُ كُلَّ رَاحٍ وَعِنْدِي أَنَّ رَاحَ التَّعَبِّدِ الْحَرَّ صِرْفُ
نَظْرَاتِي إِلَى الْوُجُودِ عِبَادَاتُ لِرَبِّي وَصَمْتُهُ السَّمْحُ عَطْفُ
لِي عَيُونٍ مِنْ صَفْوِ نَفْسِي تَنَاجِيهِه فَمَا يُسَعِّفُ التَّصَوُّفَ طَرَفُ
وَأَنَا ذَلِكَ الضَّعِيفُ وَلَكِنْ فِي حِمَاهُ لَا يَعْرِفُ النَّفْسَ ضَعْفُ
لُغْتِي مِنْ حَنَانِ هَذِي الْمَبَانِي وَالْمَعَانِي^{٣٩} وَمَا لَهَا بَعْدَ حَرْفُ
لُغَةٍ لِلصَّمُوتِ وَهُوَ بَلِيغٌ، رَبٌّ صَمَتٌ لَهُ بَيَانٌ وَوَصْفُ
إِنَّنِّي سَابِحٌ وَكَوْنِي مُحِيطٌ وَمَمَاتِي أَمْنٌ وَأَمْنِي حَتْفُ
وَحَيَاتِي لَوْلَا مُنَاجَاةٌ خَلَّاقِي فَنَاءً، فَإِنَّ نَبْعِي يَجِفُّ

خمر الحياة

لَمْ أَذُقْهَا إِلَّا قَلِيلًا وَلَكِنْ
أَتَمَلَّى الْحَيَاةَ شِعْرًا وَأَحْكِي
لَا تَظَنَّ الظُّنُونُ بِي فَشَفِيعِي
كَمْ عَرَفْتُ الْعَمِيقَ مِنْ سَكْرَةِ الْحَرْ
أَكْتَفِي بِالذُّنُوءِ مِنْهَا وَأَرْنُو
لَا تَلُمَّنِي فَلَسْتَ تَعْرِفُ دِينِي
هُوَ مَعْنَى يَجُلُّ عَنْ كُلِّ وَصْفٍ
هُوَ نَفْسُ الْأُلُوهَةِ الْمُتَفَانِي
مِنْ ضِيَاءِ الْإِلَهِ قَدْ خُلِقْتَ نَفْ
وَأَرَى اللَّهَ فِي الْحَيَاةِ فَدَعْنِي
إِنَّ هَذَا «الْيَنْبُوعَ» لِلَّهِ قَرِيبًا
كَمْ طُهورٍ مِنْ نَظَرَةِ الرَّجْسِ رَجْسُ
فَأَنَا عَابِدُ الْأُلُوهَةِ فِي كُلِّ

أَنَا دَوْمًا كَالشَّارِبِ الْمُتَحَسِّي
وَقَعَهَا الْحَرُّ فِي جَوَانِبِ نَفْسِي
خَاطِرٌ طَائِفٌ عَلَى كُلِّ حِسٍّ
مَنْ فِي حِينٍ تَمَلُّأَ الْخَمَرُ كَأْسِي^{٤٠}؛
لِلظَّاهَا كَعَابِدِ نَارِ شَمْسٍ
هُوَ أَسْمَى مِنْ كُلِّ طُهرٍ وَرَجْسٍ
وَهُوَ صِدْقٌ يَجُلُّ عَنْ كُلِّ حَدْسٍ
فِي مَدَاهَا مَدَى رَجَائِي وَأُنْسِي
سِي وَمِنْ ظُلْمَةِ الْوَرَى جَاءَ يَأْسِي
عَابِدًا غَافِرًا لِأَبْنَاءِ جَنْسِي
نُ فَهَمْسِي لَهُ إِلَى الرَّبِّ هَمْسِي
وَسِوَاهُ بِالطَّهْرِ لِلطَّهْرِ يُمْسِي
مَجَالٍ، وَلِلْأُلُوهَةِ نَفْسِي!

^{٣٩} الكائنات وتجاوبها.

^{٤٠} انظر قصيدة «العودة».

ليالي الرمل

قد سألنا الآمالَ عنها ولكنْ
عُلِّلَتْ بِالْغَرَامِ فيها فشابتْ
حُلِّلَ السحرُ حينما حُرِّمَ الشَّعْدُ
في ليالٍ كأننا أفقرُ النَّا
وكأنَّ الغريبَ عنها غريبٌ
كم عَرَفْنَا الجمالَ طيفًا عجيبًا
ثم عُدنَا وما ملكنا سوى البثِّ
ونظمنا له الأناشيدَ لَهْفَى

ما تَزَالُ الآمالُ عَطُشَى سِغَابَا
في ارتقَابٍ وما برحنَ كعَابَا
رُ مَتَاعًا نحسُّه وانتهابَا
سِ جميعًا ونُسْبُهُ الأربَابَا
عن غناها يرى الضياءُ الضبابَا
وشربنا الهوى خيالًا عُجَابَا
كأنَّا بها فقدنا الشبابَا
في خريفٍ يَقْضِي الليالي انتحَابَا!

صلاة

لَدَى سُرُرٍ لَأَوْلَادِي
صَلَاةُ اللَّيْلِ مِنْ قَلْبِي
على نظراتٍ مفتونٍ
تتابعُ حُلُوْ أَنْفَاسٍ
وأركعُ شَبَهَ مُبْتَهَلٍ
كأنَّ الليلَ عابدهم
أرى الإيمانَ يَغْمُرُنِي
ولكنِّي أَبُّ حَانَ
وقد جُمِعَا بنظرتهِ

أَبْتُ الحُبَّ منفردَا
وقد نامُوا كما سَهْدَا
تُقْبَلُهُمْ فَمَا وَيْدَا
ونُحْصِيهَا لَهُمْ عَدَدَا
ولم أَكْ دَاعِيَا أَحَدَا
فحالي حالٌ مَنْ عَبَدَا
فلمستُ بمسرفٍ أَبَدَا
أَحَبُّ إِلَهٍ وَالْوَلَدَا
وفي أحلامها خَلَدَا!



مدام رولان صاعدة درجات المقصلة.

(كانت مدام رولان قدوة فرنسا المتأهبة لثورة الإخاء والمساواة والحرية، وكانت تكره التماذي في العنف لفطرتها الشاعرة الرقيقة، وقد تألّف برعايتها ورعاية زوجها حزب الجيرونديين، ولكن المتطرفين «اليعقوبيين» أساءوا الظنّ بهؤلاء الأحرار الذين احتضنوا الثورة فنكلوا بهم، وقد فرّ بين من فروا السيد رولان، وسُجنت زوجته شهوْرًا، وعوملت أسوأ معاملة، ثم أعدمتم في النهاية ... ويؤثّر عنها أنها لما صعدت درجات المقصلة أظهرت منتهى الشجاعة، وكانت تؤدّ قبل إعدامها أن تدوّن خواطرها، فأبوا عليها ذلك، وحينئذ التفقت إلى تمثال الحرية في ميدان الإعدام، وقالت بأعلى صوتها جملتها الخالدة: «أيتها الحرية! كم من جرائم ترتكب باسمك!» وحفظ التاريخ لمدام رولان أنها أنبل امرأة عرفتها فرنسا الحديثة.)

ألا في سبيل العدل تلك المظالمُ فقد عزّ مَظْلومٌ كما هانَ ظالمٌ
خلدتِ بدنيا الحقَّ والحقَّ خالدٌ ومُتّ بدنيا البطشِ والبطشُ راغِمٌ

لئن خانك القوم الذين خلقتهم
وما هذه الدنيا بدار عدالة
حضنت لهم أسمى المبادئ حرّة
فيا عجباً! هل يحصد الغدر منقذاً؟
وهل تسكن السجن التي لم يكن لها
وهل تعرف النطع التي من سنائها
حياة هي الفن الجميل لقومها
تناهت إلى أسمى الشجاعة وارتقت
ويدفعها الوحي الذي ما درت به
هو القبس الأعلى الذي من شعاعه
على هذه الأرض التي صار أهلها
يعاقب فيهم بالإساءة مُحسِنٌ
وتحيا المآسي في تواريخ مجدهم

بروحك فالحى المسامح غارم
ولو أنّ روح العدل حيّ ودائم
فلما نمت عادت عليك المغارم
ويا أسفاً! هل يطعم الموت راحم؟
سوى الطهر مأوى لم تتله الجرائم
تبسم محزون وأسعد حالم
ففي كل مسعى للجمال تساهم
إلى منتهى ما جازه قط سالم
جموع ولم تفصح لغاه التراجم
أضاءت على دنيا الصغار العظام
ملوكاً ولكن النفوس بهائم
ويُنعت بالنعمة المقدس غاشم
كأن معاني المجد تلك الجماجم!

* * *

أتاركة الذكر المعطر بيننا
حييت على الأرض الخنونة مرّة
صدقت! فللحرية الناس أجرموا
صعدت إلى الموت العزيز قريرة
وقد عانق الآباد صوتك داوياً

وذكرك لم يبلغه جان وناقم
ونُبلك للذكر المخلد عاصم
وكم باسمها مدّ السلاسل جارم
كما يبلغ النبع المشوق صائم
ولم تسمع الآباد تلك الغمام^{٤١}

الهازلون

لن يقدر الناس موهوباً يُحرّره
كم من ذكاء مضاع بين من عبثوا

إلا إذا خلّقوا من روجه الحيّ
والكلُّ باكٍ ولكن شبه مبكي

^{٤١} الغمام: أصوات المحاربين. يريد الشاعر أن صوتهما للحرية والسلام هو وحده الذي خلد.

والعابثون بجاهٍ غيرٍ مطويٍّ
عن جُرمِها حين تُفني كلَّ علويٍّ
كالفرق ما بين إنسيٍّ وصخريٍّ
هدمُ الرجالِ وتشيدُ الأمانِي
لَمَّا أحلُّوه في أسمى الكراسِي
حتى يموتَ ذليلاً موتَ منسيٍّ
من المهازلِ تُشجِي والأغاني

الواهبُ الفردُ يشقى وهو متَّهمٌ
تشكو وتبكي جُموعٌ وهي غافلةٌ
والفرق ما بين موهوبٍ وغامطه
هيهات يفلحُ قومٌ كلُّ مأربهم
يكون في العجزِ حين العجزِ سخرهم
ويرحمون عظيمًا لا يُخادعُهم
وكلُّهم هاتفٌ باكٍ على صُورٍ

مسلة المطرية

ألم تكوني منارَ الوحي والقبس؟!
لأنتِ في غنيّةٍ دوماً عن الحرّس
بالأمس، والأمس يشكو بطشَ مفتريّ
هذي الأشعةُ في الدنيا لمقتبس؟
هذا الثرى كأنينِ الضوءِ والغلسِ
واليومَ ترجعُ في آلامٍ مبتئس
والحسنِ ناضرةً كالخودِ في عُرسٍ
وكيف تبقيين بعدَ الطُّهرِ في دَنسٍ
أمشي على الماءِ أم أمشي على اليبسِ!
على المضيقِ وتأبى عزّةُ الفريسِ
أقدأنا فيه أو في مائه النجسِ
وكله في شجى من دهره الشريسِ
يستلهمُ الأمسَ مجداً غيرَ مندرِسِ
ويضربُ السمعَ بالإحياءِ والجريسِ
وفاته بين مغبونٍ ومُختَلِسِ

يتيمةُ الدهرِ في بُؤسٍ وفي خرسٍ
لا تجزعي ودعي الأحداثِ غاشمةً
لم يدرِ قدركَ أحفادُكم افتخروا
يا رمزَ تبجيلٍ «هوراس» لمن خلقتُ
عافوك ما بين أدرانٍ يئنُّ لها
كانت تحجُّ لك الأحلامُ في فرحٍ
سكنتِ في قريةٍ بالذكرِ عاطرةً
فكيف تُمسين بعدَ المجدِ آفلةً
أمشي إليك وما أدري على تلفي
والعيرُ يأبى إباءً أن يعاونني
والوحدُ حولك صخابٌ إذا نسيتُ
والغرسُ عندك كالفرحانِ ظاهرةً
ومن بنيهِ وكلُّ صائحٍ مرِحٍ
حتى إذا لاحَ ذاكَ الأمسُ يرمقه
أغفى وأشبعهُ الخذلانُ في عمه

الشروق الهائب

صعدتُ إلى مَرْقَبِي المستعِزِّ
تَلَكَّأَ حِينًا فَلَمَّا مَضَى
فَمَدَّتْ لَهُ فِي مَجَالِ الشُّرُوقِ
وراحت تُحَاذِرُهَا الجَارِيَاتُ
وَمِنْ عَجَبٍ كُلِّ هَذَا السَّكُونِ
وقد أَبْطَأَتْ فِي شُرُوقِ «ذَكَاءٍ»
وللفجر إِيْمَاؤُهُ الغاضِبِ
مَضَى وَاللَّهْيَبُ لَهُ تَابِعُ
خَنَادُقُ يَرْهَبُهَا النَّاطِرُ
مِنَ السُّحْبِ وَالرَّيْحِ وَالطَّائِرِ
وَالْحَرْبِ مَشْهَدُهَا الرَّائِعُ
كَأَنَّ الشُّرُوقَ هُوَ الْهَائِبُ!

الورود الحمراء

يا وُرُودًا بِحَرِيقَةٍ وَاحْمِرَارِ
يُطْفِئُ اللَّيْلُ شُعْلَةً لِكَ مِثْلِي
أَهْ مِنْ خَدْعَةِ الظَّلَامِ وَمَا تُخْ
عُمْرُنَا بِالنَّهَارِ حَتَّى إِذَا مَا
فَعَرَفْنَاكَ بِالشَّدَى فِي الضَّحَايَا
وَعِدْنَا كَالرُّسْلِ فِي عَالَمِ الْحُبِّ
أَنَا أَحْنُو عَلَيْكَ صَنُوقًا لِنَفْسِي
نحن سَيَّانٌ فِي الْهَوَى وَالنَّارِ
وَكَلَانًا بِحَزْنِهِ الْمِتْوَارِي
فِي مَنِ النَّارِ وَالْهَوَى الْجَبَّارِ!
رَاحَ مُتْنَا بِمَيْتَةٍ لِلنَّهَارِ
وَعَرَفْتِ اللَّهْيَبَ فِي أَشْعَارِي
وَكَالْحُبِّ فِي غِنَاءِ الْقِمَارِي
وَشِعَارًا، يَا لِلجَوَى مِنْ شِعَارِ!

إدِّي كنتور

(الممثل الغنائي المضحك الشهير).

يا مُضْحَكَ الدُّنْيَا وَأَبْرَعَ سَاحِرِ
نَلْقَاكَ لِلْأَنْغَامِ أَحْذَقَ صَائِدِ
وَكَأَنَّ رُوحَ الْكَوْنِ رُوحُكَ دَائِمًا
أَتَعِيشُ عُمرَكَ فِي خِيَالِ الشَّاعِرِ؟!
وَنَرَاكَ لِلْأَحْلَامِ أَجْرًا طَائِرِ
بِخِيَالِكَ الْمَتَوَثَّبِ الْمَتَطَايِرِ



وَتَصَوِّغُهَا بِرَوَائِعٍ لِمَشَاعِرِ
كَالْكِرْنِفَالِ عَلَى غُرُورٍ دَائِرِ
حِظِ الْغَنِيِّ وَلَا الْفَقِيرِ الْعَابِرِ
إِلَّا مُحَالٌ مِنْ نَعِيمٍ سَاحِرِ
لَأَجَلٌ مَعْنَى مَنْ وَجُودٍ سَاخِرِ
يَلْهُو وَرَاءَكَ كَالصَّغِيرِ الْكَابِرِ
وَالْحَبِّ بَيْنَ مَبَاسِمِ وَمَزَاهِرِ
أَدْوَاتِهَا، بَيْنَ الْجَمَالِ الثَّائِرِ
نَمْشِي عَلَى هَمٍّ وَحِظٍّ عَاشِرِ
يُوحِيهِ طَيْفُكَ أَسْرًا لِلنَّاضِرِ
وَنَعَبٌ مِنْ نَبْعِ الْفَنُونِ الطَّاهِرِ
عَبَقٌ مِنَ الْكَكْتِيلِ بَيْنَ أَزَاهِرِ
يَرْنُو وَيَشْرَبُ كَالْعَتِيِّ الْفَاجِرِ
مَعْنَا وَنَمْنَحُهُ صَفَاءَ الْغَافِرِ
أَبْدَعْتَ عَادَ مِنَ الضَّلَالِ الْحَائِرِ

تُصْغِي إِلَى أَلْحَانِهِ وَفُتُونِهِ
الْهَزْلُ فِيهَا الْجَدُّ حِينَ حَيَاتُنَا
إِنْ أَحْسَنْتَ سَلَبْتَ فَلَيْسَ لِحِظْنَا
مَا سَاعَةٌ تُقْضَى لَدَيْكَ بِفَرَحَةٍ
فِي جَنَةِ الْوَهْمِ الْحَبِيبِ وَإِنِّهَا
وَنَرَاكَ كَالطِّفْلِ الْكَبِيرِ وَكَلْنَا
دُنْيَا الْجَنُونِ وَإِنِّهَا دُنْيَا الْمَنَى
الرَّقْصُ بَعْضُ لَغَاثَتِهَا، وَاللَّحْنُ مِنْ
نَمْشِي عَلَى الْأَحْلَامِ وَالْأَضْوَاءِ، لَا
وَنَرَى الرِّبِيعَ حَيَالَنَا فِي كُلِّ مَا
نَنْسَى وَجُودَ النَّاسِ حَتَّى ذَاتَنَا
فَاضَتْ لَنَا أَلْوَانُهُ وَمَزِيْجُهَا
وَكَأَنَّمَا الدَّهْرُ الْعَنِيدُ حَلِيفُنَا
فِيْنَآلِ مَنْآ الصَّفْحَ سَاعَةً أَنْسَهُ
قَدْ كَانَ يَجْرِي تَائِهًا حَتَّى إِذَا

فَنَرَى الحَيَاةَ تَجَمَّعَتْ فِي يَقْظَةٍ كَالْحُلُمِ مَالِكَةً جَمِيعَ الخَاطِرِ
وَكَأَنَّمَا الكَوْنُ العَظِيمُ بِأَسْرِهِ قَدْ صَارَ مَنَسِيًّا بِذَهْنِ الذَّاكِرِ
وَعَدْتُ أَمَانِي الحَيَاةِ رَهِينَةً لِلْعَبْقَرِيَّةِ فِي مَدَاكِ البَاهِرِ!

بين ذنوبي

عَاتَبْتَنِي فَشَكَرْتُ عَتَبَكَ حِينَمَا أَنَا فِي جَحِيمٍ لَا انْطِفَاءَ لِنَارِهِ
لَمْ أَلْقَ إِلَّا غَزَلْتِي فِي حُرْقَتِي كَالنَّارِ تَضْحَكُ فِي اللَّهْيَبِ وَهَا أَنَا
آثَرْتُ وَحْدِي أَنْ أُحْمَلَ عَبَاءَ مَا وَالْآنَ فِي غُصَصٍ أَجْرَعُ حَسْرَةً
فِي سَالِفِ الْأَحْلَامِ لَمْ أَبْخُلْ بِهَا وَالْآنَ مَا لِي غَيْرُ آلَامٍ لَهَا
مَا كُلُّ عَتَبٍ لِي يُكَالُ سِوَى شَجِي مَنْ ذَا يَلُومُ عَلَى الْجَرِيحِ سُكُوتَهُ
وَأَنَا الشُّكُورُ لِمَنْ يُعِزُّ مَحَبَّتِي الصَّمْتُ أَكْرَمُ لِي وَأَوْفَى نِعْمَةً
أَلَمْتَنِي بِعَتَابِكَ المَحْبُوبِ أَيْعُدُّ مَوْتِي فِيهِ بَيْنَ ذُنُوبِي؟!
تُوجِي العَزَاءَ إِذَا اسْتَطَالَ عَذَابِي كَالنَّارِ أَضْحَكُ فَاللَّهْيَبُ شَرَابِي
أَسْلَفْتُ لِلدُّنْيَا مِنَ الْإِحْسَانِ فِي حَسْرَةٍ مِنْ كُلِّ غُرٍّ جَانِ
أَبْدًا عَلَى مَنْ نَاشَدُوا أَحْلَامِي عُمْرِي فَخْلَيْنِي عَلَى الْآمِي
وَأَذَى وَلَوْ خَلَقْتَهُ رُوحٌ وَدَادَ وَعَلَى الْحَزِينِ غُزُوفَهُ بِحِدَادٍ؟
مِنْ كُلِّ شَكْوَى أَوْ تَكْلُفٍ أَنْسِي وَمِنْ المَحَبَّةِ أَنْ تُحَرَّرَ نَفْسِي

لصوص الخلود

تَعَالَى لِنَخِطَفَ هَذِي الدَّقَائِقَ مِنْ فَجْرِ هَذَا الصَّبَاحِ الوَسِيمِ
وَنُخْلِدهَا قَبْلًا لِلحَيَاةِ وَكُنْزًا لِهَذَا الزَّمَانِ العَدِيمِ!
تَعَالَى إِلَى سَاهِمَاتِ النَخِيلِ يُدَاعِبُهَا النُّورُ فِي وَجْهِهَا
لِنَنْهَبَ لَذَّةَ مَا أَضْمَرْتَهُ مِنَ الذِّكْرِيَّاتِ عَلَى بُعْدِهَا!

تَعَالَيْ تَعَالَيْ فَلِلصُّبْحِ لَحْنٌ حَوَاهِ النَّدَى وَشَدَى لَنْ يَعُودَ
تَعَالَيْ لِنَسْرِقَ مِنْهُ الْهَوَى فَفِيهِ الْوُجُودُ وَفِيهِ الْخُلُودُ!
تَعَالَيْ فِكُمْ أَخَذَ الدَّهْرُ مَنَا حَظُوظًا وَلَمْ يَبْقَ حَتَّى الشَّفَقُ
وَكَمْ قَتَلْتُ فُرْصَ لِلنَّعِيمِ وَحَتَّى الْخِيَالُ لَهْنًا احْتَرَقَ!
وَعَشْنَا نَسَائِلُ عَنْهَا الْغَدِيرَ وَتِلْكَ الزُّرُوعَ وَذَاكَ الْحَصَى
وَقَلَبَ الْوُجُودِ الَّذِي نَبْضُهُ يَنَالُ الثَّرَى وَيَنَالُ السَّمَاءَ!
فَلَمْ نَلَقْ إِلَّا السَّكُوتَ الْعَمِيقَ، فَبَعْضُ الصِّيَاحِ شَبِيهُ السَّكُوتِ
وَمَا الْحَيُّ إِلَّا حَيَاةُ الْمَعَانِي فَكُلُّ الَّذِي قَدْ عَدَاهَا يَمُوتُ!
وَلَمْ نَرَ إِلَّا خُلُودَ الْهَوَى تُسَجِّلُهُ قَبْلَ خَالِدِهِ
مِنْ الْكَوْنِ أَنَا وَمَنْ رُوحِهِ لَدَيْكَ عَلَى اللَّهْفَةِ الْعَابِدَةِ!
وَتُحْفَظُ فِي الْفَنِّ مُحَسُوسَةً وَإِنْ قُرِئَتْ فِي نَظِيمِ السُّطُورِ
وَتَنْبِضُ بِالشَّعْرِ نَبْضَ الْحَيَاةِ وَنَبْضَ الْجَمَالِ بَرغمِ الدَّهْوَرِ!

البعوضة والبيغاء

البيغاء ترى البعوضة ذرَّةً
وهي التي أفنت جيوشاً في الوغى
يا هذه! إِنَّ البعوضة ذاتها
ماذا لَدَيْكَ سَوَى غُرُورٍ كَاذِبٍ
في الوهم لا خَطَرَ يُخَافُ لَدِيهَا
وَالسَّلَامُ سَلَّطَهَا إِلَهُ عَلَيْهَا!
شَخْصِيَّةٌ فِي نَقْمَةٍ وَهَلَاكِ
وَعِبَاوَةٍ لِمَمَثَلٍ أَوْ حَاكِي؟!

خصومي

ولكنَّ خصومي رِفَقْتِي وَصَحَابِي
وقد خُدِعُوا مِنْ بَسْمَةٍ وَشَرَابِ
وَيَسْعُونَ لَا خَوْفًا وَلَا لَثَوَابِ
وليس خصومي مَنْ أَرَادُوا إِسَاءَتِي
هُمُوكُنَّا الْأَشْرَارَ مِنِّي بِصَفْحِهِمْ
أَعَزَّنِي رَجَالًا يَفْقَهُونَ عَقِيدَتِي

وَبَعْدُ فَسَائِلُ: أَيُّ حَصْنٍ مَمَرٍ
لَنْ شَمَتَ الْأَعْدَاءُ بِي فِي غُرُورِهِمْ
نَجَا إِنْ طَعَى مِنْ غَضَبِي وَعِقَابِي؟
فَمَا بَلَّغُوا مِنِّي كَوْنَهُمْ صَحَابِي!

أنشودة الفناء

الشَّمْسُ تَخْطِفُ بِالْأَشْعَةِ كُلَّ مَا
وَحَطَفَتِ أَحْلَامِي وَمَا عَوَّضَتْنِي
حَسَدُوا حَيَاتِي وَهِيَ بَيْنَ ظِلَالِهَا
صُبِغَتْ كَأَوْرَاقِ الْخَرِيفِ بِهِيَّةً
وَلَرَبِّمَا ضَحَكْتُ وَعَنَّتْ وَانْتَشَتْ
وَأَنَا كَذَلِكَ ضَا حَكَا وَمَغْنِيَا
فِي اللَّيْلِ هَيَّيْ لِلصَّبَاحِ مِنَ النَّدَى
إِلَّا التَّحَرُّقُ بِالْأَشْعَةِ وَالصَّدَى
وَضِيَائِهَا وَتَنَوُّعِ الْأَلْوَانِ
وَجَمِيعُهَا صُورٌ مِنَ الْأَحْزَانِ
فِي الرِّيحِ طَائِرَةٌ أَمَامَ فَنَائِهَا
وَالنَّفْسُ مُدْرِكَةٌ مُصِيرَ غَنَائِهَا!

في مرقص النجوم

فَتَنَ السَّمَاءِ أَرَاكِ مِلْءَ مَسَائِي
صَدَحَتْ بِمَوْسِيقَى الْخُلُودِ فَهَلْ تَرَى
أَصْغِي إِلَيْهَا وَهِيَ سِحْرٌ شَامِلٌ
وَأَنَا بِهَا فَرَحٌ كَفَرَحَةِ طِفْلَتِي
أَوْ فَرَحَةِ الْأَزْهَارِ رَشَّ عَبِيرِهَا
أَوْ فَرَحَةِ الْأَطْيَارِ قَبْلَ شَتَائِهَا
رُوحُ الطَّبِيعَةِ كَمْ يُحَسُّ وَلَا يُرَى
كَمَرَاقِصِ الْعُشَّاقِ فِي الصَّحَرَاءِ
صَدَحَتْ بِتِلْكَ الْأَنْجَمِ الزَّهْرَاءِ؟
لِلْكُونِ مِنْ مَلَكُوتِهَا الْوَضَاءِ
بَكْرَاتِهَا دُخْرُجَنَ فَوْقَ الْمَاءِ
عَبَثْتُ مِنَ النَافُورَةِ الْحَسَنَاءِ
فِي سُكْرِهَا بِهِوَى الرَّبِيعِ النَّائِي
وَيَبْهُوحُ لِلْعُشَّاقِ وَالشَّعْرَاءِ!

مصر العازفة

(تصدير كتاب «سيد درويش» للأديبين السكندريين علي محمد البحراوي وأحمد علي عوض.)

تَقَبَّلْ! ذلِكَ الأَدَبُ المُصَفَّى يُرَفُّ إِلَيْكَ وَالْفَنُّ اللَّبَابُ
وَأَصْغِ إِلَى الصَّدَى فِي الشَّعْرِ يُحْكِي وَفِي النِّقْدِ الْوَفَى وَيُسْتَطَابُ
أَدِيبًا التُّغْرَ قَدْ كَفَلَاهُ مَعْنَى مَنِ الْقُرْبَانِ زَكَاةُ الشَّيْبَابُ
بَقَايَا مِنْ شُعَاعِكَ فِي غِنَاءٍ وَفِي أَدَبٍ إِذَا انْطَفَأَ الشَّهَابُ
لَقَدْ عَرَفَاكَ فِي عَيْشٍ وَمَوْتٍ وَقَدْ جَافَاكَ بَيْنَهُمَا الصَّحَابُ

* * *

عَزَفْتَ وَأَنْتَ «مِصْرُ» بِكُلِّ لَوْنٍ عَرَضْتَ، وَنَبَعُكَ الْبَحْرُ الْعُجَابُ
وَلَوْلَا خُدْعَةُ الْأَقْدَارِ كَانَتْ حَيَاتُكَ كُلُّهَا أَمَلًا يُجَابُ
وَلَكِنْ جِئْتَ بِالْأَلْحَانِ سَحْرًا وَضَلَّ الْغَافِلُونَ فَمَا أَصَابُوا
فَصَانَتِكَ «الطَّبِيعَةُ» فِي اعْتِزَالٍ وَكَمْ حَرَسَ الْكُنُوزَ لَهَا التُّرَابُ

* * *

لَيْشُكَ الْعُقْمَ مَنْ يَهْوَى شِكَاةً فَقَدْ غَفِرْتَ وَقَدْ كُشِفَ الْحَجَابُ
وَهَذِي الْعَبْقَرِيَّةُ فِيكَ ثَكَلَى وَلَنْ يُطْفِي بِنَا الظَّمَا الشَّرَابُ
وَكَيْفَ وَنَحْنُ نَرْمُقُ كُلَّ أَفَقٍ وَمَرَأَى سَائِلِينَ وَلَا جَوَابُ
وَلَا نَجِدُ الْمَغْنَى السَّمْحَ يَشْدُو مَعَانِيهَا فَيَرْفَعُهَا السَّحَابُ

* * *

مَغَانِي «النَّيْلِ» بَعْدَكَ عَاطِلَاتُ فَإِنَّ مُلُوكَهُ الْأَرْبَابَ غَابُوا
وَلَحْنُكَ سِرُّهُمْ قَدْ ضَاعَ حَتَّى كَأَنَّ الْفَنَّ لَيْسَ لَهُ إِيَابُ
فَمَنْ يَحْكِي الشُّرُوقَ وَكُلَّ لَوْنٍ رَوْتُهُ لَهُ الْمَنَازِلُ وَالْقَبَابُ؟
وَمَنْ يَحْكِي الْغُرُوبَ عَلَى لَهَيْبٍ تُقْبَلُهُ الْمِيَاهُ وَقَدْ يُذَابُ؟
وَأَنْغَامَ الْحَيَاةِ بِمِصْرَ لَمَّا مَضَى الْقُمْرِيُّ وَاعْتَزَّ الْغُرَابُ؟
وَأَصْدَاءَ الْمَعَابِدِ وَهِيَ تَرْوِي مِنَ التَّارِيخِ مَا تَرَكَ الْحِسَابُ؟

قرونٌ في الرمالِ وفي المباني
تلوحُ كأنَّها خرسٌ ولكنْ
ذهبتْ فما مَضَى للفنِّ حُزْنٌ
وهذي الذكرياتُ إليك تُهدى
وفي الأمواهِ يجمعها العتابُ
أغانيها يُساورُها العذابُ
وبعضُ الحُزنِ ليس له ذهابُ
كما يُهدى لمُلهِمِهِ الكتابُ

الحياة الذاتية

سنسمو برغمِ الفقرِ ما دام عَيْشُنَا
وليستْ حَيَاةٌ غَيْرُ ما في قلوبنا
ستفنى أعاصيرُ الحياةِ ببؤسها
وإنَّ حَيَاةَ عُمْرُها رهنُ ثروَةٍ
وما الشَّعبُ إلَّا من صَمِيمٍ يقينه
إلى أن يُجازَى حتْفُهُ أو خسارُهُ
مَنْ النَفْسِ لا مَنْ غَيْرِها يتسامى
فإنَّ عُدِمَتْ باتَ الضَّيَاءُ ظلامًا
ويبقى غِنَاها في النفوسِ سلامًا
وفقرُ لَمُوتٍ في التَّسْتُرِ دامًا
فإنَّ غَابَ أَمْسَى كالمُضَلَّلِ هامًا
ذليلاً، وإلَّا هَمٌّ ثم تَسَامَى

ليالي رمضان

خرستُ بالنهار ألسنةَ الحُبِّ
واستحالَ النهارُ ليلاً وديعاً
والأفاويحُ من طعامِ شهْيٍ
أفلحتُ حينما تَعَثَّرَ داعٍ
ويموتُ النهارُ في فرحةِ الناسِ
ولكلِّ ثأرٍ لديه ويأبى
وتراءى المؤذنُ الرائعُ الصوتِ
وغنَّتْ بالليلِ لحنًا شجيًّا
وتراءى الظلامُ نورًا بهيًّا
هي ملءُ الآنافِ عند المساءِ
في اجتذابِ الأحبابِ والأصدقاءِ
وقد صَوَّبُوا إليه المَدافعُ^{٤٢}
صائمٌ في نجاتِهِ أيَّ شافعٍ!
حبيبًا وساحرًا بالأذانِ

^{٤٢} من المتبع الآن إعلان الإفطار بإطلاق المدافع في العواصم الإسلامية.

كَغَرِيبٍ مِنْ عَالَمٍ الْوَهْمِ حَيًّا	نَا بِرُوحٍ يَتِيمَةِ الْأَلْحَانِ
وَكَأَنَّ الدُّنْيَا أَصَاخَتْ إِلَيْهِ	وَهِيَ فِي حَيْرَةٍ لَمَّا يَعْنِيهِ
شَقِيقَتُ كَالْغَدِيرِ فِي مُتَعَبِ السَّيْرِ	وَقَدْ نَاحَ فَوْقَ صَخَرٍ كَرِيهِ
وَهُوَ يَمْضِي مُؤَذَّنًا فِي حُبُورٍ	وَيَغْطِي الْأَتْرَاحَ وَالْأَلَمَا
وَتَعُودُ الدُّنْيَا فَتَلْقَاهُ مَعْنَى	يَهْبُ الْحُبِّ وَالْغِنَى وَالسَّلَامَا
وَتَقْضَى السَّاعَاتُ فِي اللَّيْلِ أَلْوَا	نَا مِنَ الْأَنْسِ وَالْمُنَى وَالشَّبَابِ
فَكَأَنَّ الدُّنْيَا تُعِيدُ فِيهَا	مِنْ عَنَاءٍ وَتَشْتَفِي مِنْ عَذَابِ!

وحوي! وحوي!

وَحَوِي! وَحَوِي!	صَاحَ الْأَطْفَالُ
وَجَرُّوا خَبَبًا	بَيْنَ الْأَمَالِ
وَالنُّورُ بَدَا	كَالْأَحْلَامِ
وَالْهَمُّ لَهُمْ	جِدُّ حَرَامِ
غَنُّوا فَرَحًا	وَاللَّيْلُ قَرِيرُ
فِي صَدَحْتَهُمْ	إِلْهَامُ بَشِيرُ
رَمْضَانُ بِهِمْ	زَاهٍ وَسَعِيدُ
فِيكَافُوهُمْ	مِنْ حَلَوَى الْعِيدِ
فِي طَلَعَتِهِمْ	وَالدَّهْرُ بِخَيْلِ
نِعَمٌ سَلَفَتْ	بَيْنَ التَّقْبِيلِ
فَأَرَى فِيهَا	أَمْسِي الْمَحْبُوبِ
وَأَحْيَا فِيهَا	صِيحَاتِ قُلُوبِ!

* * *

يَا أَبْنَائِي!	يَا أَبْنَائِي!
رُسُلُ أَنْتُمْ	لِلسَّرَّاءِ!

الأشعة الصادرة

(الشمس)

أشريقي! أشريقي! فدتك الليالي!
جندل الحارس الذي سمي الليد
تلك أضواؤك الحبيبة لاحت
صدحات ترن في أعماق النفس
فيذا الطير شاعراً يتغنّى
وإذا الزهر عاطراً يتثنّى
كل ما أعلن الصباح نشيد
هتفات ترى بكل حياة
يتجلى بها التفاؤل للمن
وكان الوجود حين تلوح
كل ما فيه مشرق النفس حتى
ريشة الفن في ضيائك تحيي
في خيوط منغومة الوحي تختا
أنت أنت الحياة في كنهها الصا
خلدت في القرون، لكن نراها
وهي سحر الألوهة الغامر الخل

واغسلينا طهراً من الأحزان
ل فاهلاً صديقة الإنسان!
صادحات في حُسْنِها بالأمانِ
س وليست ترن في الآذان
فهو كالرجع وهو كالترجمان
فهو معنى خلقتِه في البيان
مُستمد من لحنك النوراني
وحنان يرى بكل مكان
هوم بالعيش في حياة المعاني
ن صلاة في روجه الفتان
غيب الموت في حياة التفاني
نا وتحيي الجماد بالألوان
ل من الوقع في نهى الفنان
في وليست في الجرم أو في الزمان
بنت طرف رأى وبنت ثوان
ق ومُدنيهمو إلى الديان!

* * *

أشريقي! أشريقي! فدتك الليالي!
واغسلينا طهراً من الأحزان!

رسل الرجاء

(تحية النصور المصريين في عودتهم إلى العاصمة من إنجلترا يوم ٧ ديسمبر سنة ١٩٣٣.)

أَقْبَلَ السَّرْبُ فَأَهْلًا بِالرَّجَاءِ يَتَهَادَى بَيْنَ أَطْيَافِ السَّمَاءِ
 قَدْ بَذَلْنَا مِنْ ضَحَايَانَا لَهُ مَا بَذَلْنَا مِنْ جُهودٍ وَدَمَاءٍ
 فَاسْتَثَارَ الْيَوْمَ مِنْ عَزَّتِنَا وَاسْتَعَادَ الْيَوْمَ مَاضِيَ الْكِبْرِيَاءِ
 وَأَتَانَا بِعَزَاءٍ مَا لَهُ فِي الْمَعَالِي مِنْ نَظِيرٍ فِي الْعَزَاءِ
 هَذِهِ الْعِزَّةُ لَا شَيْءَ سِوَى رُوحِهَا يُحْيِي نَفُوسَ الشَّهْدَاءِ
 عَرَفُوهَا رُوحَ مِصْرَ الْمُعْتَلِي هَضْبَاتِ الْجَوِّ أَوْ سَيْلَ الضِّيَاءِ
 فَاتِحًا لِلنَّيْلِ أَنْهَارَ الْعُلَى إِنَّمَا الْعِلْيَاءُ فِي فَتْحِ الْفَضَاءِ
 فَهَتَفْنَا وَالضَّحَايَا قَبْلَنَا فِي هَتَافٍ مِنْ قُبُورِ وَسْمَاءِ
 وَكَأَنَّ الشَّمْسَ لَمَّا أَشْرَقَتْ ثَمَ غَابَتْ فِي تَهَانٍ وَرثَاءِ
 هُوَ يَوْمٌ جَامِعٌ أَحْلَامَنَا بَيْنَ آمَالٍ وَأَلَامٍ سَوَاءِ

* * *

اهْتَفِي يَا مِصْرُ مَا شَبَّتِ اهْتَفِي بِحَيَاةٍ لِبَنِيكَ الْبُسْلَاءِ!
 هُوَ يَوْمٌ مِنْ تَفَانٍ رَائِعٍ أَوْ كَيَوْمِ الْوَحْيِ عِنْدَ الْأَنْبِيَاءِ
 اهْتَفِي! هَذِي حَيَاةٌ لَمْ تَكُنْ غَيْرَ أَحْلَامِ الشَّعُوبِ السُّعْدَاءِ
 خَلَقَتْهَا رَاحَةُ الْعِلْمِ كَمَا خَلَقَتْهَا أَنْفُسُ تَهَوَّى الْفِدَاءِ
 تَرْفُضُ الْمَوْتَ بِإِطْلَالِ الثَّرَى وَتُحْيِيهِ بِأَبْرَاجِ الْهَوَاءِ
 مِنْ إِبَاءٍ وَطُمُوحٍ وَلَطْخَى صَوَّغَهَا، وَالرُّوحُ رُوحَ الشُّعْرَاءِ
 وَإِذَا الشَّمْسُ لَهَا قَبْلَتَهَا وَالْهَلَالُ الْحَيُّ فِي الْأَفْقِ اللَّوَاءِ

* * *

أَقْبَلَ السَّرْبُ وَلَمْ يَحْمِلْ سِوَى مَنْ لِمَجْدِ النِّيلِ بِالمَجْدِ كِفَاءِ
 فَجَرَى وَالتَّاجُ الْأَقْ السَّنَا وَاسْتَوَى فَوْقَ صَعِيدٍ مِنْ وَلَاءِ
 أَيُّ مَجْدٍ فَاقَ مَجْدًا بَاقِيًا مِنْ قُلُوبٍ لَمْ يَرُوعَهَا الْفَنَاءُ؟
 أَنْصَفْتُ لِلْعَصْرِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ فِي أَمَانِيهَا قُلُوبُ الْقُدَمَاءِ
 أَنْصَفْتُ مَا أَنْصَفْتُ مِنْ شُعْلَةٍ أَوْدَعَتْهَا فِي أَمَانِينَا ذُكَاءِ

بجمالٍ قد شأى هذا العلأء	«عينُ شمسٍ» لِلْعُلَى ما اكتحلتُ
مَنْ قرونٍ بفتوح العُظْماءِ	بنْتُ ماضينا التي قد حفلتُ
بمعاني الثأرِ نُبْلاً والإِباءِ	ضحكتُ لَمَّا تَجَلَّوْا وانتشتُ
يجعلُ الثأرَ فخارَ الجُبْناءِ	ليس مَنْ يثأرُ للنُّبْلِ كمن
كرفيفِ الحبِّ مِنْ فرطِ الظماءِ	رفَّ ذاك الرملُ في أضوائها
لم يهادنْها سوى هذا الرِّجاءِ	وحروبُ النورِ في أرجائِها
ببنيها الأذكياءِ الأوفياءِ	رَجَبْتُ ملءَ حُبورٍ وسَنَى
نظرةَ الخوفِ أَمَاماً أو وراءَ	الألى هُمُوا وطاروا وأَبُوا
شيئَوا الأحلامَ في أعلى بناءِ	الألى لَمَّا بَنَوْا أحلامهم
والأغاني في صباحٍ ومساءٍ	ألهمونا الشعرَ مِنْ أشعارهم

التركيز

(يرى الشاعرُ أن الألوهة قد تَتَجَلَّى أشعتها مركَّزةً في آية من آياتها حسب تجاوب النفوس الإنسانية، كما تَتَجَلَّى الشمسُ قاهرةً بتركيز أشعتها بالعدسة البلورية، فتتمثل نقطة التركيز الشمس وإن نأت جدَّ النَّأي عنها، وكذلك تتمثل الألوهة في الجمال القاهر للنفس المتصوِّفة التي تتأثر به على ذلك النحو).

فكأنما هي إذ جُمِعْنَ الشَّمْسُ	جَمَعُوا الأشعةَ رُكُزَتْ في نُقْطةٍ
جُمِعَتْ لَدَيْكَ وفي سَنكِ تُحَسُّ	وأراكِ أَنْتِ مِنْ الجمالِ أَلُوهُةٌ
ونسُوا تصوُّفَ مهجتي وحياتي	وتوهَّمُوا الإلحادَ فيما خِلْتُهُ
واللهَ فيكِ نهايةَ الآياتِ!	إنِّي عرفتُ الشمسَ مَجْمَعَ صُوئِها

حمام الفيلسوف



لا تُنكروا أحلامَ حَيٍّ شاعرٍ
نَبَعَتْ شَرَابًا لِلنَّفُوسِ لَعَلَّهَا
عَبَثِي هُوَ الْفَنُّ الْجَمِيلُ، وَرُوحُهُ
فَتَذَوَّقُوهُ وَأَسْرِفُوا بِتَذَوُّقِ
وَتَأَلَّمُوا مِثْلِي إِذَا أَلَمْتُكُمْ
مَهْمَا شَكُوتُ أَوْ اسْتَبَحْتُ مَعْنَفًا
مَهْمَا يَبْسُتُ بَثُورَتِي فَطَبِيعَتِي
لا تَرْكُنُوا لِلْوَهْمِ بَيْنَ تَعْنَتِ
أَوْ تُسْرِفُوا كَالْفِيلَسُوفِ مَخْرَفًا
نَسِيَ الْوُجُودَ وَرَاحَ يَغْنَمُ ذَاهِلًا
فَنَزَاهُ فِي طَسْتِ الْغَسِيلِ وَفَوْقَهُ

فَهِيَ التَّصَوُّفُ فِي الْجَمَالِ تَعَالَى
تُسَمَّى الرِّجَالُ وَتَتَضَجُّ الْأَطْفَالُ
رُوحُ السُّمُوِّ وَإِنْ يُعَدُّ ضَلَالًا
فَالْفَنُّ أَوَّلُ مَنْ يَصُوغُ رَجَالًا
بِالطَّعْنِ وَاخْتَطَفُوا الْفَلَاحَ عُجَالَى
فَأَنَا الْمُجِبُّ لَكُمْ هُدًى وَكَمَالًا
رُوحُ الْحَنَانِ تُوزَعُ الْأَمَالُ
فَجَّ وَأَوْهَامٍ تَطْيِشُ خَبَالًا
حَتَّى غَدًا تَخْرِيفُهُ أُمَثَالًا
حَمَامَهُ خَرَفًا يُعَدُّ مُحَالًا
سَطْلٌ يَنْقُطُ مَاءَهُ إِذْ لَا

وله جهازُ كله عَجَبٌ ولا
ويَعُدُّ هذا مِنْ مَبَادِيْ علمه
والنَّاسُ جُدُّ المعجِبِينَ بحذقه
فَتَضِيْعُ دُنْيَاهُمْ وَأَخْرَاهُمْ مَعَا
والدَّهْرُ يَضْحَكُ مِنْ صَغَارِ عقولهم
تَدْرِيه صِدْقًا أَمْ تَرَاهُ خِيَالًا
بَيْنَا الْحَيَاةُ تَضِجُ مِنْهُ وَبَالًا
وَيُقْلِدُونَ فُنُونَهُ اسْتِبْسَالًا
فِي الْوَهْمِ، يَأْبُونَ الْحَيَاةَ مَجَالًا
وَهُمُ الَّذِينَ غَدَوْا بِهَا أَبْطَالًا!

مواسم الفناء

أَهْلًا بِأَعْيَادٍ نُسِرُ بِعَوْدِهَا
كُنِبَتْ صَحَائِفَ مَوْتِنَا بِسَجَلِهَا
كُلُّ يَهْنِي خِلَّةً وَكَأَنَّمَا
مَا أَعْجَبَ الْإِنْسَانَ يَخْدَعُ نَفْسُهُ
وَالْأَرْضُ تَحْتَمِلُ الشِّتَاءَ فَبِعَدَةِ
أَمَّا بَنُوهَا الْذَاهِبُونَ فَعَمْرُهُمْ
وَبِعَوْدِهَا تَغْتَالِنَا الْيَّامُ
وَتَعِيشُ رَغَمَ مَمَاتِنَا الْأَحْلَامُ
فِي التَّهْنِئَاتِ السُّخْرِ وَالْإِيهَامُ
فَرَحًا وَكُلُّ نَعِيمِهِ الْأَوْهَامُ!
يَأْتِي الرَّبِيعُ وَتُسْمَعُ الْأَنْغَامُ
حَيْلُ الْفَنَاءِ مَشَتْ بِهَا الْأَعْوَامُ!

الخنون

لَنْ هَانَتْ الدُّنْيَا وَهَانَتْ نَفُوسُهَا
وَشَتَّانَ بَيْنَ الْمُذْنِبِ النَّادِمِ الَّذِي
وَبَيْنَ الَّذِي مَنْ طَبَعَهُ الْغِشَّ دَائِمًا
وَمَا كُنْتُ مَنْ يَأْبَى التَّسَامُحَ، إِنَّمَا
وَلَيْسَ مُسِيءٌ مِثْلَ مَنْ عَاشَ خَائِنًا
فَحَسْبِي زَمَانٌ قَدْ تَوَلَّى بِخَدْعَتِي
فَهِيهَاتَ مِثْلِي يَشْتَرِي مَنْ يَبِيعُهُ
تَحَرَّرَ مِمَّا قَدْ جَنَاهُ صَنِيعُهُ
سَوَاءٌ لَدَيْهِ ضَحْكُهُ وَدُمُوعُهُ
كَفَانِي كَفَانِي أَنَّ قَلْبِي صَرِيعُهُ
تَمَلَّكُهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَضِيعُهُ
وَحَسْبِي وَفَاءٌ لَمْ يَصْنُهُ مُضِيعُهُ

الإنسان الإله

أحببتُ فيكَ اللهَ حبًّا خالصًا
وغفرتُ زَلَّاتِ الأنَامِ لِأَنَّنِي
يا مَنْ تَعَلَّمْتُ المحَبَّةَ للورى
أنا عَبْدُكَ الحَيُّ العبادَةِ دائِمًا

وعرفتُ مَعْنَى جُودِهِ وَحَنَانِهِ
أَلْقَاكَ مَعْنَى اللهِ فِي إنسانِهِ
مَنْ حُبَّهَا وَأُسِرْتُ مِنْ إِحسانِهِ
والعبدُ موقوفٌ على دِيانِهِ!

أستاذي المصوِّر

لا تَسْأَمِي يا شمسُ مِنْ نظري إلى
هي لحظةٌ، لَكِنَّهَا لِي جَقِبَةٌ
اللهُ أستاذي المصوِّرُ، لا أَرى
في كُلِّ يومٍ مِنْ عَجِيبِ رُسُومِهِ
لَنْ يُخْلِدَ الرَّسَّامُ فِي أَصْبَاغِهِ
رُوحَ الفُنُونِ مُشَاعَةً فَإِذَا بِهَا
الفنُّ رُوحٌ تَشْمَلُ الكونَ الَّذِي
فإِذَا الرسومُ قصائدٌ غَرِيْدَةٌ
هذي خفايا القلبِ ما أنا شاهدٌ
قلبي على الظلماتِ يُشرقُ طِيَّه
وأعودُ قَبْلَ الفَجْرِ أَرْقُبُ هانئًا
متناولًا مِنْهُ ذخائرَ مُهجتي

هذا الجبين هنيهةُ الإِشراقِ
مِنْ نعمةٍ أُخِذْتُ مِنَ الخَلْقِ
إِلَّاهُ مَنْ رَبَّى عباقرَةَ النُّهى
فَتَنُّ، وَلَيْسَ لَهُنَّ يَوْمًا مُنْتَهَى
مَعْنَى أَجَلٍّ مِنْ ابْتِسَامِ الشاعِرِ
فِي الرِّسْمِ شِعْرًا أَوْ صَوادِحِ ساحِرِ
يَتِمَّازُجُ الإِحساسُ فِيهِ بوحِدَةٍ
وَإِذَا الهياكلُ فِي جِمالِ قصيدةٍ
بشعاعِ المتأَلِّقِ الوَهَّاجِ
حُبِّي فيطرُدُ كُلَّ هَمٍّ داجٍ
هذا الشروقُ عبادَةٌ وَحياةُ
مِنْ قَبْلِ أَنْ أَجِدَ الحِياةَ مماتًا!

لولاك!

لولاك لم أعرف مَحَبَّةَ خالقي
ولَعِشْتُ في الظُّلُمَاتِ عِيشَةً جاهِلٍ
ولَفْتُ أَسْرَارَ الحِياةِ وما وَعَتُ
هَبَّةَ الألوهَةِ أَنْتِ، بل ورسولُها
أَيْنَ المعاني لِلسُّمُوِّ إذا مَضَى
ولِمَنْ أَصوْرُ ما أَصوْرُ شاعِرًا
إِنَّ التَّجاوُبَ والحِياةَ تَجاوُبُ

عرفانَ قلبِ شاعرٍ ... لولاك!
نُورَ الألوهَةِ وزَعَّتُهُ يَدَاكَ
لِلرُّوحِ والإيمانِ والإدراكِ
لِلفَنِّ، ثم مَلَكَها لِفَتَاكِ
مَعْنَى الجمالِ ولم تَزْنِهِ حُلَاكِ؟
إِنْ لم تُجِبْ أُنْثَاكِ أو عَيْنَاكِ؟
لِكَ، فالحِياةُ ونُورُها مَعْنَاكِ!

قلبي البالي

بحسبك ما ألقاهُ مِنْ قَلْبِي البالي
أراه طعيْنًا فوق ما قد حملتُهُ
فهل عاش في شتَى العصور التي خلتُ
وهل عرفَ الدنيا الكُثيْبَةَ وانتَشَى
فأصبح يَرِثِي لِلأَنامِ وَحَظَّهُم
لَكَ اللهُ مِنْ قَلْبٍ تَخْطِي معارِكا
له كُلُّ ألوانِ الحِياةِ وما لَهُ
ولم تَكْفِهِ تلكَ القرونُ التي مَضَتْ
تَمَهَّلْ! هي الدنيا كما قد عرفَتَها
وتكفيكَ هاتيكَ الجروح، فبرؤُها

فما عُمُرُهُ عُمُرِي ولا حالُهُ حالي
مِنْ الطَّعْنِ في يَأْسِي ولوَعَةِ آمالي
وهل ذاقَ ما يشكُّوه في الزمنِ الخالي؟!
من الهمِّ أضعافَ الذي ذاقَهُ بالي
ويصفو وَيَشْجِي كالشَّجِي وكالْخالي؟!
مع الدهرِ حتَّى بات كالأَثَرِ البالي!
حِياةً من الحَظِّ المكافِئِ والعالي
فَعاد يُعَايِدِي كُلَّ غَرٍّ وَخَتَّالٍ
فَدَعُها فما فيها كَريمٌ ولا غالي
عَزيزٌ، فما تُسَلِّي وما أَنْتِ بالسالي!

عالم الذهول

ضَحِكَ الصَّحَابُ وَرَبِّمَا وَجَمُوا كَمَا
لَمْ يَضْحَكُونَ؟ أَلَيْسَ ذَلِكَ عَالَمًا
كَمْ يُنْفِقُ الْمُتَشَدِّقُونَ حَيَاتِهِمْ
وَالْحُلُمُ أَوْلَى بِالتَّفَاتَةِ شَاعِرٍ
ضَحِكُوا أَمَامَ تَخِيلِي وَذُهُولِي!
أُسْمَى وَأَجْدَى مِنْ سَفَاسِفٍ قِيلِ؟
فِي غَيْرِ مَحْمُودٍ وَلَا مَعْقُولِ
مِنْ عَالَمٍ مُتَضَائِلٍ مَخْبُولِ

حنين الكهولة

رَجَعْتُ أَنْغَامِي كَعَهْدِ صِبَاهَا
وَنَظَرْتُ لِلدُّنْيَا الَّتِي أَبْدَعْتُهَا
فَإِذَا الصَّبَا بَيْنَ الْمَخَابِئِ مُعْرِضُ
دُنْيَا الْخِيَالِ تَمَرَّدَتْ، وَأَنَا الَّذِي
مَا رَوْعَةُ الْأَنْغَامِ مِنْ فَمِ شَاعِرٍ
تَخَذَ الْخُفُوقُ حَنَانَهُ وَنَوَاحَهُ
فَتَلَفَّتَتْ وَتَضَاكَكَتْ مِنْ جَهْلِهِ
وَالدَّهْرُ مُسْتَمِعٌ إِلَيْهِ كَأَنَّمَا
غَنَى وَدُنْيَا الْحَرْبِ شَتَّى حَوْلَهُ
وَاشْتَقَاقُ أَيَّامِ الصَّبَا وَلَوْ أَنَّهُ
خَادَعْتُهُ بِهِوَى الْخِيَالِ، وَهَلْ أَنَا
قَدْ مَاتَ الْأَيَّامُ، لَا رَجْعُ لَهَا
أَسْفَى عَلَيْهَا فِي تَنَاوُجٍ لَهْفَةٍ!
وَالْمَوْتُ يَجْحُبُهَا وَيَحْجُبُ عَظْفَهُ
وَفَرِحْتُ بِالْقَلْبِ الَّذِي غَنَّاها
فِي الْحُلُمِ أَرْقَبُ عَظْفُهَا وَرِضَاها
عَنِّي، وَلَوْ أَنِّي خَلَقْتُ غَنَّاها
قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ مَوْئِلِي بِحَمَاها!
كَالْقَلْبِ إِنْ فَاتَ الزَّمَانُ صَدَاها؟
يَسْتَصْرِخُ الْأَمَالُ فِي مَنَوَاها
وَكَأَنَّهُ غَرُّ يَعْيبُ إِلَهَا!
بَشَجُونِهِ الدَّهْرُ الْعَتِيُّ تَلَاهَا
فِي الْأَرْضِ أَوْ بِمَدَى السَّمَاءِ مَدَاها
يَذْري الْمَالُ لِمَا أَطَاقَ لِقَاها
إِلَّا شَرِيدٌ فِي الْخِيَالِ تَنَاهَا؟!
كَالْمُومِيَاءِ، فَلَوْ أَفَاقَ رَثَاها
فَكَأَنَّمَا ذَكَرَى تَوَدُّ أَبَاها!
عَنْهَا فَرَدَّ نِدَاءَهُ وَنِدَاها

* * *

سَقِيًّا لِأَطْيَافِ الصَّبَا وَجَمَالِها
رَقِصَتْ بِتَجْدِيدِ الصَّبَاحِ وَرَبِّمَا
حَتَّى تُعِيدَ الذِّكْرِيَّاتُ شَدَاها!
لَثَمْتُ بِإِشْعَاعِ الصَّبَاحِ شِفَاها

ومضتُ إلى أقصى الكواكب خلسةً
فإذا استمعتُ إلى هتافِ غائبٍ
تاهتُ ببحرِ الغيبِ فوقَ كواكبٍ
واستعدبتُ شعرَ الجنونِ نيشدها
فكأنَّها ما أشرقتُ لولاها!
للحبِّ خلتُ برُوحه مَعْنَاهَا
كالسُّفنِ تحملُ للزمانِ رُؤَاها
وأبى لنا شعرُ الجنونِ سِوَاهَا!

في المعترك

عييتُ من قلقي فيما وُجِدْتُ له
أسأَلُ الدهرَ عنها وهو مضطربُ
وأنتجني عن وجودي شبهَ منعدمٍ
في حيرةٍ وكأني عالمٌ يئستُ
أبكي وأضحكُ في نفسي فإنَّ بها
ما بين ضدين قد عاشتُ وليس لها
تصدَّرتُ لهمومِ الناسِ تُسعدُهُم
ولو تسلَّتُ عن الدنيا ونقمتها
لقدَّسوها جميعاً في رعايتهم
وفي المعاني لكوني أو لأحلامي
مثلي وأصبحُ كالمبهوتِ أعوامي
في الصَّمتِ، والصَّمتُ آمالي والآمي
منه الحياةُ فعافت رُوحه الدَّامي
من التناقُضِ إيساري وإعدامي
من شاغلٍ غيرِ معنى عيشها السامي
وعوقبتُ بين أحبابٍ وأخصامٍ
ولم تُبالِ بأنعامٍ وأصنامٍ
ومَجَّدوها بأفواهٍ وأقلامٍ!

* * *

يا للحياة التي استوعبتُها شغفاً
أنا الحريضُ عليها وهي تنبذني
وحاملُ الراية المحسودِ حاملها
الرافعُ الرأس في الحرب العوان وإن
ممرِّداً ورياحُ الدهرِ عاصفةُ
وثائراً بين صرخاتٍ يردُّدها
يكاد حبُّ بقائي يستثيرُ بها
كأنَّما الموتُ والأوهامُ أخيلةُ
كأنَّما طهرُ آلامي يحبِّبها
وهذه صُورُ الأحياءِ صارخة
بها، وفجَّرتُها شعري وأنغامي
وكم تُمزقُ صدري عند إرغامي
وهو الذي يتلاشى تحت أقدامٍ
غَدَوْتُ ما بين أشلاءٍ وصمصامٍ
مُسَوِّداً رغم خفيض الدهرِ للهامٍ
سَمِعُ الزمانَ إلى ويلاتٍ أيامي
حُبَّ الفناء، وحُبُّ الحقِّ أوهامي
من الجمالِ تعالت فيه عن ذامٍ
إليَّ أو أنها من نَبْعِ إلهامي
باليأسِ صرخة هذا الصاحبِ الطامي!

الصيد الحلال

تركوا مطاردة الوحوش وآثروا
كم من جموع ليس تعرف عيشها
ساد الجبابرة الطغاة، وسلحوا
وهم الذين تمتلئت نعمائهم
هذا هو الصيد الحلال بعزفهم
والناس تشكو ثم تشكر، ما لهم
صيد ابن آدم مُرَهَقًا وذليلاً
إلا الأسى والموت والتَّرميلاً
بالغدر، وابتدعوا «السلام» دليلاً
في الحرب تحصد أمة وقبيلاً
لم يصطنع شرًا ولا تأويلًا
عقل، وهل تدري الجموع عقولاً؟!

اللؤام

ما أكثر اللؤام حين شقاوتي
كلُّ يرى العاني أحقَّ بأن يرى
يا للأناني الذي لا يستحي
أوما كفى عمري الذي ضحيته
حتى أسخر في تحيات الورى
عيشي وحين تحجبي سلواني
في الهم شبه مهرج متفاني^{٤٣}
ويلوم ثم يلوّم وهو الهاني!
للمبدأ السامي وللإنسان
وأنا أكافح مفردًا وأعاني؟!

فلسفة الحب

(مقتبسة من الشاعر الإنجليزي المشهور شيلي P. B. Shelley)

الينابيع في مدى النهر تنصب وفي البحر تذهب الأنهار
ورياح السماء بين امتزاج وحُبور، فما لهن نِفار

^{٤٣} متفاني: devoted، يعني واهبًا نفسه للتهريج.

ليس شيء فردًا، فهذه جميعًا رهنٌ قدسيّ شرعها في امتزاج
فلماذا وهذه سنة الخلق كلانا يحيا بغير اندماج؟!
انظري للجبال قبلت الأوج وهذه الأمواج بين احتضان!
لن تنال الغفران في الزهر من عافت شقيقا لها على الحرمان!
تلثم الشمس بالأشعة هذي الأرض، والبدر هذه الموجات
أي معنى لها إذا لم تجودي بالحبيب الشهي من قبلات؟!!

الزمان

(مقتبسة من شيلي)

أيهذا البحر الذي ما له غورٌ ويا من أمواجه السّنواتُ
يا خضمّ الزمانِ أمواهك اللوعاتُ، للناسِ ملؤها العبراتُ
لذعت بالشجى، وأنت بلا حدٍّ زعيمٌ على حدودِ الفناء
بين مدٍّ وبين جزرٍ تعافُ الصيدَ جمًّا وتستزيدُ العطاء
ثم تمضي تمجُّ منك حطامًا عند شطٍّ من العبوسة أظلم
أنت عند السكونِ يملؤك الغدرُ وعند الإعصارِ عاتٍ تجهمُ
من ترى ذلك الذي سوف يمضي جارتًا خائضًا عباك فكره؟!
أيها البحر! أنت يا من عجزنا عن مداه، فليس يُسبرُ غوره!

طائر الحب

ولكن لم أزل وحدي!	سمعتك هاتفا عندي
فهل في القرب من بُعد؟!	أفتش عنك في قرب
على غصن، ومن وجدي	وأبحث عنك من وهمي
ب في خوف من الصيد	وأتابع جاريات السح

وَأَرْجِعْ سَائِلًا نَخْلَى
وهذا البدرَ وهو يَسْبُ
وموسيقى الكواكب وهـ
وأطيفَ الضياءِ وكم
فألقاها مُحَيَّرَةً
كَأَنَّ جَمِيعَهَا بَحَثَتْ
عليك، وسائلاً وَرَدِي
حُ في الدُّنْيَا مِنَ الْمَهْدِ
يَ تَصْدُحُ صَدْحَةُ الْخُلْدِ
تُصَاحِبُنِي عَلَى سُهْدِي
وشاردةً بلا رُشْدِ
عليك وأنت في زُهْدِ!

أمير الصعيد

(تحية صاحب السمو الملكي الأمير فاروق لمناسبة إسناد إمارة الصعيد إلى سموه في يوم
١٢ ديسمبر سنة ١٩٣٣).

أَمِيرَ النِيلِ وَالْوَطَنِ الْمَجِيدِ
بِلَادُ يَسْتَعِزُّ «خَنُومُ» فِيهَا
وقد وُلِدَتْ بِهَا أَحْلَامُ «مِينَا»
كما عَرَفَتْ قَنَا «هَاتُورَ» رَمْزًا
وتَاهَتْ لِلْخُلُودِ «بَاخْنَتُونُ»
كما أَوْحَى «تَحُوتُ» لَهَا حَيَاةً
مَعَابِدُ لِلْفَخَارِ بِكُلِّ رَكْنٍ
فَإِنْ نُسِبَتْ إِلَيْكَ فَأَنْتَ مِنْهَا
فَتِيهِي يَا رَبُّوعًا تَوَجَّهَتْهَا
وعِيشِي لِلإِمَارَةِ دُخْرَ مَضِرٍ
لَتَهْنَأُ بَانْتِسَابِكَ لِلصَّعِيدِ
بِمَعْنَى الْحَزْمِ وَالْيَأْسِ الرَّشِيدِ
فَأَسَّسَ دَوْلَةَ الْمَجْدِ التَّلِيدِ
لِمَعْنَى الصَّدَقِ وَالنُّبْلِ الْأَكِيدِ
إِمَامِ الْحُبِّ لِلرَّبِّ السَّدِيدِ
مِنْ الْعَرْفَانِ وَالنُّورِ السَّدِيدِ
وَدَوْرُ أَهْلِهَا أَهْلُ الْخُلُودِ
بِنَسَبَتِكَ الْفَرِيدِ إِلَى الْفَرِيدِ
أَيَادِي الشَّمْسِ بِالشَّعْرِ النَّضِيدِ
فَإِنَّكَ أَنْتَ مُلَهُمْ كُلِّ عِيدِ

ليالي الخريف

أَشْعَلَتْ بِالنُّجُومِ مَلَأَ سُكُونِ
فَكَأَنَّ الطَّبِيعَةَ الآنَ قَامَتْ
قَدْ تَوَلَّى عَامٌ وَكَمْ فِيهِ مِنْ عُمَدٍ
فَإِذَا الْمَوْتُ عَامِرٌ كُلَّ شَيْءٍ
كُلُّ شَيْءٍ سَاجٍ، وَحَتَّى نَسِيمُ اللَّيْلِ
وَلَهُ نَفْحَةُ الْبُرُودِ تَحْكِي
آه! كَمْ لِي مِنْ رَاحَةٍ بِوَقُوفِي
أَرْقُبُ الْكَوْنَ مِثْلَمَا يَرْقُبُ الْحَاكِمُ
أَتَمَلَّى الْحَيَاةَ نَشْوَانَ فِي الصَّيْفِ
وَأَجِبُّ الْمَمَاتَ مَلَأَ خَرِيفٍ
هُوَ دِينِي الَّذِي تَصَوَّفْتُ فِيهِ
حَبَبَ الْعَيْشِ لِي كَمَا حَبَبَ الْمَوْتِ

وَصَفَاءٍ تَخَلَّى عَنْ حَيَاةٍ
تَحْتَفِي فِي جَنَازَةِ الْأَمْوَاتِ
سِرٌّ تَوَلَّى وَمِنْ عَنَاءٍ وَقَصْفٍ
بِجَمَالٍ قَدْ جَلَّ عَنْ كُلِّ وَصْفٍ
يَلِ مَيِّتٌ يَطُوفُ كَالْأَطْيَافِ
نَفْحَةُ الْمَوْتِ فِي الْوُجُودِ الْخَافِي
فِي أَعَالِي السُّطُوحِ أُرْنُو وَحِيدًا
لَمْ مَوْتَاهُ وَهُوَ يَفْنَى شَرِيدًا
فِي وَفِي لَهْفَةِ الرَّبِيعِ الْعَجُولِ
وَشَتَاءٍ فِي عَاصِفٍ مِنْ عَوِيلٍ
وَعَلَيْهِ أَمُوتُ حِينَ أَمُوتُ
تَ فَنَاجَى الْفَوَادَ هَذَا السَّكُوتُ!

السَّماءُ الشَّاعِرَةُ

كَأَنَّ دُمُوعَهَا وَصَدَى جَوَاهِهَا
وَكَمْ غُولٍ يَنْوَحُ بِهَا طَرِيدًا
وَقَدْ هَجَرَ الْمَلَأَكَةُ الْحَيَارَى
فَبَاتَتْ مِثْلَ هَذِي الْأَرْضِ يَأْسًا
وَسَحَّتْ أَلْسُنُ الشَّعْرِ فِيهَا

صَدَى الْعَانِينَ مِنْ بَيْنِ الْأَنَامِ
مِنْ الْأَرْضِ الْغَنِيَّةِ بِاللَّيْثِ
مَنَازِلُهَا وَغَابُوا فِي الظَّلَامِ
وَأَعْلَنَ يَأْسُهَا فَرَعُ الْغَمَامِ
فَصَاحَا بِالْأُذُنِ وَالضَّرَامِ!

مآتم مهجتي

أُنسْتَنِي الدُّنْيَا وَحَقَّ حَيَاتِي
أَلْقَى مِنَ الْأَصْحَابِ لَوْمَ جُنَاةٍ
مِنْ عَزْلَةٍ قُدْسِيَّةٍ لِلرُّوحِ
مِمَّا تُعَانِي مِنْ أَسَى وَجُرُوحِ
لَوْمِي كَأَنِّي لَسْتُ غَيْرَ سَمِيرِهِمْ
عَاشِ الضَّمِينِ لَخِيرِهِمْ وَحُبُورِهِمْ
لَكُنْنِي أَرْجُو السَّلَامَ بِعَزَلَتِي
وَأَنَا الْوَحِيدُ لَدَى مَآتَمِ مَهْجَتِي؟

كُنْتُ بَلَا حَصْرِ هُمُومِي كَثْرَةً
وَصَفَحْتُ عَنْ لَوْمِ الْجُنَاةِ وَلَمْ أَزَلْ
أَصْبَحْتُ أَحْوَجَ مَا أَكُونُ إِلَى مَدَى
عَلِّي وَحِيدًا أَسْتَطِيعُ شَفَاءَهَا
وَالنَّاسُ حَتَّى فِي عَنَائِي اسْتَعْذَبُوا
لَا يَرْحَمُونَ مَكْبَلًا بِقَيُودِهِ
وَالآنَ لَا أَرْجُو كَثِيرَ نَوَالِهِمْ
فَلَمْ الْمَلَامُ وَمَا أَلُومَ مَعْذِبِي

الفنان البائس

لَهُ، وَيَرَى مَرَّاهُ نَظْمًا بَلَا مَعْنَى
أَمْ الْمَيِّتُ مَنْ بِالْجَسَمِ عَنْ رُوحِهِ اسْتَغْنَى
سَوَى الْمَوْتِ عَوْنًا حِينَمَا افْتَقَدَ الْعَوْنَا
وَمَلَأَ الظَّلَامَ الْيَأْسُ قَدْ أَرَهَقَ الظَّنَا
حَوَالِيهِ كَالْأَشْبَاحِ تَسْلُبُهُ الْأَمْنَا
سَوَى مَيِّتٍ هِيَهَاتَ يَسْتَأْهِلُ الدَّفْنََا؟!
وَأَشْلَوْهُ بُعْثَرْنَ قَرْنًا شَأَى قَرْنًا؟!
رَأَى الْكَوْنَ ظُلْمًا لِلْحَقِيقَةِ أَوْ غَبْنَا
يَهْدُ وَيَبْنِي مَا يَهْدُ فَلَا يُبْنِي!
أَنِيلَ مِنَ الْأَعْدَارِ مَا بَعْدَهُ جُنَا
عَنِ الْحُسْنِ حَتَّى بَدَدَ الْحَقَّ وَالْحُسْنَا
عَلَى الرِّغْمِ يَأْبَى أَنْ يُقِيمَ لَهُ وَرْنَا
يَدُلُّ عَلَيْهِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَعُدْ كَوْنًا
لَدَى الْمَوْتِ إِذْ تَلَقَّاهُ يَفْنَى وَلَا يَفْنَى!

تَأَمَّلْ فِي كَوْنٍ يَرَى الْمَوْتَ شَامِلًا
وَهِيَهَاتَ يَدْرِي هَلْ هُوَ الْمَيِّتُ مِثْلَهُ
كَأَنَّ أَفْلَسَ الْكَوْنَ الْعَظِيمُ فَلَمْ يَجِدْ
وَمِنْ عَجَبٍ مِلءَ السُّكُونِ عَوَاصِفُ
هُوَاجِسُ تَجْرِي ثُمَّ تَمْضِي طَوَائِرًا
أَيَشْكُو مِنَ النَّاسِ الْأَلَى لَيْسَ بَيْنَهُمْ
أَمْ الدَّهْرُ مَنْ يُشْكَى وَقَدْ مَاتَ مِثْلَهُمْ
بَكَى مَا بَكَى لَكِنْ بَعْزَةً مُؤْمِنَ
تَجَرَّأَ لَكِنْ كَالسَّفِيهِ مَشَرَّدًا
وَلَا غَايَةَ يَرْمِي إِلَيْهَا وَطَالَمَا
فَأَفْسَدَ إِفْسَادَ الْمَمَرِّ ذَاهِلًا
وَقَدْ نَالَهُ غَوْلُ الْفَنَاءِ، وَإِنَّهُ
فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا هَيْكَلٌ مِنْ كِيَانِهِ
وَشَرُّ مِنَ الْمَوْتِ الْأَكِيدِ مَسْخَرُ

* * *

بكى بؤسَه في ليلِه وهو ما دَرى أفي الوهمِ يبكي أم بكى ما رأى عَيْنَا
وهل كلُّ شيءٍ ميتٌ وهو وحْدَه فبات يتيماً لا حبيبَ ولا مَغْنَى
أم الدهرُ يلهو بالشقاوةِ حَوْلَه طروباً، وبالأحداثِ والناسِ مفتنَا
فإن كان، فليدفعْ أذى الدهرِ لاهيَا به مثلما يلهو، فينصفُ به الفنَا!

السابقة الأولى

(في تهنئة الأنسة لطفية النادي وقد نالت جائزة الشرف في سباق الطيران الدولي بين القاهرة والإسكندرية ذهاباً وإياباً يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٣٣.)

أنتِ زينُ السابقاتِ في التَّسامي بالحياةِ
لم يَعدْ للأرضِ شأنٌ في الشعوبِ الخالداتِ
كلُّها ثارت إلى السُّحبِ على رِغمِ المماتِ
كلُّها دانَتْ بدينِ الثَّارِ من أرضِ مَوَاتِ
قد عشقتِ الجوّ حتّى عَفَتْ أسبابَ السُّبَاتِ
وتَنَفَّستِ التَّعالي من مَعالي الكائناتِ
أنتِ يا عنوانَ «مصر» في هَوَى للمجدِ آتِ
هكذا تعتزُّ «مصر» بكِ بين المُحسِناتِ
كم تُعاني الفقرَ والحرمانَ من دُنيا الجُناةِ
هل يُزيل الضُّيمَ إلّا مثلُ هذي الوثباتِ
من قلوبِ عامراتٍ ونفوسِ ثائراتِ
لا ترى السُّخطَ كفيلاً بالغنى دونَ الهَبَاتِ؟!
إنما الأُمّةُ تحيا بتوالي التضحياتِ
بجُهودٍ مُلهِماتٍ وهُمومٍ مُغْنِيَاتِ
امرّجِي يا مصرُ! تيهي بِعُلى مصرَ الفتاةِ!
حوّمتْ فوق نُسورٍ لا تُبالي بالنَّجاةِ
وبنّتْ في الجوّ ذكراً من أعاجيبِ البُناةِ

* * *

طَرَبْتُ لَكُنْ بَيْنَ آلاَفِ الْقُلُوبِ الطَّائِرَاتِ
كَلِّهَا تَرَعَاكِ بِنْتُ «النَّيْلِ» فِي أَبْهَى ثُقَاةِ
طَرَبْتُ كَالْإِلْهَامِ لَكُنْ فِي مَسِيرِ النَّيِّرَاتِ
فِي سَمَاءٍ مِنْ شُعَاعٍ وَدُعَاءٍ وَصَلَاةِ
وَحَطَفَتِ النَّصْرَ بِالْجُهِدِ بَرِغَمِ الْعَقَبَاتِ
فِي مَدَى كَالْحُلْمِ قَدْ أَهْدَتْهُ أَحْلَى الْيَقَظَاتِ
لَحْظَةً لِلْمَجْدِ عِنْدِي هِيَ أَسْنَى اللَّحَظَاتِ
شَرَفْتُ أَبْنَاءَ قَوْمِي فَهِيَ أَوْلَى بِحَيَاتِي!

سنتكلوز

مَدَحْتُ «سَنْتِكُلُوزًا» مُدَاعِبًا أَطْفَالِي
فَحَدَّثُونِي طَوِيلًا عَنْ خُلُقِهِ الْمَتَعَالِي
وَكَيْفَ يَبْدُو حَفِيًّا بِهِمْ بِدُنْيَا الْخِيَالِ
وَإِنْ تَحَجَّبَ عَنْهُمْ كَأَنَّهُ لَا يُبَالِي
قَالُوا: تَحَجَّبَتْ عَنَّا وَأَنْتَ رَهْنُ اشْتِغَالِ
فَلَا نَرَاكَ نَهَارًا وَلَا طَوَالَ اللَّيَالِي
أَأَنْتَ «سَنْتِكُلُوزُ» مِنْوَعِ الْأَشْكَالِ
أَمْ وَالِدٌ لَا يُرْجَى جَنَّتْ عَلَيْهِ الْمَعَالِي؟!

* * *

يَا ضَيْعَةً لِأَرِيْبٍ مُسَخَّرٍ لِلْجَمَالِ
يَقْتَاتُ مِنْهُ وَيَقْضِي حَيَاتَهُ فِي ابْتِهَالِ
وَلِلْسَلَامِ يُغْنِي وَلِلْإِخَاءِ يُغَالِي
يُنْسَى ذَوِيهِ وَيَفْنَى عَلَى ضَنْئِ وَاشْتِعَالِ

ويخدمُ الناسَ لكنَّ يُدْمُ في كلِّ حالٍ
فمجدُّه من خيالٍ وحظه من مُحالٍ!

مُحال!

مُحَالٌ أَنْ تَحَاوَلَ هَدْمَ حُبِّي
صَفَحْتُ عَنْ الْخُصُومِ وَإِنْ أَسَاءُوا
لَهُمْ أَسْفِي وَإِشْفَاقِي وَقَلْبِي
ومهما خِلْتَنِي أَشْكُو بِيَأْسِي
سَيَطْوِينَا الزَّمَانُ، وَكُلُّ ذَنْبٍ
وَأَنْ لَمْ أَلْقَ بَيْنَ النَّاسِ حُبًّا
وَكَادُوا وَاعْتَبَرْتُ الْكُلَّ صَحْبًا
وَأَنْ لَمْ يَعْرِفُوا أَسْفًا وَقَلْبًا
ذُنُوبَ النَّاسِ خِلْتُ الْيَأْسَ ذَنْبًا
سَيَمَحُوهُ الزَّمَانُ لِمَنْ تَأَبَّى!؛

أَنْشُودَةُ الْحَزِينِ

لَا الظِّلُّ ظِلٌّ وَلَا الْأَضْوَاءُ أَضْوَاءُ
فَزَعْتُ حُزْنًا إِلَى أُمَّ كَلَفْتُ بِهَا
أَنَا الَّذِي فُتِّهَا فِي دَمْعِهَا نَزَقًا
وَرُحْتُ أَنْفَقَ عَمْرِي دَائِبًا فَرَحًا
فَعَدْتُ وَالْيَأْسَ يُشْقِينِي وَيَقْتُلُنِي
تَعُودُ نَفْسِي إِلَى مَجْلَى عَنَائِتِهَا
بَاتَ الْخَرِيفُ رَبِيعِي بَعْدَمَا كَفَرْتُ
أَعُودُ أَمْنَحُهَا رُوحِي وَتَمْنَحُنِي
مَا لِي وَلِلنَّاسِ أَحْيِيهِمْ وَأَعْبُدُهُمْ
إِذَا تَنَاطَبَ نَفْسِي الْهَمُّ وَالْدَاءُ
كَمَا تَدَفَّقَ فِي أَحْضَانِهَا الْمَاءُ
فَطَوَّحْتَنِي تَعِلَّاتٍ وَأَهْوَاءُ
لِلنَّاسِ، وَالنَّاسُ لِلْإِحْسَانِ أَعْدَاءُ
وَلِلطَّبِيعَةِ إِشْفَاقٌ وَإِحْيَاءُ
كَمَا تَعُودُ إِلَى الْأَفْنَانِ وَرَقَاءُ
تِلْكَ النَفُوسُ بِطَبِّي وَهِيَ شَوْهَاءُ
رُوحًا جَدِيدًا يَنَاجِيهِ الْأَلْبَاءُ
وَكُلُّهُمْ سَاخِرٌ بِالسَّوَةِ مَشَاءُ؟!؛

إني لغافرٌ ما قالُوا وما صنَعُوا
لكنني عازفٌ عنهم وإنْ وهبتُ
إني لملكٌ لنوعي^{٤٦} لستُ أحدهُ
في عِزَّةٍ كصلاةٍ لا انتهاء لها
أعطي زكاةَ حياتي ما أخلصه
عبيتُ بالناسِ مِنْ لَوْمٍ يساورهم
هلمَّ يا نورُ واغمرنِي فقد ظمئتُ
ويا ظلالُ أعيدي كلَّ ما فقدتُ
ويا طبيعةً غديني مسامحةً
لولاك لولاك ما كانت مشاعرنا

كَمَا حَبَا بِالْأَغَانِي المَرْهَقَ النَّاءُ^{٤٥}
نَفْسِي لَهُم كَيْفَمَا شَاءُوا وَإِنْ سَاءُوا
وَلَوْ جَزَائِي ضَرَاءٌ وَضَرَاءٌ
حِينَ الطَّبِيعَةُ بِكَمَاءٍ وَغَنَاءٍ
مِنَ الحَيَاةِ وَأَعْطِي الحَبَّ مَنْ شَاءُوا
وَمَا عَيَّيْتُ بِمَا تَجْنِيهِ أَنْوَاءُ
رُوحِي إِلَيْكَ، ففِي مَعْنَاكَ صَهْبَاءُ
رُوحِي فَعِنْدَكَ لِلْأَرْوَاحِ أَصْدَاءُ
فَإِنَّ أَنْفُسَنَا لَوْلَاكَ جَرْدَاءُ
وَلَا بَكَتُ فِي وَدَاعِ الْأُمْسِ حَوَاءُ!

صومعتي

إِلَيْكَ أَلَجَأُ يَا أَفْيَاءُ^{٤٧} صَوْمَعَتِي
هَبِّي حَيَاتِي سَلَامًا مِنْكَ أَعْهَدُ
لَقَدْ سِئِمْتُ هَوَاءً كَادَ يَخْنُقُنِي
كَمَا سِئِمْتُ ضِيَاءً كُلُّهُ ظُلْمٌ
مَالِي وَدُنْيَا تَسَامَى لِلْجُحُودِ بِهَا
تَشْقَى وَتَشْقَى حَيَاةُ الْمُصْلِحِينَ بِهَا
وَيُزَحْمُونَ مِرَارًا كُلَّمَا ضَمَدُوا
دُنْيَا غُرُورٍ وَلُؤْمٍ لَا يُهْدَبُهَا
دُنْيَا الْغَرَائِزِ مَا زَالَتْ طَبِيعَتُهَا
نَفْنِي الضَّحَايَا لَهَا، لَكِنْ بَلَا أَمَلٍ

بَعْدَ الَّذِي ذُقْتُ مِنْ صَحْبِي وَأَيَّامِي
تَرَعَرَعْتُ فِيهِ أَطْيَافِي وَأَنْغَامِي
مِنَ الرِّيَاءِ وَكَمْ عَانَيْتُ أَسْقَامِي
فَعُدْتُ أَوْثِرُ لَيْلِي بَيْنَ أَوْهَامِي
مَجْدٌ، وَهَانَ الْحِجَابُ مِنْ مَجْدِهِ السَّامِي
وَكُلُّهُمْ بَيْنَ أَهْلِيهَا كَأَيْتَامٍ
جُرْحًا، وَكُلُّ بَقْلٍ مُثْقَلٍ دَامِي
عَصْرٌ وَلَا حَمْلٌ أَعْبَاءٍ وَأَلَامٍ
طَبِيعَةُ الْجُودِ فِي حَرْبٍ وَأَثَامٍ
حَيٍّ، فَأَمَّا لَنَا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ!

^{٤٥} النَّاء: الناي، يشير إلى جوده بالموسيقى كلما أرهقه صاحبه.

^{٤٦} النوع الإنساني.

^{٤٧} أفْيَاء: ظلال.

كلمة ختامية

صاحب الديوان

شعر الجيل

لما أصدرت الأديبة الناقدة إيمي شارب في سنة ١٨٩١م كتابها البديع عن الشعراء الفكتوريين Victorian Poets — أي الذين عاصروا الملكة فكتوريا، وعصرها عصر حافل بالأدب — أشارت في مقدمته إلى اعتبارات نقدية وجيهة نبسطها فيما يلي:

(١) إنَّ الشعر لن تُعرفَ روحُه الحقيقةَ ما لم يتقدم إليه الناقد بعطفٍ واحترامٍ وخشوعٍ، وأمَّا التعصبُ ضدهُ من البداية والاشمئزاز منه فمما يقضي على قُدرةِ النفاذِ إلى لبِّه، وتمييز غثه من سمينه، فليس التحاملُ مشكاةً للحقيقة بل قبرا لها.

(٢) إنَّ دراسة شعر العصر لها ميزة الوقوف على لغته وتاريخه وعاداته مما يجعل البصر بآثار الشعراء صحيحًا، ويجعل هذه الدراسة نابضةً بالحياة، بعكس دراسة الشعر في عصر قديم، فإنها تحتمُّ أولاً الوقوف على تلك التفاصيل قبل التمكن من النقد النزيه؛ لأنَّ من الحتم ربطُ الشعر بالمناسبات المشتقة من تراجم أصحابه.

(٣) إنَّ الشاعر كلما كان مبتكرًا أصيلاً صعب على بيئته فهمه وتقديره في البداية، وقد تعودنا التهكم على بُرود العصر الذي لم يدفع ثمنًا «للفردوس المفقود» أكثر من اثني عشر جنيهاً، والذي لم يحفل بشعر وردزورث، ولكن إذا كانت البيئة قادرة على التسامي إلى منزلة العبقرى فإنَّ الحاجة إلى إظهار مواهب العبقرى وتوجيهها تكون حينئذ هينة.

(٤) إنَّ الخطر من دراسة الشعراء في عصرهم يرجع إلى التغالي في تقديرهم، والإصغار من شأن العصور الأخرى وشعرائها، ومثل هذا الخطر يجب التحرُّز منه.

(٥) إِنَّ صُحْبَةَ الشعراء هي خير مدرسة للتعرف إليهم؛ لأنَّ الوقوف على طباعهم، وعلى دقائق المؤثرات الموحية إليهم والمغذية لنبوغهم أو عبقريتهم يساعد خير المساعدة على الحكم على أعمالهم المعبرة عن شخصياتهم وسيرهم.

(٦) إِنَّ مجموع الحسنات لصغار الشعراء المقلين ذخيرة أدبية عظيمة لا يجوز بحال إغفالها، والحفاوة بشعرهم ودراسته مما يساعد فيما بعد على دراسة كبار الشعراء، ولو أقدم الجمهور أولاً على العناية بأولئك المقلين المجددين لاستساغ فيما بعد كبار الشعراء بعكس الحال فيما لو عُني أولاً بمحاولة دراسة الآخرين؛ مما قد يؤدي به إلى كراهية الشعر على الإطلاق!

رجعتُ إلى هذه الملاحظات على أثر فراغي من الإمعان في الدراسات الأدبية النقدية التي اقترنت بهذا الديوان، والتي أشرتُ إليها في تصديره، فإنها — فيما أعلم — من إحياء أمثال هذه العوامل التي تأثر بها الزملاء الأفاضل الذين تقدّموا لدرسه ونقده، وقد تناول كلُّ منهم بحثاً يُعدُّ في حكم المتخصّص فيه. ومن الإنصاف أن أقول إنّه من النادر في هذا الزمن أن يؤدي الإعجاب المتبادل بين نفرٍ من الشعراء إلى مثل هذه الرغبة في التحقيق والإنصاف ونصرة الأدب، فالروح السائدة هي روح الإصغار والتحامل والتحاسد والإثرة، وهي روح لا تساعد على الوقوف على نماذج الجمال المتنوعة، ولخيرٌ منها ألف مرة «المغلاة» التي أوْأخذُ عليها في شغفي بالتفتيش عن الجمال المستور في كل شيء ... بيد أنني أنتسبُ إلى مدرسة اشتراكية في الأدب تؤمن بالتعاون إيماناً لا يضحي بالشخصية، ولا بالآثار الذاتية لأيّ فنّان، وإنما تنزع إلى التساند على إظهار المواهب المتنوعة، وتعترف بأن صوَر الجمال غير محدودة، وأن جميعها جديرة بأن تتبوأ مكانها تحت الشمس، وأن أهلها حريون بمنازل الكرامة، وبعكس ذلك المدارس الفردية التي تُخلَق لعبادة الأصنام، ويحارب بعضها بعضاً؛ لأنها تحفل قبل كل شيء بتمجيد زعمائها، بل لم تُخلَق أصلاً إلا لتمجيدهم، ومن أجلهم ومن أجل أهوائهم تقوم الخصومات والحروب بين فريق وفريق على غير فائدة خالصة للأدب ذاته!

فالحفاوة بشعر هذا الديوان في حدود النقد الأدبي إنما هي حفاوة بشعر الجيل الذي تعودَ النقاد من قبل إصغاره متطلّعين إلى الورا، مشغوفين بتقديس القديم وحده ... فمن علامات التطوُّر السليم أن يُحفلَ جدّاً بنقد الشعراء المعاصرين وتقديرهم، وأن يكون نصيب شعري من ذلك نموذجاً للتقدير العام للشعر العصري، وإن لم يزل بُعد هذا

التقديرُ في بدايته. وهذه هي الروح التي تعنيني، وفيما عدا ذلك فلن يُرضيني على الإطلاق تمجيدُ أدبي على حساب أيِّ أديبٍ آخر، بل يسرُّني كل السرور التغني بتفوق أقراني وإبراز مواهبهم، ولولا احترامي لحرية الرأي والنقد لما أبحت شيئاً من الإشادة بشعري مما أعدّه فوق كفايتي، وأنسبه إلى سماحة زملائي النقاد، وإلى نبل نفوسهم الحرة الشاعرة. إنني لعظيمُ الرجاء في الشباب الذي أعدّه روحُ الجيل الحاضر وأمل المستقبل، وما نحن إلا حلقة اتصالٍ بينه وبين تراث الماضي المجيد، وقد أوشكنا أن ننتهي من تأدية الأمانة إليه بعد أن أضفنا إليها غايةً مجهودنا الصغير. وليس من الرجاحة أن نُغالي في تقدير هذا المجهود، وفي تقريظ شعر الجيل الحاضر، ولكننا لا نقول غير الإنصاف إذا صرّحنا بأن الشعر العربي في هذا العصر قد بلغ عند أقطابه ونابيه غايةً لم يظفر بمثلها من قبل، بل لم يحلم بها، وإن من نماذجهِ الراقية ما لا يقلُّ عن أسمى الشعر الغربي إن لم يُفّقها شأنًا. وليس عجيباً أن يتنكر الجمهور أولاً لكل تجديد، فقد تغافل زمنًا عن مطران وشكري والعقاد وأمثالهم، وما يزال بين أفرادهِ من يتوهم أن هؤلاء النابهين معدودون بين الشعراء ظلماً! فما من أمة إلا وتُمثّل فيها هذه المآسي، وعلى الأخص نحو شعراء الشباب، وقد أنكرت البيئات الجامدة من قبل شاعرية أبي العلاء المعري، وابن الرومي، ومارلو، وشيلي، وكيّتس، وكثيرين غيرهم من أقطاب الشعر العالمي. وأظهر الأمثلة لعزاء شعراء الشباب ما لاقاه أمثال مارلو (صديق شكسبير ومرشده، وإمام الشعر المرسل في قومه، ومبدع التراجيدية في الأدب الإنجليزي)، وشيلي (الشاعر الغنائي الحر الفنان الذي حُرِمَ حتى إبراز اسمه على قصائده ومؤلفاته، وكانت تُغفل إغفالاً)، وكيّتس (قرين شيلي في ليريكيته وإبداعه وفتنته بالطبيعة) من العنت والإصغار والتحامل عليهم، ثم أصبحوا في زمة التاريخ من كواكب الشعر الخالدة وفخر أممهم! وفي الحق لا موجبَ لأسف الفنان ولا لعزائه، ما دام يُعنى بفنّه وحده، فيرغم البيئة عاجلاً أو آجلاً على مسابرتِه ومطاوعته بدل أن يرضخ هو لها ويضحي بفنّه. ولو أجمع شعراءُ الجيل على هذه القاعدة لارتفعوا بمستوى الشعر ارتفاعاً عظيماً، ولأنصفوه أيّما إنصافٍ، وأنصفوا معه أنفسهم وزمنهم وأمتهم، ولكنَّ ضعف النفوس، والفتنة بالألقاب والتقريظ، والشغف بإنشاء الأحزاب الشخصية، والتزلف إلى النقاد والجهلاء، والتفنن في المنافسات العقيمة التي لا تمتُّ بصلّة إلى الفن، كلُّ هذه العوامل أساءت، وما تزال تسيء إلى النهضة الفنية التي نعمل لها.

ولقد نادينا تكررًا بمثل ما نادت به إيمي شارب في جيلها منذ نيف وأربعين سنة عن أهمية العناية بالشعر العصري، ووجوب الاتصال المباشر بشعراء الجيل، والوقوف عن كثب على المؤثرات، والعوامل المكيفة لشعرهم، ثم تجيء الدراسات النقدية صادقة نزيهة مستوعبة أدق الاستيعاب لإبداع أولئك الشعراء، كذلك نادينا بواجب الحفاوة بجميع الشعراء صغارهم وكبارهم على السواء، إذ لو لم يكن لكل شاعرٍ صغيرٍ مقلٌّ سوى قصيدة أو اثنتين رائعتين لنجمت لنا من حسناتهم ثروة فنية عظيمة، في حين أننا لا نغتم شيئاً بتجاهلهم، بل نكون ويكون معنا الأدب من الخاسرين.

ولا أنكر أن كثيرين ينتسبون إلى النقد الأدبي، وهم لا يعرفون شيئاً عن أصوله، وعلى دعاية هؤلاء تقوم بين وقت وآخر هبةُ الفتنة بالإمارات والزعامات الشعرية، وإلهاء الشعراء عن أعمالهم الفنية الصحيحة، وإشغالهم بالعرض دون الجوهر، بل تعريضهم لما يُنافي كرامتهم والروح الفنية التي يجب أن تكون وحدها نبراسهم.

وقد بلغ الجهلُ ببعض النقاد ألا يفرقوا بين اجتماع الفنون وافتراقها، وبين الشعر والنظم والنثر والموسيقى! فإذا قلت لهم إن كلاً من البحري وشوقي موسيقار قبل أن يكون شاعراً، وإن كلاً من ابن الرومي ومطران شاعر قبل أن يكون موسيقاراً أسقط في أيديهم! ... ويصعب على أمثال هؤلاء أن يفهموا أن النظم يقابله النثر، وليس الشعر هو الذي يقابل النثر، فإن الشعر جوهرٌ وليس صياغةً، وقد يوجد في النظم والنثر على السواء، وإنما الشاعر يلجأ إلى النظم بفطرته في كثير من الأحوال ليستعين بموسيقيته على الاستهواء: استهواء نفسه المتأثرة المعبرة، ثم استهواء قارئه عن طريقها، وأن بعض الشعراء يكون موسيقياً بفطرته في كل شعره تقريباً؛ فيجتمع له فنّانٌ مثل اللورد تينسون، وبذلك يزداد تأثيره على قرائه، ومعظمهم لا يخلو شعره من اجتماع الشعر الأصيل بالموسيقى في بعض النماذج، وآخرون تجد الشاعرية القوية هي وحدها البارزة في شعرهم، كما أن بعض الشعراء ينبغ في فنين أو أكثر مثل: روزيتي، وجبران، فقد كان كلاهما شاعراً بارعاً ومصوراً، فإذا أخرج الشاعر ديوان شعر جامع بين الروح الشعرية القوية والموسيقى اللفظية الرائعة والصُور الفنية الساحرة، فإن اجتماع هذه الفنون الثلاثة يكون عظيم الأثر في نفوس الأدباء، ولكن الناقد الأدبي الذي يفتش عن الروح الشاعرة لا يعبأ بكل هذا، وإنما يعبأ بالروح الشاعرة وحدها، مثال ذلك: الناظر في ديوان عبد الرحمن شكري نظرةً شعريةً بحثةً فإنه لا يهّمه أن يكون ديوانه مطبوعاً على ورق رخيص مجرداً عن الرسوم الفنية، ولا أن ألفاظه بعيدة عن موسيقى الرنين

المألوفة، وإنما كل ما يعنيه أن يضع يده على شواهد الشاعرية العظيمة في كل صفحة من صفحات الديوان، وحينئذ يصيح قريراً: هنا تطوف روحُ شاعرٍ عظيم!

وقد بلغ الجهلُ والخلطُ بكثيرين ممن يتصدّون للنقد ألا يفقهوا أنَّ من روائع الشعر ما يسكن النثر، وأن للنثر موسيقية خاصة فاتنة، كما ترى في مقطوعات أمين الريحاني، وحسين عفيف، وتوفيق مفرج، وفي آثار غيرهم من الشعراء الناثرين، وأن موسيقى النظم كثيرة التنوع حسب الأوضاع والمناسبات، ويجب أكيداً أن تتنوع. وبلغ بهم الشططُ ألا يفهموا معاني التصوُّف في الشعر، ومنزلة المرأة في الفنون، فصاروا يؤخذون حيثما ينبغي أن يمتدحوا، وفُتِنُوا بحلاوة الألفاظ أو برنينها الفتنة التقليدية المعهودة فباتوا يصفون صاحب الرنين الحلو بالشاعر العظيم بدل أن يُنعت بالموسيقي مثلاً، وصاروا ينسبون إلى عبقریات الوصف المعاني الشائعة ما دامت تنتظمها الموسيقى اللفظية، ويكفرون بآيات الشعر التي لا تكون في نظام من الموسيقى التقليدية ... ولو كانت هذه الروحُ الضالَّةُ مسيطرةً على رجال الفنون جميعاً لما قامت لنا قائمة، فإنها روحٌ لا تتطلب الكمال، وإنما تتشبث بكل عتيق مألوف، ولا تعرف معنى الابتداع الفني وإن تشدَّقتْ به؛ لذلك يجيء نقدُها رخيصاً عاثراً، بل ميتاً لا جدوى منه.

وأيّن هذا من تشدّد الغربيين في النقد؟ أيّن سونبرن الآن؟ بل أيّن أستاذه فكتور هوجو؟ وما أدراك من سونبرن وفكتور هوجو في زمنهما؟! بل إن سونبرن في نفس زمنه برغم عظّمته الليريكية، وتمجيده الشعري للطبيعة، وبعثه التراجيديا الإغريقية، وبرغم عبقريته الدرامية كما ترى في ملحّمته «أطلنطا في كاليدون» كان معدوداً موسيقاراً أكثر منه شاعراً، وهو هو صاحب هذا الشعر الفلسفي البديع:

From too much love of living,
From hope and fear set free,
We thank with brief thanksgiving
Whatever gods may be
That no life lives for ever;
That dead men rise up never;
That even the weariest river
Winds somewhere safe to sea.

وهذا البَطْرُ من الغربيين هو دليلُ ثروتهم، ونحن لا ندعو إلى التَّشَبُّه بهم في ذلك، ولكننا ندعو إلى الإنصاف وحده، فلا يُحَجَّرُ على الشعراء ولا تَبَحَسُ أعمالُهم قدرها، وذلك في مصلحة الجمهور نفسه؛ لأنَّ الفنَّ ذاته لا تعنيه العقبات الوقتية ولا جحود البيئة إذ سوف ينتصر في النهاية سواء أفي هذا الجيل أم فيما بعده، فالفنُّ معنًى حيٌّ خالداً، وإنما الخاسر بالتغاضي عنه هو وحده الجيل المتغاضي.

ومن الزرابة بالشعر أن يعيَّن بعضُ النُّقَّاد للشعراء الموضوعات التي يجب أن يحصرُوا اهتمامهم فيها، بينما من حقِّ الشعر كَفَنٌ أن يقول ما يشتهي ما دام يقول ذلك في أسلوب جيّد، على حد تعبير سونبرن نفسه. وكم أُلقيت التُّهم المزدولة جزافاً على شعراء لا يعنيه غير التسامي بالأدب، وتقديس الجمال، ونقد الحياة نقدًا صادقاً، وخلقُ المثلِّ العُلَيّا. كذلك من الزرابة بالشعر والشعراء أن يقال إن في النثر غنيّة عن الشعر كأنما النثر مقابلهُ أو منافسُهُ، وينسى هؤلاء المتصدِّرون للنقد والإرشاد أثر الفنون الجميلة (والشعر بينها) في تهذيب الأمم أحسن تهذيب بتثقيف العقل الباطن الذي لا تُنسَبُ ويلات الإنسانية إلّا إلى جموحه؛ لأنه جماع الغرائز، ومكمنُ الإنسان البدائي ... ومن نكد الدنيا على الشعر والشعراء أن يلاموا على تألفهم وتعاونهم الأدبي والمادي، وإن احتفظوا كلّ الاحتفاظ بمذاهبهم الخاصة وشخصياتهم وإنتاجهم المستقل، بينما كثيرون من شعراء العربية أسوأ حالاً من الشاعر الفرنسي رينيه ليسليه الذي أعلن عزّمه على الطواف في شوارع باريس لبيع ديوانه الأخير «لما كان النحل يُغني» ...

إن شعر الجيل هو الشعر الصميم الصادق المطبوع، وهو جوهرٌ في ذاته له قيمته السامية، كما لكلِّ فن يقترن به قيمته الأخرى، وشعراء هذا الجيل يأبون تحكم الغرض والتقليد والقصور في الفنِّ، وإن رَحَبُوا كلّ الترحيب بالنقد الفنيِّ الدقيق، فمن شاء أن يتذوّق هذا الشعر ويقدره فليقرأه بروح الشاعر، وبروح الشاعر وحده، وإلا فليكتفِ بنظم القرون السوالف، ولا أقول بشعرها؛ فشعرها أيضًا حيٌّ خالداً، ولن يعرف قيمته غير ذوي البصر بالشعر الصحيح.

ولا يسعني أخيراً إلا تكرار الشكر للزملاء الشعراء المبرزين من تونس والعراق ومصر، الذين تضافروا من شتى النواحي على دراسة هذا الديوان بنفوسهم الصافية الكريمة، فجاءت دراساتهم تحية للشعر العصري عامّة لا لشعري وحده، وأرتقب باطمئنان من اطراد الرقيِّ الثقافيِّ في بيئتنا ألا يحتاج مثلُ هذا الشعر في المستقبل إلى أمثال هذه الدراسات؛ إذ يُصبح شذوذه مألوفاً، ويسترعي الانتباه بدلاً عنه شعرُ الشباب

الوثَّاب، وهذه هي السُّنَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ للحياة. فليكنْ إذن هذا الديوانُ وما سبقه وما سوف
يَتَّبَعُه من دواويني بين درجات الرقيِّ للشباب الشاعر المتسامي إلى الكمال، لا منبراً
لشهرتي الخاصة التي قد بلغتْ منها الكفاية، وهي أول ما يسأله الفنَّانُ المتجرِّدُ لفنِّه.